

الأيوبيون في الشام

تأليف

دكتور

يحيى محمد الفتح وأبو شامة

استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

طبعة جديدة مزيّدة معدلة

١٩٩٦

دار النهضة العربية

٢٢ شارع محمد الناصر، لوزة — القاهرة

هاتفون ٤ ٢١٢١١٢١



مقدمة

إذا كان مولد الدولة الأيوبية في منطقة الشرق الأدنى في القرن السادس الهجرى - الثاني عشر للميلاد - يعتبر احدى النتائج الهامة التى تمخضت عنها الحركة الصليبية في الجانب السياسى ، فان دولة بنى أيوب تعتبر بدورها مسئولة الى حد كبير عن قيام دولة سلاطين المماليك في نفس المنطقة في منتصف القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر للميلاد . ففى كثير من جوانب النشاط السياسى والحربى والحضارى تبدو دولة سلاطين المماليك استمرارا لدولة بنى أيوب ، بمعنى أن الدولتين تمثلان حلقتين متداخلتين في سلسلة تاريخية واحدة ، وذلك باستثناء بعض أوجه التباين الهامشية نتيجة لنوعية الحكام في كل من الدولتين من ناحية ، ولطبيعة الظروف الخارجية التى أحاطت بكل منهما من ناحية أخرى ، مما ترك أثرا في صورة البلاد الداخلية من ناحية ثالثة .

ولما كان المماليك الأوائل قد نشأوا وشبوا في حجر ساداتهم وأسائدتهم ملوك بنى أيوب ، فانهم منذ اللحظة الأولى التى أعلنوا فيها قيام دولتهم ، أظهروا تمسكا شديدا بما كان سائدا في العصر الأيوبي من نظم ورسوم ، كما اعتبروا أنفسهم ورثة أسائدتهم الأيوبيين ليس في ممتلكاتهم فحسب بل أيضا في سياستهم الخارجية تجاه القوى المعاصرة سواء الصديقة أو المعادية . وهكذا صار من المتعذر على الباحث المتخصص أن يقف على الصورة الحقيقية لعصر سلاطين المماليك دون أن يبدأ بدراسة جذور ذلك العصر ، وهى جذور قوية ضاربة في أعماق العصر الأيوبي . وبعبارة أخرى فان دراسة العصرين الأيوبي والمماليكى لا تكون الا متكاملة داخل اطار واحد يحيط بهاتين الدولتين - وبخاصة في مصر والشام - احاطة شاملة منذ قيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) حتى سقوط دولة سلاطين المماليك سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) .

ولم تغب هذه الحقيقة عن العلماء المعاصرين الذين دونوا موسوعات ضخمة عالجوا فيها نظم الحكم والادارة والعديد من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها . فما هو القلقشندى الذى دون موسوعته « صبح الاعشى فى صناعة الانشاسا » فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للهجرة - الرابع عشر والخامس عشر للميلاد - يعترف بأن النظم المطبقة فى دولة سلاطين المماليك انما أكثرها مأخوذ مما كان سائدا فى دولة بنى أيوب ، وبأن الدولة الاخيرة انما هى بمثابة الأصل والاساس بالنسبة لدولة المماليك ، ويعبر عن ذلك بعنوان كبير وضعه فى صدر فصل من فصول موسوعته نصه : « ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية (أى دولة سلاطين المماليك) والى زماننا على رأس الثمانمئة ، مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية البتى هى أصل الدولة التركية » .

وإذا نحن عالجتا تاريخ دولتى الايوبيين والمماليك داخل اطار واحد ، فان علينا أن ندرك أن هذا الاطار يضم أيضا المرحلة النشطة فى تاريخ الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى . حقيقة إن هذه الحركة ولدت فى أواخر الدولة الفاطمية ، ولكنها لم تشب وتصل الى عنفوان قوتها الا فى العصر الأيوبي . وحقيقة انه تم طرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام فى العصر المماليكى ، ولكن طرد هذه البقايا لا يعتبر بحال عن نهاية الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، اذ استمرت ذبول هذه الحركة قائمة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، أى الثامن والتاسع للهجرة . وعندما نقول ان عصر دولتى الايوبيين والمماليك شهد المرحلة النشطة فى تاريخ الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، فان علينا أن نعى الأبعاد الحقيقية لتلك الحركة بما فيها من تيارات حضارية وخاصة فى مجال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، والفنية والسياسية بين دولتى الايوبيين والمماليك من جهة والغرب الأوروبى المسيحى من جهة أخرى ، مما ترك بصماته واضحة فى الاحوال الداخلية لمصر والشام فى ذلك العصر .

وهكذا اكتسب عصر الأيوبيين والمماليك في تاريخ مصر والشام طابعا خاصا مميزا أضفى عليه روحا جعلته يختلف في كثير من معالمه عن العصور السابقة واللاحقة . وقد رأينا أن نفرد لهذا العصر هذه الدراسة التاريخية الموجزة التي ظهرت لأول مرة منذ عشرين عاما وأعيدت طباعتها عدة مرات دون أن تسمح لنا مشاغل الزمان بمراجعتها أو ادخال أى تعديل عليها .

وأخيرا ثناء الظروف أن نخصص لها جزءا من وقتنا فقمنا بمراجعتها وتصويب ما ألم بها من تحريفات مطبعية ، وأضفنا اليها العديد من الاضافات التي تلقى مزيدا من الضوء على ذلك العصر الحافل بالأحداث والتطورات .

والله ولى التوفيق ..

أ. د.

سعيد عبد الفتاح عاشور

القاهرة في جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ

يناير ١٩٩٠ م

القسم الأول
الدولة الأيوبية

الفصل الأول

مولد الدولة

مصر والحروب الصليبية :

ترتب على الحركة الصليبية التي دهمت المشرق الاسلامى في أواخر القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر للميلاد - نتائج بعيدة المدى في تاريخ الشرق والغرب جميعا . ويهمننا في دراستنا هذه ما يرتبط من تلك النتائج بالجانب السياسى . ذلك أن الأوضاع السياسية في البلدان الاسلامية في الشرق الأدنى تعرضت لتغيرات وتطورات سريعة منذ وصول الصليبيين الى الشام . وكثير من هذه التغيرات والتطورات جاءت الى مدى بعيد وليدة الخطر الصليبي . ولعل أهم هذه التغيرات ما طرأ على الخريطة السياسية لبلاد الشام ومصر من تبديل وتغيير بعد أن قضى الصليبيون على كثير من الأتابكيات والامارات الصغرى التي كانت قائمة في بلاد الشام من جهة ، وبعد أن قامت دولة بنى أيوب لتحل محل الدولة الفاطمية في مصر ، ثم تبسط نفوذها على معظم بلاد الشام داخل اطار وحدة تجمع بين البلدين ، من جهة أخرى .

فلك أن انتصار الصليبيين في الحملة الصليبية الاولى ، ونجاحهم في تأسيس امارات لهم في الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلا عن مملكة في بيت المقدس ، كان له أثره السئ ورد فعله العنيف في العالم الاسلامى ، الأمر الذى استثار بعض الزعماء المخلصين في المشرق الاسلامى ، ودفعهم الى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين . ولم تلبث أن أدت حركة الجهاد في القرن السادس الهجرى - الثانى عشر للميلاد - الى مولد جبهة اسلامية متحدة ، كان من أبرز روادها الأوائل عماد الدين زنكى أتاك الموصلى ثم ابنه نور الدين محمود .

وقد استهدفت هذه الحركة توحيد القوى الاسلامية المبعثرة بين النيل والفرات ، لتجعل منها بنيانا مرصوصا يستطيع الصمود في وجه الخطر الصليبي . وكانت هذه الفكرة - فكرة الجبهة الاسلامية المتحدة - هي الدافع الأول الذي جعل نور الدين محمود يتجه ببصره نحو مصر ، بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) وصار يسيطر على العديد من المدن الكبرى في الشام مثل حلب وحمص ، فضلا عن الكثير من الحصون والقلاع الهامة ، وبخاصة في شمال الشام^(١) . وسنتكلم فيما بعد عن تدخل نور الدين محمود في شئون مصر ، لنوضح كيف انتهى ذلك التدخل بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية . ولكن ما نحب أن نؤكد في هذا المقام هو أن التطورات السياسية التي انتهت بقيام الدولة الأيوبية ، انما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية .

والواقع أن الصليبيين لم يقلوا طمعا في مصر عن نور الدين محمود ، بل أن الصليبيين تطلعوا الى دلتا النيل وسعوا لاحتلال مصر عقب استقرارهم في بيت المقدس مباشرة . من ذلك أن جودفري دي بوايون - أول حكام دولة الصليبيين في بيت المقدس - وضع مشروعا للاستيلاء على مصر ، ولكنه توفي سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) قبل أن يبدأ في تنفيذ مشروعه . وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول ، وتوج ملكا على بيت المقدس ، خرج سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) للقيام بحملة استطلاعية أوصلته الى دلتا النيل ، فوصل الى أيلة على شاطئ البحر الاحمر ، ثم اتجه الى دير القديسة كاترينا في شبة جزيرة سيناء . ولما رفض رهبان الدير أن يستضيفوه خوفا من السلطات الفاطمية في القاهرة ، اتجه نحو القرما ونهبها . ثم تقدم الى تبتيس على شاطئ بحيرة المنزلة ، حيث مرض وتوفي بالعريش وهو في طريق عودته سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م)^(٢) .

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩٧ وما بعدها (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

ومنذ ذلك الوقت لم يتخذ الصليبيون عن فكرة الاستيلاء على مصر ،
حتى كان منتصف القرن السادس الهجرى — الثانى عشر للميلاد —
عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الاسلامية المتحدة لا تكتمل
حلقتها الا بالاستيلاء على مصر بالذات ، مما يحصر مملكة الصليبيين
فى بيت المقدس بين فكي كمانشة اسلامية تضغط عليها من ناحيتى
الشمال والجنوب . وهكذا غدت مصر ميدانا رئيسيا فى الصراع بين
نور الدين محمود والصليبيين .

ثم حدث فى أوائل سنة ٥٧٧ هـ (١١٦٢ م) أن توج عمورى
الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية ، مما يعتبر بداية مرحلة
جديدة فى سياسة الصليبيين تجاه مصر . ذلك أن عمورى الأول اتصف
بالشجاعة والجرأة والدهاء ، وهى صفات أجمع على وصفه بها
المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء . وقد أدرك
عمورى أن سيطرة نور الدين محمود على حلب ودمشق وحماه وحمص
شكلت سدا فى وجه الصليبيين ، وحالت دون توسعهم فى شمال الشام ،
وبذلك صار الطريق الطبيعى الوحيد الذى بقى مفتوحا أمام حركة
الصليبيين التوسعية هو طريق مصر .

وكانت الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت تقاسى آلام الموت البطيء ،
بعد أن انحلت الخلافة وفقدت هيبتها ، واختلت أحوال مصر الداخلية .
ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عندئذ من أن كثيرا من خلفائها
انتهى أمرهم بالقتل ، فضلا عن تحكم الوزراء العظام فى شئون الدولة

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ،

Grousset : Hist des Croisades II, p. p. 438 — 442.

هذا ، وقد وصف المؤرخ ابن الاثير الملك عمورى بأنه « لم يكن للفرنج

منذ ظهوروا بالشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء » . انظر أيضا :

ابو شلحة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٩٠ (تحقيق محمد

حلمى محمد أحمد) .

والخلافة جميعا • وقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولا سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، فاستبد بالأمور في مصر الوزير طلائع بن رزيك الأرمني الاصل • وكان الخليفة الفائز - ابن الظافر - طفلا صغيرا ليس له من الخلافة الا لقبها • وعندما توفي الفائز وهو في الحادية عشرة من عمره سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) أقام الوزير الخليفة العاضد ، الذي كان هو الآخر صغيرا في السن ، مما مكن الوزير طلائع بن رزيك من اللجوء بالخلافة واستعراض المرشحين لها « استعراض الغنم » على حد قوله (٤) •

ولم يلبث أن أحس الخليفة العاضد بثقل ذلك الكابوس ، فدبر مؤامرة مع بعض الأمراء لقتل ابن رزيك • ونجحت المؤامرة فعلا سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، فخلف ابن رزيك في منصب الوزارة ابنه العادل ، حتى قتله شاور حاكم الصعيد ، وحل محله في منصب الوزارة سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) • ولكن شاور أمعن في الاستبداد ، وساعت سيرته ، فخرج عليه ضرغام ، واشتدت المنافسة بين الرجلين ، في الوقت الذي كان عموري الأول ملك بيت المقدس يتطلع لغزو مصر •

وفعلا قام عموري بغزو مصر سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) فوصل الى بلبيس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب ، في الوقت الذي لجأ شاور الى نور الدين محمود بالشام « وأطمعه في الديار المصرية » (٥) • وكانت غزوة عموري لمصر قد أفزعت نور الدين لأنها كشفت عن نوايا الصليبيين تجاه وادي النيل ، مما يفسد عليه مشروع الجبهة الاسلامية المتحدة • لذلك قرر نور الدين أن يسرع بإرسال جيوشه الى مصر لحمايتها من السقوط في أيدي الصليبيين •

وكان أن أرسل نور الدين محمود حملته الاولى الى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته ابن أخيه

(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ - حوادث سنة ٥٥٦ هـ •

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٤٦ •

صلاح الدين الذي كان عندئذ في السابعة والعشرين من عمره . هذا فضلا عن شاور نفسه الذي صحب شيركوه في تلك الحملة . ولواجهة هذا الموقف استتجد زرغام بالصليبيين ، وتعهد لعموري الأول — مقابل مساعدته — بأن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين^(٦) . ولكن مهارة شيركوه ، وسرعته في قطع الصحراء الشرقية رغم تقدم سنه مكنته من أن يسبق الصليبيين في الوصول الى الدلتا ، فانبصر على جيش أرسله زرغام ، ونجح في الوصول الى القاهرة في بداية مايو سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) . ولم يلبث أن تخلى عن زرغام من كان حوله من الأعوان وعامة الناس ورجال الجيش والخليفة نفسه ، حتى انتهى أمره بالقتل أثناء محاولته الفرار ، فتولى شاور منصب الوزارة^(٧) .

على أن شاور لم يرع العهود التي قطعها على نفسه لنور الدين ، فما كاد يتولى الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه وطلب منه مغادرة مصر . وقد رد شيركوه على تصرفات شاور غير الودية باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يحاكي سلفه زرغام ، فاستتجد بالصليبيين ووعد عموري الأول باعطائه مبلغا كبيرا من المال مقابل مساعدته . وسرعان ما عاد عموري الأول على رأس حملة كبيرة الى الدلتا ، في الوقت الذي أخذ شيركوه يقوى مركزه في بلبيس بعد أن تلقى مساعدات من عرب كنانة بالشرقية . وعندما أخذت جيوش عموري وشاور تحاصر شيركوه في بلبيس ، تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعموري مصر ، وهو الأمر الذي تم فعلا في أواخر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) . وربما كان عموري الأول أكثر تلهفا على العودة الى الشام ، بعد أن انتهز نور الدين محمود فرصة غيابه وشدد هجماته

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٣٢ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ (تحقيق محمد حلمي) .

على الصليبيين بالشام ليضغط على عموري ويضطره الى الجلاء عن
مصر .

عودة شيركوه الى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) :

ولكن اذا كانت جيوش نور الدين محمود وعموري الأول قد
انسحبت جميعا من مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ، الا أن الطرفين
خرجا من تلك التجربة بفكرة واضحة عن ثروة مصر وغناها من ناحية
مع ضعفها الشديد من ناحية أخرى . وتجمع المصادر العربية على
أن شيركوه غادر مصر في تلك السنة « وهو في غاية من القهر » على
قول ابن تغرى بردى . أما ابن الاثير فيذكر أن شيركوه ظل بعد أن
خرج من مصر « يتحدث بها وبقصدها ، وكان عنده من الحرص على
ذلك كثير » (٨) . ولكن يبدو أن نور الدين محمود كان حريصا دائما على
عدم تشتيت قواته ، في الوقت الذي كثرت الاشتباكات بينه وبين
الصليبيين بالشام .

ومع ذلك ، فان هناك سببا قويا ظل يحرك عند نور الدين الرغبة
في غزو مصر ، وتعنى بذلك العامل المذهبي . ذلك أن الخلافة الفاطمية
في مصر كانت — في نظره — مصدرا للفرقة في العالم الاسلامي ،
لانها قسمت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى بين خلافتين ومذهبين :
الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة .
لذلك كان من الطبيعي أن يتجه نور الدين — وهو الحاكم السني
الحريص على دعم الجبهة الاسلامية المتحدة من الفرات الى النيل —
الى التفكير في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر .

وكان أن أتاحت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل
اليه الخليفة العاضد الفاطمي يشكو من استبداد شاور وجوره . ولم

(٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ ، ابن تغرى
بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ .

بكن نور الدين في حاجة عندئذ الى مزيد من التحريض ضد شاور ،
اذ كان في قلبه منه « حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستتجد
عليه بالفرنج »^(٩) . لذلك بادر نور الدين بارسال حملة شيركوه الثانية
الى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ، وكان بصحبة شيركوه في تلك
الحملة أيضا ابن أخيه صلاح الدين . ويبدو أن شيركوه عمل حسابا
لاستتجاد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يغامر بقواته في القيام بهجوم
على القاهرة ، واختار أن يعبر النيل الى الجيزة ، حيث عسكر في مواجهة
الفسطاط على الضفة الغربية للنيل . وعندئذ أدرك الخليفة الفاطمي
أن خطر قوات نور الدين عليه وعلى خلافته لا يقل عن خطر شاور
والصليبيين .

ولم يلبث أن استتجد شاور بعموري الأول ملك بيت المقدس الذي
أسرع في أواخر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليغزو مصر بجيوشه للمرة
الثالثة . وعندما علم شاور بوصول حلفائه ، خف لاستقبالهم عند بلييس ،
واتجه معهم حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل ، في حين كان
شيركوه لا يزال رابضا على الضفة الغربية في مواجهة الفسطاط . وفي
تلك المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور ، تضمن لهم أجرهم
قبل أن يقدموا له العون في محاربة شيركوه . وكان أن تعهد لهم شاور
بدفع أربعمئة ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ،
على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدما^(١٠) . ومن الواضح أن هذه
الاتفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية . لذلك
تحمس لها الصليبيون ، وحرص عموري الأول على اكسابها صفة رسمية ،
فأرسل سفارة الى الخليفة الفاطمي في قصره ، حيث تم اعتماد الاتفاق
بين الطرفين .

وكانت الخطوة التالية هي أن تستعد قوات عموري وشاور لعبور

(٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ .
(١٠) Schlumberger : Campagnes du Roi Amoury I, p. 116.

النيل الى الضفة الغربية لمهاجمة شيركوه ، وهو الأمر الذي تم فعلا عن طريق جزيرة الروضة . وعندما أدرك شيركوه حرج موقفه اتجه الى الصعيد ، فاقتفى أثره عموري الأول وشاور . وكان أن دارت بين الطرفين معركة البابين قرب الأسموتين بالمانيا (٥٦٢ هـ — ١١٦٧ م) . وشارك صلاح الدين في تلك المعركة ، التي أنتهت بانتصار شيركوه وارتداد عموري ليعسكر على الضفة الشرقية للنيل قرب الفيصلط (١١) وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه في احتلال القاهرة لو لقتفى أثر عموري في الحال ، ولكنه تباطأ ، وأثر أن يتجه شمالا على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية التي « تلقاه أهلها طائعين » ، ورحبوا به معبرين عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين (١٢) .

ويبدو أن شيركوه خاف أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل مدينة الاسكندرية ، فترك صلاح الدين في المدينة على رأس قوة صغيرة ، واتجه شيركوه نفسه الى الصعيد ليسيطر عليه . وكان أن حدث ما توقعه شيركوه اذ خرج عموري لحصار صلاح الدين بالاسكندرية . وعندما ساءت حالة المدينة وقل الطعام بها ، تخرج موقف صلاح الدين الذي لم يكن بصحبته أكثر من ألف محارب . لذلك أرسل صلاح الدين الى عمه بالصعيد يشرح له سوء موقفه ، ويطلب منه النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه الى العودة شمالا في أواخر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) . ويبدو أن شيركوه أدرك في تلك المرحلة حرج موقفه ، فأرسل الى الصليبيين يطلب الصلح ، وتم الاتفاق — مثل المرة السابقة — على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الطرفان مصر ، لينعم بها شاور من جديدا .

(١١) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، ص ١٣٢ وما بعدها (تحقيق عبد القادر أحمد طليبات ، ١٩٦٣) .

(١٢) أبو شامة : كتابة الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ١٤٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ .

وليس هناك شك في أن الذي شجع عموري على قبول طلب
انصالح هو احساسه بسوء موقف الصليبيين بالشام بسبب ائتداد
هجمات نور الدين على جيبتهم . ومهما يكن من أمر ، فان عموري
لم يفادر مصر الا بعد أن حقق نوعا من السيادة الصليبية على شاور
والخلافة الفاطمية جميعا . وأهم مظاهر هذه السيادة تعهد الفاطميين
بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار ، وبقاء قوة
صليبية تحمي أبواب القاهرة ، فضلا عن تعيين شحنة (مندوب) يمثل
الملك الصليبي في القاهرة ، ويكون له رأى مسموع في شئون
الحكم (١٣) .

استيلاء نور الدين محمود على مصر :

على أنه اذا كان عموري الأول قد غادر مصر مضطرا سنة ٥٦٢ هـ
(١١٦٧ م) ، فليس معنى ذلك أنه تخلى عن فكرة الاستيلاء عليها ،
لا سيما وأن تردد الصليبيين على مصر في المرات السابقة أدى الى
أنهم « اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها » على قول المؤرخ ابن تغرى
بردى (١٤) . وقد أدرك عموري الأول أنه في حاجة الى مساعدة قوة
خارجية تمكنه من الاستيلاء على مصر — فتحالف مع امبراطور الروم
— الامبراطورية البيزنطية — وتم الاتفاق على أن تقوم قوات صليبية
بيزنطية مشتركة بغزو مصر . ويبدو أن الامبراطور البيزنطى —
مانويل الأول — كان عندئذ مشغولا في البلقان ، فطلب امهاله بعض
الوقت لينفذ اتفاقيته مع عموري ضد مصر . أما الملك عموري فلم
يشأ انتظار ، وانفرد بالهجوم على دلتا النيل ، متذرا بأن شاور
تنكر لتعهداته مع الصليبيين ولم يف بالتزاماته لهم . بك أن شاور
اضطر، تحت ضغط الرأى العام الاسلامى الى أن يقلب سياسته رأسا

(١٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٤ (تحقيق عبد القادر أحمد
طليبات) .

(١٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥ .
(م ٢ — الأيوبيون والمماليك)

على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته للتخلص من
الحمية الصليبية .

وعندما غزا عمورى مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م)
لمس انقلابا كبيرا فى موقف السلطات الحاكمة ، اذ قاومته بلبيس
واضطر الى استخدام العنف للاستيلاء عليها ، ثم تقدم مسرعا صوب
القاهرة . أما شاور فقد أحس بحرج موقفه واستياء الناس من
سياسته ، فأحرق الفسطاط فى نوفمبر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م)
وأخذ يعد العدة للدفاع عن القاهرة^(١٥) . ولم يلبث أن أدرك الملك
عمورى صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة معادية مثل القاهرة ،
فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار . وكان أن انسحب
الصليبيون الى جهة سرياقوس حيث سمعوا باقتراب جيوش
نور الدين محمود بقيادة شيركوه .

وقد تركزت خطة عمورى فى مباغته جيوش شيركوه - وهى
متعبة - قبل أن تتمكن هذه الجيوش من الاتحاد مع القوات الفاطمية .
ولكن هذه الخطة انهارت من أساسها عندما علم عمورى أن شيركوه
عبر الصحراء الشرقية الى القاهرة حيث رحب به الامالى والتفوا حوله
لحمايتهم من الصليبيين . وهكذا لم يجد عمورى فى تلك المرة حليفا
يعتمد عليه فى مصر ، اذ اتحد المسلمون جميعا ضده ، فلم يبق أمامه
سوى أن ينسحب فورا عائدا الى فلسطين فى يناير سنة ١١٦٩ م
(٥٦٤ هـ) ومعه رجاله « خايين مما أملوه »^(١٦) .

أما شيركوه فقد « فرح به أهل مصر » ، واستقبلوه عند وصوله
الى القاهرة استقبال البطل المخلص . وسرعان ما استدعاه الخليفة

(١٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ١٢ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢
; تحقيق محمد حلمى) .
(١٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، التاريخ الباهر ،
ص ١٢٨ .

العاقد الفاطمي وخلق عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور » وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة « (١٧) . وكان أن أخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم . ومن الطبيعي أن يحس شاور بخطر شيركوه ، لاسيما بعد أن رأى ترحيب الخليفة العاقد به ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا « لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ، ورأى هوى العاقد معهم من داخله » . لذلك أرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور الى مصر عن طريق دمياط (١٨) . بل ان شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه ، وقتلهم جميعا أثناء وليمة يولمها لهم . وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ، فلما أرسل اليه الاخير يطلب منه الوفاء بوعدده أخذ يماطل لكسب الوقت ، انتظارا لوصول الصليبيين لنجدته . وأخيرا اجتمع أعيان مصر ، وقالوا لشيركوه ان « شاور سبب فساد البلاد والعباد » : وطالبوا بقتله وانتاذ المسلمين من شره (١٩) .

وهكذا انتهى الامر بقتل شاور وولده الكامل في يناير سنة ١١٦٩ م (ز ٥٦٤ هـ) ، وشارك الخليفة الفاطمي نفسه في التخلص منه . أما شيركوه ، فقد دخل على رأس قواته — وبصحبة ابن أخيه صلاح الدين — القاهرة دخول الظافرين . حيث أباح للناس نهب قصر شاور . على أن شيركوه لم يلبث أن توفي بعد شهرين (مارس ١١٦٩) فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين (٢٠) .

ظهور صلاح الدين :

كان جيش شيركوه في مصر يضم جماعة من أكابر الامراء الفورية

(١٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٢٩ (تحقيق عبد القادر طليمات) .

(١٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

(١٩) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٦٦ وما بعدها .

(٢٠) ابن الاثير : كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

الذين تطلع كل منهم الى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه . ولكن المصادر المعاصرة تؤكد أن الخليفة العاضد الفاطمي أمر على اختيار صلاح الدين للوزارة ، ولما تمنع « ألزم به وأحضر الى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة » . وربما ظن العاضد الفاطمي أن صغر سن صلاح الدين نسبيا يجعله عديم الخبرة فيسهل على الخليفة استخدامه في القضاء على بقية أمراء نور الدين في مصر ، وبذلك يكون الخليفة قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعا^(٢١) . ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن الخليفة العاضد الفاطمي ظن أنه اذا ولى صلاح الدين الوزارة ، فإنه سيكون « في ولايته مستضعفا ، يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه — أى الخليفة — يضع على العسكرا الشامى من يستميلهم اليه ، فاذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد اليه »^(٢٢) .

ولكن ما كاد صلاح الدين يتولى الوزارة ، حتى خيب ظن الخليفة الفاطمي ، فشرع فى استمالة الناس اليه بما بذله من أموال كان شيركوه قد جمعها ، « فمال الناس اليه وأحببه ، وضعف أمر العاضد » . ثم ان صلاح الدين أخضع ممالك شيركوه وسيطر سيطرة تامة على الجند ، فى الوقت الذى أمده نور الدين محمود بقوة جديدة من العسكرا ، فيها شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين . وبفضل ذلك كله ، تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة الفاطمي لاستعادة نفوذه^(٢٣) .

وكان البلاط الفاطمي فى ذلك الوقت مركزا لكثير من الفتن والمؤامرات ، ولا يحجم بعض رجاله عن الاستعانة بالأعداء فى سبيل

(٢١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٤٥ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٢٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٢ .

(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٤ (تحقيق جمال الدين المشيال) .

تحقيق مصالح خاصة مؤقتة . من ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد — وكان خصيا نوبيا اسمه مؤتمن الخلافة — استاء من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته على أهل القصر ، فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وحاول أن يتصل بعموري الاول والصليبيين للحصول على معونتهم . ولكن رسالة مؤتمن الخلافة الى عموري وقعت في يد صلاح الدين ، فرأى أن يستأصل الشر من جذوره ويقضى على أية محاولة للعودة الى سيانسة ضرغام وشاور . لذلك قتل مؤتمن الخلافة فورا في ٢٠ أغسطس سنة ١١٦٩ (٥٦٤ هـ) (٢٤) .

ثم لجأ صلاح الدين الى ابعاد جميع الخصيان ، والخدم السودان عن قصر الخلافة الفاطمية ، الامر الذي استثارهم . فاجتمع منهم خمسون ألفا وقاموا بثورة كبيرة في القسطنطينية . وقد اضطر صلاح الدين لاجماد هذه الثورة الى اشعال النار في محلتهم التي اعتصموا فيها ، حتى طلبوا الامان في أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وانتقلوا الى الجزيرة على الضفة الغربية للنيل . واكن صلاح الدين أرسل اليهم أخاه توران شاه في طائفة من العسكر « فأبادهم بالسيف » (٢٥) . وكذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الارمن ، اذ أشعل النار في ثكناتهم ، وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان . وبذلك قضى صلاح الدين على عناصر المعارضة ، وأدب القوى التي حاولت الوقوف في وجه آماله ومشاريعه ، في حين « ضعف أمر العاضد بالكلية ، وتلاشى أمره ، وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان وأعفى أثرها » (٢٦) . ولم يبق أمام صلاح الدين الا كبار المقطعين وملوك الأراضى الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم

(٢٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ١٧٨ ، ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .
(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٦ — ١٧٨ .
(٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٧ (تحقيق جمال الدين الشيبان) .

الواسعة الى مساندة الاوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضا ، وأحل محلهم في اقطاعاتهم جماعة من رجاله الوافدين معه صحبة جيوش نور الدين .

على أنه يلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة في ذلك الدور بوصفه نائبا عن نور الدين محمود ، لا بوصفه وزيرا للخليفة الفاطمي . وبعبارة أخرى فإن صلاح الدين استطاع حتى تلك المرحلة أن يحتفظ بعطف سيده نور الدين وعدم اثاره مخاوفه نتيجة للخطوات السريعة الناجحة التي دعم بها سلطانه في مصر . والواقع ان صلاح الدين كان لا يستطيع بأى حال أن يستغنى عن معونة سيده نور الدين في ذلك الدور المبكر من كفاحه ، لاسيما وأنه واجه صعابا عديدة داخل مصر في الوقت الذي أخذ الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية والشمالية للبلاد (٢٧) .

الصليبيون ومهاجمة مصر :

من الواضح أن نجاح قوات نور الدين محمود في السيطرة على مصر أثار فزع الصليبيين بالشام ، بعد أن أحسوا بوقوعهم بين شقى الرحى . هذا الى أن سيطرة قوات نور الدين على القواعد البحرية في شمال مصر — وبخاصة دمياط والاسكندرية — كان من شأنها أن تسلب الصليبيين انفرادهم بالسيطرة البحرية على ذلك الجزء من شرق البحر المتوسط .

وعندما فشل عمورى الاول ملك بيت المقدس في الحصول على معونة سريعة من غرب أوروبا لمواجهة خطر ازدياد نفوذ نور الدين محمود ، اتجه صوب الامبراطورية البيزنطية ، طالبا عقد تحالف بين

(٢٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٥٨ (الطبعة

القوتين المسيحيتين لغزو مصر واقتسامها^(٢٨) . وكان أن أعد الامبراطور انبیزنطی مانویل کومنین اسطولا كبيرا غادر الدردنیل فی يوليو ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) قاصدا قبرص ومنها الى صور ثم عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة المشتركة لغزو مصر .

وقد تم الاتفاق فی هذه الخطة على غزو مصر برا وبحرا عن طريق دمياط ، فأقلم الاسطول البيزنطی صوب دمياط ، فی حين زحف الصليبيون برا فی أكتوبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) من عسقلان الى الفرما قاصدين دمياط « ومعهم المنجنیقات والدبابات وآلات الحصار »^(٢٩) ولكن الاسطول البيزنطی عندما وصل الى دمياط وقف عاجزا عن دخول الميناء ، بسبب المآصر ، وهی سلاسل حديدية ممتدة فی الماء بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الاعداء .

وعندما علم صلاح الدين بتحركات الصليبيين ، ظن فی أول الامر أنهم سيقصدون القاهرة عن طريق الشرقية ، مثلما فعل الملك عموری فی حملاته السابقة . لذلك أسرع صلاح الدين بتحسين بلبيس والقاهرة ، فضلا عن الاسكندرية وغيرها من المراكز الامامية . فلما اتجهت الحملة الى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فی موقف حرج ، لا سيما وأنه كان يخشى باستمرار نشوب ثورة ضده فی الداخل ، نتيجة لاستياء العناصر الموالية للخلافة الفاطمية من سياسته تجاه خصيان القصر والجند السودان .

ومع ذلك ، فان صلاح الدين ثبت للموقف ، وطلب النجدة العاجلة من سيده نور الدين « فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا »^(٣٠) . وفي الوقت نفسه كان تقى الدين عمر — ابن أخى

(28) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Doc. Occ. II p. 961)

(٢٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٣٠) ابن الأثير : كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

صلاح الدين — ، وكذلك خاله شهاب الدين محمود الحارمى ، قد استطاعا دخول دمياط ، فأرسل صلاح الدين الامدادات اليهما عن طريق النيل ، مما جعل الحصار الذى ضربه الصليبيون على المدينة غير تام^(٣١) هذا الى أن أهل دمياط المحاصرين استغلوا جريان تيار النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة ، أنزلت أبلغ الضرر بالاسطول البيزنطى ، فاضطر الى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة^(٣٢) .

ولم يلبث أن نفذ تموين الاسطول ، واشتد القلق بالملك عمورى نتيجة للأخبار التى وصلتته عن اشتداد هجمات نور الدين على الصليبيين بالشام . لذلك رفع عمورى الحصار عن دمياط ، وعاد ومعه جيوشه الى عسقلان فى أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) ترافقهم خيبة الامل ، فى الوقت الذى لم يستطع بحارة السفن البيزنطية التحكم فيها بسبب اشتداد الرياح ، مما أدى الى غرق كثير منها .

ولا شك فى أن فشل هذه الحملة الصليبية البيزنطية أدى الى دعم مركز صلاح الدين فى مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل لها فى التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمى — عقب انسحاب الصليبيين — الى نور الدين يرجوه سحب جنده الاتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب فى قلوب أهلها . ولكن نور الدين أرسل اليه « يمدح الاتراك ، ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بأن قنطاريات (رماح) الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك ، فان الفرنج لا يربعون الا منهم »^(٣٣) .

(٣١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٦١ (١٩٨٦) .

(32) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. II p. 968) .

(٣٣) ابو شامة : الكتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٠ .

سقوط الخلافة الفاطمية :

وفي تلك الاثناء كان نور الدين قد شدد هجماته على الصليبيين بالشام ، كما فرض سيادته على الموصل سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) .
على أن هناك مشكلة كبرى لها خطورتها أفلقت بال نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف جميعا ، هي المشكلة الخاصة بضرورة وضع نهاية للخلافة الفاطمية . ذلك أن بقاء هذه الخلافة الشيعية تحت حماية قوة تدين بالمذهب السني بدا أمرا غير طبيعي يتطلب وضع حل سريع له . ومن الثابت أن علاقة نور الدين محمود بالخلافة العباسية ، ازدادت متانة وقوة عقب نجاح نور الدين في بسط سيادته على الموصل (٢٤) . ولكن يبدو أن الخلافة العباسية كانت تنتظر من نور الدين أن يفعل شيئا ما اتجاه الخلافة الفاطمية التي ظلت قائمة تحت حمايته في مصر . أما صلاح الدين يوسف فلم يكن أقل تحمسا للمذهب السني لأنه كان شافعيًا ملتزمًا : ولذا فإنه أخذ يعمل منذ أن استتبت له الامور في مصر على دعم المذهب السني في البلاد ، والخليفة الفاطمي في قصره يسمع ويرى دون أن يقوى على مقاومة ذلك التيار الجديد .

ومع ذلك فإنه يبدو أن صلاح الدين ظل متخوفا من الاقدام على الخطوة الحاسمة الخاصة باسقاط الخلافة الفاطمية . ويفسر البعض مخاوف صلاح الدين من الاقدام على هذه الخطوة بأنه في حقيقة الامر كان متخوفا من نوايا سيده نور الدين محمود أكثر من تخوفه من قوة الشيعة والخلافة الفاطمية في مصر . ذلك أن صلاح الدين أخذ يحس في ذلك الدور بتغير شعور نور الدين نحوه ، وأن نور الدين بات يحسد صلاح الدين على ما حققه من مكانة في مصر . وأنه أخذ يتوجس خيفة من ازدياد نفوذه مما يهدد مصالح نور الدين . لذلك رأى صلاح الدين

(٢٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

أن يبقى على الخلافة الفاطمية في صورتها الهشة ليستغلها عند الحاجة كستار يحميه من سبده . الدين اذا تآزم الموقف بين الرجلين^(٢٥) .

وهكذا أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه الاخير اسقاط الخلافة الفاطمية ، تحقيقا للوحدة المذهبية في العالم الاسلامي . وقد رد صلاح الدين على طلب سيده نور الدين معتذرا « بالخوف من وثوب أهل مصر وامتاعهم من الاجابة الى ذلك ، ليلهم الى العلويين » . ولكن نور الدين « لم يصنع الى قوله » ، وأرسل اليه انذارا نهائيا في صيف سنة ١١٧١ م (٥٦٦ هـ) يأمره فيه باحلال اسم الخليفة العباسي المستضيء محل اسم الخليفة الفاطمي العاضد في خطبة الجمعة « وألزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه »^(٢٦) .

وأخيرا اضطر صلاح الدين الى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة ، فتم الدعاء في أول جمعه من عام ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) للخليفة العباسي المستضيء أمر المؤمنين بالقاهرة . وحدث الانقلاب في هدوء ، دون أن « يفتطح فيه عنزان » على قول المؤرخ ابن الاثير^(٢٧) . ويقال ان الخليفة العاضد الفاطمي توفي بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر باخفاء الخبر عنه ليتركه يقضى نحبه في هدوء . وبعد ذلك اتخذ صلاح الدين عدة اجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية في مصر . من ذلك ما يرويهِ المقرئزي أنه نزع المناطق الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة ، والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء

(٢٥) ابن الاثير ، الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .
(٢٦) ابن واصل ، مرجع الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ، ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ .
(٢٧) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ، الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

الفاطميين^(٣٨) . هذا فضلا عن أنه كان — بعد أن ولى الوزارة — قد أنشأ مدرسة للشافعية « ولم يكن بمصر للشافعية ، ولا لغيرهم مدرسة ، لأن الدولة كانت اسماعيلية » . كذلك فوض القضاء بالديار المصرية الى قاضى القضاة صدر الدين الهذبانى الشافعى ، الذى جعل « القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية ، فاشتهر مذهب الشافعية ؛ واندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية ، وانمحق أثره »^(٣٩) .

ولا شك فى أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى ، وانما كان حدثا خطيرا فى تاريخ العالم الاسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص . فهامى دولة الفاطميين تنهار بعد قرنين من الزمان تقريبا ، لتعود لزعامه العالم الاسلامى وحدتها المذهبية ، وتصبح الخلافة العباسية ، هى الوحيدة التى تدين لها غالبية المسلمين بولائهم الروحى . لذلك لا عجب اذا أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيرا عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية ، بل ان الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله بادر بارسال الخلع الى نور الدين وصلاح الدين ، ومعها الاعلام والرايات السود شعار العباسيين^(٤٠) .

(٣٨) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ق ١ ، ص ٤٣ — ٤٥ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .
(٣٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٩٧ — ١٩٨ (تحقيق جمال الدين الشيال) .
(٤٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٤٦ .

الفصل الثاني

صلاح الدين وتأسيس الدولة الايوبية

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين :

لم تلبث أن دبت الوحشة بين صلاح الدين في مصر وسعيده نور الدين بالشام ، وذلك عقب سقوط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بسبب تحديد علاقة الطرفين بعضهما ببعض . فحتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى في مصر بوصفه وزيرا شرعيا للخليفة الفاطمي ، فضلا عن قيامه بتنفيذ تعليمات نور الدين ؛ بوصفه نائبا عنه ، وقائدا لقواته في مصر . وفي ذلك الدور كانت الخطبة على المنابر « بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين »^(١) . ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد « صفا الوقت لصلاح الدين » على قول المؤرخ ابن تغرى بردى ، وصار يخطب باسمه على المنابر. بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود^(٢) .

ومع ذلك ، فان جميع الدلائل تشير الى أن صلاح الدين ظل في تلك المرحلة محافظا على ولائه لسعيده نور الدين محمود ، فكان لا يخرج عن أوامره « ويعمل له عمل القوى الامين ، ويرجع في جميع مصالحه الى رأيه المتين »^(٣) . كل ما في الامر هو أن الظروف التى أحاطت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٧٣ (تحقيق جمال الدين الشيبلى) .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٠٣ (تحقيق محمد

حلمى) .

بصلاح الدين أجبرته على توسيع دائرة نشاطه ، وذلك بحكم ولايته منصب الوزارة في مصر . من ذلك أنه خرج الى جهة الرملة ، وعسقلان وغزة للقيام بهجمات محدودة على الصليبيين حتى يشعروهم بقسوته ، كما فتح قلعة أيلة وأسر من فيها من الصليبيين . أما في الداخل ، فقد زار الاسكندرية « ليشاهدها ، ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها » (٤) .

ولا شك في أن هذا النشاط المتعدد الأوجه وما صحبه من ازدياد أهمية صلاح الدين على مسرح الاحداث ، كل ذلك استثار مخاوف سيده نور الدين محمود ، وخاصة بعد أن سقطت الخلافة الفاطمية ، وظهر صلاح الدين في صورة الرجل الاول في مصر . وكان على صلاح الدين عندئذ أن يحدد موقفه من سيده نور الدين ، وأن يختار أحد طريقتين : فاما أن يظل على ولائه لنور الدين وفي هذه الحالة عليه أن يتقبل قرار نقله من مصر في أية لحظة ؛ واحلال غيره محله . واما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته ؛ وفي هذه الحالة عليه أن يكون مستعدا للدخول في معركة ضده . وقد تنتهى هذه المعركة بفوزه بمصر أو بأقول نجمه على أرضها (٥) .

ويروى لنا المؤرخون المعاصرون مثلا واضحا لتخوف صلاح الدين من نوايا سيده نور الدين في ذلك الدور . ذلك أن صلاح الدين خرج من مصر في أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، وذلك بناء على أوامر صدرت اليه من سيده نور الدين لمحاصرة حصن الشوبك — جنوبى البحر الميت — والاجتماع مع سيده هناك لمهاجمة حصن الكرك والشوبك . ولم يستطع الصليبيون في حصن الشوبك الصمود طويلا ، فطلبوا اعطائهم مهلة عشرة أيام للتسليم . ولكن صلاح الدين لم يلبث

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(5) Grousset : Hist. des Croisades. II, p. 590.

— وهو أمام الشوبك — أن علم بمسيرة نور الدين اليه لمساعدته . وعندئذ أوجس صلاح الدين خيفة ، وخشى أن يقبض عليه سيده نور الدين ويمنعه من العودة الى مصر ، فبادر بالانسحاب والعودة الى مصر ، معتذرا « باختلال أمور البلاد — أي مصر — وأنه يخاف عليها من البعد عنها » ، وتحجج بأن العلويين على وشك اشعال ثورة في القاهرة ، مما تطلب سرعة عودته . وهكذا لم يثأ صلاح الدين أن ينتظر وصول سيده نور الدين ، وانما قفل راجعا ، ويبدو « أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين » (٦) .

ومن الطبيعي أن يستاء نور الدين محمود من سلوك نائبه في مصر ، « فعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره » . بل ان نور الدين أخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين : الامر الذي أخاف الاخير ، فعقد اجتماعا ضم أهل بيته وبعض خاصته للتشاور فيما يجب عمله لمواجهة الموقف . وفي الاجتماع تحدث بعض الشبان المتحمسين من أسرة صلاح الدين — مثل ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر — فنادوا بالتصدي لنور الدين ومقاتلته . ولكن والد صلاح الدين — وهو الشيخ نجم الدين أيوب « وكان ذا رأى ومكر وعقل . . . تدخل فورا بلباقة : فشتتم أولئك المتهورين . ثم نظر الى ابنه صلاح الدين يوسف وقال : « والله لو رأيت — أنا وخالك هذا — السلطان نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له : ونقبل الارض بين يديه . ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف ل فعلنا . . . وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه . فاذا أراد عزلك فأى حاجة الى المجيء ؟ يأمرك مكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد » (٧) . ثم

(٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ ،
ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥١٨ .
(٧) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩ (تحقيق محمد مصطفى

نظر الشيخ نجم الدين أيوب الى الجميع وصاح فيهم « قوموا عنا ،
فنحن مماليك نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد » .

ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين همس في أذنه « أنت جاهل
قليل المعرفة • تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ؟
فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الامور
اليه وأولاها بالقصد • ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ،
وكانوا أسلموك اليه • وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون اليه
ويعرفونه قولى • وتكتب أنت اليه وترسل في هذا المعنى ، وتقول :
أى حاجة الى قصدى ، يجيء نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى •
فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده • والايام
تندرج والله كل وقت فى شأن !! » .

وكان أن استجاب صلاح الدين لنصح والده ، وكتب الى نور
الدين يعرب له عن ولائه ، كما أرسل اليه هدية ثمينة من الحيوانات
النادرة والجواهر والاقمشة والمصنوعات والعطر (٨) .

ولكن يبدو أن كل ذلك لم يقلل من غضب نور الدين محمود ،
ومخاوفه لاحساسه بأن صلاح الدين استولى فعلا على مصر ، بحيث
« لم تخف حال نور الدين فى كراهية الملك الناصر (صلاح الدين) ،
وقد علم بذلك جميع الاجناد والامراء وتحدث به العوام » (٩) .

أما صلاح الدين ، فانه لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التى حققها
فى مصر ، ولم يشأ أن يتخلى عن مطامعه ، وانما أخذ يستعد لما عساه

(٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٨ — ١٥٩ ،
ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ١٠ ، ص ٥١٨ — ٥٢٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .
(٩) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٢٥ .

يحدث في المستقبل» وكان أن فكر صلاح الدين وأمله « في تحصيل مملكة يقصدونها ويملكونها ، تكون عدة لهم ، ان أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها »^(١٠) . لذلك أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه في أواخر سنة ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) لفتح بلاد النوبة ، حتى تصبح مأوى للأيوبيين في حالة دخول نور الدين مصر . ولما اكتشف صلاح الدين أن بلاد النوبة فقيرة « قليلة الجدوى » ، أرسل أخاه توران شاه الى اليمن سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) حيث أخضعها وحقق تبعيتها لصلاح الدين^(١١) . بل ان المؤرخ ابن الاثير يباليغ فيذكر أن صلاح الدين حرص في ذلك الدور على عدم التوسع في محاربة الصليبيين ليظلوا ستارا يفصل بينه وبين سيده نور الدين ، ولذلك أظهر « فتورا في غزو الفرنج من ناحيته »^(١٢) . ويتفق أبو شامة مع ابن الاثير في وجهة نظره ، فيقول ان صلاح الدين كان يرى في بقاء الصليبيين في فلسطين في تلك المرحلة ستارا يحميه من نور الدين ، وأنه « كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه ، فكان يحتسى بهم عليه ، ولا يؤثر استئصالهم »^(١٣) .

حقيقة ان صلاح الدين قام بغزو ممتلكات الصليبيين في الكرك والشوبك سنة ١١٧٣ م (٥٦٨ هـ) وذلك بناء على نصيحة والده ، ولكن هذه الغزوة لم تطل ، بل على العكس أدت الى تجدد الخلاف بينه وبين سيده نور الدين . ذلك أن صلاح الدين ما كاد يحاصر حصن الكرك ، حتى عاد وتخوف من نوايا نور الدين تجاهه ، وعندما علم صلاح الدين باقتراب سيده نور الدين من حصن الكرك ، انسحب فوراً

(١٠) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(١١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٣٧ — ٢٤٣ .

(١٢) ابن الاثير : التلريح الباهر ، ص ١٦١ .

(١٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

(م ٣ — الأيوبيون والملوك)

عائداً إلى مصر ، متحججا بمرض أبيه « وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت » (١٤) . وفي تلك المرة ، كان صبر نور الدين قد نفذ ، فصنع نهائياً على غزو مصر والقيام بعمل حاسم لتأديب صلاح الدين . ويذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين أخذ يستعد لمواجهة الموقف ، وأنه شرع في بناء « السور الدائر بالقاهرة ومصر المحروستين وذلك خوفاً من نور الدين الشهيد » (١٥) . ولا نميل إلى الإخذ بهذا الرأي لأن التفكير في ترميم السور كان حوالي سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) عندما جاءت الأخبار باستعداد الصليبيين لغزو مصر . ومهما يكن من أمر ، فان نور الدين ما كاد يستعد لغزو مصر ، حتى دهمه الموت فجأة في مايو ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) ، وبذلك صارت الساحة خالية أمام صلاح الدين (١٦) . والمرجح أن صلاح الدين أمر ببناء سور القاهرة سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ، أي بعد وفاة نور الدين .

المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) :

استطاع صلاح الدين في مدى فترة قصيرة أن يتخلص من القوى التي اعترضت سبيله أو شكلت عقبات على طريق طموحاته ، فقضى على الجند السودان ، وهم دعامة الخلافة الفاطمية الذين ثاروا ضده ، ثم خلاصه الموت من الخليفة العاضد الفاطمي ، ومن سيده نور الدين مخفود جميعاً . على أنه لم يكن معنى سقوط الخلافة الفاطمية من ناحية ، ووفاة نور الدين محمود من ناحية أخرى ، أن صلاح الدين

(١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٣ . هذا وقد توفي نجم الدين أيوب فعلاً في ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ لكن وفاته لم تكن بسبب مرض وإنما نتيجة لسقوطه من فوق فرسه . وكان نجم الدين مولعاً باللعب بالكرة وشدة الركض .

انظر : ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر ج ٧ ص ٤١ (تحقيق المؤلف) .
(١٥) ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر — الجزء السابع المسمى « الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب » ، ص ٤ (تحقيق المؤلف) ، (١٩٧٢) .

(١٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

غدا فعلا وارث الدولتين الفاطمية والنورية ، وأن الامور استقرت له تماما في مصر والشام . ذلك أنه كان على صلاح الدين أن يواجه متاعب جمّة من جانب أتباع الفاطميين في مصر ، ثم من جانب ورثة نور الدين وأتباعه في الشام . وقد أدرك صلاح الدين منذ وقت مبكر أنه لا بد من وحدة اسلامية متينة في الشرق الأدنى قبل الشروع في حركة الجهاد الكبرى ضد الصليبيين . وهذه الوحدة لا تكتمل الا باخضاع العناصر المناوئة ، على امتداد الجبهة الاسلامية المواجهة للخطر الصليبي من الفرات الى النيل .

وأما من ناحية مصر ، فيلاحظ أنه اذا كانت الخلافة الفاطمية قد ماتت موتاً صامتاً في ظاهر الامر ، الا أن المخلصين من أتباع تلك الخلافة لم يرضوا عن الانقلاب الذي حدث . وكان هؤلاء الأتباع اما من الشيعة أو من جماعة المنتفعين من النظام القديم ، وهؤلاء جميعا عز عليهم أن يعصف صلاح الدين بخلافتهم ومذهبهم ومصالحهم ونفوذهم . ومن المعروف في التاريخ أن لكل دولة أنصارها ولكن نظام أسياعه ، حتى لو كانت هذه الدولة أو ذلك النظام يتصف بالفساد ، وهؤلاء الانصار والاشياع هم في المقام الاول جماعة المنتفعين من ذلك النظام أو المتعيشين في ظل تلك الدولة .

ولم تلبث أن دبرت مؤامرة كبرى في القاهرة سنة ٥٦٩ هـ (مارس — أبريل ١١٧٤ م) — أي قبيل وفاة نور الدين محمود بقليل — ، اشتركت في حبك أطرافها كافة العناصر المستفيدة من العهد البائد ، الناقمة على الوضع الجديد . واتخذ المتآمرون من السعي لاهياء الخلافة الفاطمية ستارا يخفون نواياهم خلفه ومحورا يلتقون حوله . أما زعماء هذه المؤامرة فكانوا انتساجر عمارة اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي العوريس داعي دعاة الشيعة ، وابن عبد القوى ، فضلا عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية وموظفيها وبقايا الجند السودان ، وخدم القصر الفاطمي وغيرهم ، « وأجمعوا

على أن يقيموا خليفة ووزيرا « (١٧) » .

وعندما أدرك المتآمرون أنهم في مسيس الحاجة الى قوة خارجية تساعدتهم في تنفيذ مؤامرتهم ، اتصلوا بالباطنية الحشيشية ، وهي القوة الشيعية الكبرى في بلاد الشام ، وطلبوا منهم العمل على قتل صلاح الدين (١٨) . ولم يكتف المتآمرون بذلك وإنما اتصلوا أيضا بالصليبيين ، واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر في نفس الوقت الذي يشعلون هم ناز الثورة في القاهرة والفسطاط ، حتى يقع صلاح الدين بين نارين (١٩) . يضاف الى ذلك أن المتآمرين اتصلوا كذلك بوليم الثنائي النورمانى ملك صقلية ليهاجم أسطوله الاسكندرية في الوقت الذي يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق . وهكذا أحكم المتآمرون حلقة الحصار حول صلاح الدين ، ووثعوا جميع الترتيبات ، بحيث « لم يبق الا رحيل الفرنج » على قول ابن الاثير (٢٠) .

وقبل الشروع في التنفيذ ، أرسل عمورى الاول رسولا الى القاهرة ، يحصل في ظاهر الامر تحيات الملك الصليبي لصلاح الدين ، ولكنه استهدف في الحقيقة رسم الخطوط النهائية للمؤامرة مع المتآمرين . وقد اختار المتآمرون فرصة تغيب توران شاه في اليمن موعدا لتنفيذ مؤامرتهم ، حتى لا يحل محل أخيه صلاح الدين في حالة قتله . وبلغ من ثقة المتآمرين في نجاح مؤامرتهم أنهم عينوا أعضاء

(١٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ ،
المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٣ ، هذا ويلاحظ ان
الشاعر عبارة اليمنى لم يكن على مذهب الفاطميين « وإنما كان شافعيًا
سنيًا » ولكنه عندما قدم على الفاطميين من اليمن « أحسنوا اليه وخولوه ،
فرعى ذلك لهم » أي حفظ لهم الجبيل عند انقضاء دولتهم . انظر :
ابن واصل : منرج الكروب ، ج ١ ص ٢١٢ .

(١٨) ابن واصل : منرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 311.

(١٩)

(٢٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

الجهاز الحكومى الجديد « وعينوا الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والأمالك ، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك » ، بحيث لم يبق الا التنفيذ^(٢١) . وكان ذلك فى الوقت الذى استجاب وليم الثانى ملك صقلية للدعوة التى وجهت اليه ، وأعد أسطولا ضخما من ستمائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، خرجت فعلا فى اتجاه الاسكندرية^(٢٢) .

على أن المؤامرة لم تلبث أن تكشفت وتم اجهاضها قبل أن تولد . ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم فى سرهم الفقيه الواعظ الحنبلى زين الدين على بن نجا^(٢٣) ، فقام باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولا فأول . وفى الوقت نفسه وصل ابيعبوث الذى أرسله عمورى الاول الى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين ، فانكشف أمره بعد قليل . أما صلاح الدين ، فلم يكذب يتأكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فوراً ، وصلب زعماءهم الشاعر عمارة بن أبى الحسن اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والعمرييس القاضى . وتم ذلك فى ابريل سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) ، فى حين اختفى آخر الامراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد^(٢٤) .

أما عمورى الاول — ملك بيت المقدس — فلم يكذب يعلم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة ، وفشل خطته الموضوع لغزو مصر . حتى انهارت معنوياته ، وتوفى مقهورا فى بيت المقدس (يوليو ١١٧٤ م /

(٢١) ابن واصل : مخرج الكروب ، ج ١ ص ٢٤٤ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٠ .

(٢٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .

(٢٣) عن سيرته انظر :

ابن العماد : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، ج ٤ ص ٣٤٠ — ٣٤١ (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

(٢٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

٥٦٩ هـ (٢٥) ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية الى الاسكندرية في ٢٨ يوليو من العام نفسه ، فوجد كل شيء قد انتهى ، فالؤامرة فشلت بعد أن انكشفت ، وحليفه الملك عمورى الاول مات ، وبذلك فان الشروع في غزو مصر صار غير ذى موضوع . ومع ذلك فان رجال الحملة النورمانية حاولوا اقتحام الاسكندرية ، ولكن المسلمين صمدوا لهم ، وأحرقوا بعضا من سفنهم ، في حين قدم صلاح الدين نفسه مسرعا ومعه جيشه ، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم . وهكذا « ولت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله الغالبة ، وبقي العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرق ... » (٢٦) .

ثم ان صلاح الدين وجه جهوده بسرعة نحو اخماد ثورة أخسرى قامت في أسوان على حدود النوبة ، أشعلها أحد قادة الفاطميين — واسمه كثر الدولة — الذى جمع حوله في أسوان بعض العناصر المتعاطفة مع الدولة الفاطمية ، وأوهمهم « أنه يملك البلاد ، ويعيد الدولة العبديية (الفاطمية) المصرية » ، ثم زحف بهم على قوص . ولكن الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه العادل سيف الدين ، استطاعت أن تقضى على ذلك النفر من الجند السودان قضاء مبرما ، حتى « استأصل شأفتهم وأخمد ثأرتهم » . وكان ذلك في أوائل سبتمبر ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) (٢٧) .

(٢٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٥٧٦ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٢٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢١٨ ، وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

(٢٧) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٧٩ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٠٠ — ٦٠١ .

صلاح الدين ورأب الوحدة الاسلامية :

جاءت وفاة نور الدين محمود في منتصف مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) خسارة كبرى للمسلمين ، لما قرّرتب عليها من تمدع الوحدة الاسلامية ، في بلاد الشام وشمال العراق ، وهي الوحدة التي أجهده نور الدين نفسه في بثائها ، وكانت المشكلة الكبرى التي سببت ذلك التصدع ، هي تقسيم دولة نور الدين بين أمرائه وأهل بيته . ذلك أن للوريث الاول لنور الدين محمود في حلب ودمشق كان ابنه الملك الصالح اسماعيل ، الذي لم يتجاوز عند وفاة أبيه الحادية عشرة . ولكن الملك الصالح اسماعيل هذا كان له ابن عم — هو سيف الدين غازي الثاني — أتاك الموصل — الذي فرح لوفاة عمه نور الدين ، وأسرع الى احتلال بعض المواقع باقليم الجزيرة مثل نصيبين والخابور وحران والرها وغيرها (٢٨) .

ثم ان المنازعات بعد وفاة نور الدين محمود لم تقتصر على ما شب بين ورثة نور الدين وبقايا البيت الزنكي في شمال الشام واقليم الجزيرة ، وانما امتدت الى أمرائه ، فدب الخلاف بين أقوى رجلين من أمراء نور الدين ، وهما شمس الدين علي بين الدلمية ، وشمس الدين محمد المعروف بان المقدم . وكان سبب هذا الخلاف الوصاية على الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الاول للدولة النورية ، في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل في دمشق ، وان كان الصالح اسماعيل لم يلبث أن نقل الى حلب بعد قليل (٢٩) .

ولا شك في أن هذه الخلافات هددت مركز المسلمين في الشرق

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢٩) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٩٥ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٩ .

الادنى تهديدا خطيرا ، في الوقت الذى كان الصليبيون يتوعدون ويهددون ويتحفزون . وفي تلك الازمة ظهر صوت ينادى بتحكيم صلاح الدين والالتفاف حوله ، بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية ، والمتحكم فى ملك مصر بمواردها وثروتها وقوتها . ذلك أن القاضى كمال الدين الشهرزورى أشار على الامير ابن المقدم ، وعلى بقية أمراء نور الدين محمود بالرجوع الى رأى صلاح الدين يوسف والانقياد له ، وقال لهم « وقد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من طاعة الملك الصالح ، ويجعل ذلك حجة علينا . وهو أقوى منا لأن له ملك مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح » . ولكن الامراء الطامعين خشوا بأس صلاح الدين « وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم » (٣٠) .

أما صلاح الدين نفسه ، فقد صار لا سلطان لأحد عليه فى مصر . وكان من الممكن أن يتدخل فى شئون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة ، لولا وصول الاسطول النورمانى الى الاسكندرية مما أخره بعض الوقت . لذلك اكتفى صلاح الدين بأن أرسل الى الشام يعلن حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين وأملاكه . وفى الرسالة التى أرسلها صلاح الدين الى أمراء الشام قال لهم « لو أن نور الدين غلم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق اليه مثل ثقته بى ، لسلم اليكم مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته . ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى » (٣١) .

وقد وجد صلاح الدين سندا قويا للتدخل بدعوى حماية وحدة المسلمين فى الوقت الذى شرع الصليبيون فعلا فى مهاجمة المدن

(٣٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢ (تحقيق جمال الدين الشيبلى) .

(٣١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧

والمعاقل الاسلامية في الشام . ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة نور الدين محمود مدة قصيرة ، حتى شرع الصليبيون في مهاجمة بانياس محاولين الاستيلاء عليها ، ولكن المدينة صمدت للحصار أسبوعين ، وبدلا من أن يحاول الامير ابن المقدم التصدي للصليبيين ورددعهم ، اذا به « راسلهم ولاطفهم » ، وعرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال ، واطلاق سراح الصليبيين في دمشق ، ثم محالفتهم ضد صلاح الدين وأطماعه المقبلة^(٣٢) .

وعندما علم صلاح الدين بتلك الاتفاقية « استصفر أهل الشام وعلم ضعفهم » وأدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين موجهان ضده ، وأن أمراء الشام « انما صالحوا الفرنج خوفا منه » . لذلك أرسل صلاح الدين الى أمراء الشام « يقبح عليهم ما فعلوه » . وكان أخطر ما يخشاه صلاح الدين عندئذ هو أن تتمزق الجبهة الاسلامية بانفصال الشام عن مصر ؛ لأنه — كما قال — اذا « انفردت مصر عن الشام ، ضمم أهل الكفر في بلاد الاسلام »^(٣٣) . على أن الامر لم يطل . إذ أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية الى استنجد بعضهم — وعلى رأسهم ابن المقدم — بصلاح الدين ، فجاءت هذه الدعوة بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية وفي تاريخ صلاح الدين جميعا .

ذلك أن الامير سعد الدين كمشنكين كان قد استبد بتدبير الملك الصالح اسماعيل وانتقل به الى حلب ؛ حيث قبض على الامير شمس الدين بن الداية واخوته . « وكان أولاد الداية أجل أصحاب الملك الناصر صلاح الدين »^(٣٤) ، ولذا فإنه استاء مما فعله سعد الدين

(٣٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٩٤ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٥٩٧ .

(٣٤) ابن ابيك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ص ٤٢ (تحقيق

كعشتكين بأولاد الداية » وعظم ذلك عليه وأنكره وجعله من أكبر الحجج على قصد الشام « (٣٥) .

وكان أن خرج صلاح الدين من مصر على رأس جيش من سبعمائة فارس ، — بعد أن استخلف في مصر أخاه العادل — ، فوصل دمشق في لواخر نوفمبر سنة ١٢٧٤م (٥٧٠ هـ) ، دون أن يصطدم بالصلبيين في الطريق . وقد أعلن صلاح الدين أنه عندما خرج إلى الشام عندئذ ، لم يستهدف تحقيق أطماع ومكاسب شخصية ، وإنما كان يسعى لإعادة بناء الوحدة الإسلامية . ولذا صرح « أنا لا تؤثر، للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم » (٣٦) . ومن ناحية أخرى ، فإن صلاح الدين حرص في ذلك الدور على اظهار الولاء للصلاح اسماعيل بن نور الدين محمود ، وأعلنها على الملأ « أنا مملوك الصالح ، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه » (٣٧) . كذلك أعلن وفاءه للبيت الزنكي وللشهاد نور الدين محمود ، حتى لا يترك مجالا لاتهامه بالخيانة والنكران من جانب الطامعين والمناوئين ، « فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة » (٣٨) . وتحت هذا الستار ، ستار الوفاء لسيد نور الدين وللبيت الزنكي ، والولاء للصلاح اسماعيل وتربيته والقيام بأموره واسترداد أملاكه التي اغتصبها بعض أهل بيته في اقليم الجزيرة ، أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته الخاصة برأب الجبهة الإسلامية المتحدة ودعمها ، واعادتها إلى سابق عهدها ممتدة من الفرات إلى النيل .

ومهما يكن من أمر ، فإن صلاح الدين استقبل في دمشق استقبالا ضيافيا بعد أن فتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمه إياها . ومن ناحية

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١ (تحقيق جمال الدين الشيل) .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٣٧) ابن الاثير : الكامل — حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

(٣٨) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٩٧ .

أخرى فان صلاح الدين استمال قلوب الدماشقة « وأنفق في الناس مالا طائلا »^(٣٩) . وبعد ذلك غادر صلاح الدين دمشق متجها شمالا ليعاقب سعد الدين كمشتكين الذي استبد بالامور في حلب . وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على حمص في ديسمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) ، ثم على مدينة حماه في أواخر الشهر نفسه^(٤٠) .

أما حلب فقد قاومت صلاح الدين ورفضت الاستسلام ، بل ان أصحاب كمشتكين فيها أسرعوا الى الاستعانة بالحشيشية والصلبيين جميعا . ولم يلبث أن أرسل سنان — مقدم الباطنية^(٤١) — جماعة من الفدائيين الى معسكر صلاح الدين لقتله ، ولكن انكشف أمرهم قبل أن ينفذوا مهمتهم . ولما فشل الباطنية في قتل صلاح الدين ، أرسل الحلبيون الى ريموند الثالث — أمير طرابلس الصليبي — يطلبون منه المساعدة ، ويعدونه بدفع الثمن اذا هو نجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين . ويضيف ابن الاثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبي أن يهاجم بعض المراكز التي بيد صلاح الدين حتى يضطر الى رفع الحصار عن حلب^(٤٢) .

وكان ريموند الثالث صاحب طرابلس — والوصى على عرش مملكة

(٣٩) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٠٤ (تحقيق محمد حلمي) .

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٦٠٧ — ٦٠٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٢ (تحقيق محمد محمود صبيح) .

(٤١) هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد ، الملقب راشد الدين ، صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام ، واليه تنسب الطائفة السنانية . ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٥ ص ١٨٥ (تحقيق احسان عباس) .

(٤٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦١٠ — ٦١١ ،

ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٠ هـ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٤ .

بيت المقدس عندئذ — يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة اسلامية بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث الى نجدة حلب ، والقيام بدور حامى الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، لا حبا فيه وخدمة لامراء حلب — كما يقول المؤرخ الصليبي وليم الصورى — وانما ليسد الطريق في وجه صلاح الدين ، ويحول دون قيام وحدة اسلامية في الشرق الادنى (٤٣) . ولا شك في أن قيام ريموند الثالث صاحب طرابلس بالوصاية عندئذ على ملك بيت المقدس القاصر المريض — بلدوين الرابع — حقق قدرا من الوحدة بين الصليبيين في بلاد الشام (٤٤) .

ويبدو أن ريموند الثالث حاول أولا الالتجاء الى الوسائل السياسية ، ففتح باب المفاوضات مع صلاح الدين حول مسألة حلب ، ولوح له بأن الفرنج اتحدوا « وصاروا يدا واحدة » . ولكن صلاح الدين لم يخش ذلك التهديد ، وأرسل بعض قواته للاغارة على امارة أنطاكية (٤٥) . وأخيرا لم يجد ريموند الثالث وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التي كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب . واذا كان صلاح الدين قد اضطر الى ترك حلب مؤقتا في أوائل فبراير سنة ١١٧٥ م (٥٧٠ هـ) ، فإنه فعل ذلك ليسترد حمص ثم يستولى على بعلبك . وبعد ذلك عاد صلاح الدين ليصطدم بالزنكيين الذين جمعوا قوات الموصل وحلب ضد صلاح الدين . وفي الموقعة التي دارت بين الطرفين عند قرون حماه (٤٦) في أواخر ابريل سنة ١١٧٥ م (٥٧٠ هـ) انتصر صلاح الدين على الزنكيين . وكان

Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. — Hist. Occ. II, p. 1014 (٤٣)

(٤٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٤٥) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦١١ .

(٤٦) القرن : راس الجبل واعلاه (لسان العرب) .

أن أتبع صلاح الدين انتصاره بمطاردة خصومه حتى حلب بنية محاصرتها. • وفي تلك المرحلة ، قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح ابن نور الدين محمود ، وأزال اسمه عن السكة في بلاده ، في حين اتخذ صلاح الدين لنفسه لقب « ملك مصر والشام »^(٤٧) . ولم يلبث أن تم الصلح بين الطرفين « على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها » . وبعد ذلك رحل صلاح الدين عن حلب ليستولى على بارين^(٤٨) .

على أنه لم يكن منتظرا من الزنكيين أن يتقبلوا ذلك الوضع الجديد في سهولة ، فقام سيف الدين غازي - صاحب الموصل - بحركة تعبئة ضخمة ضد صلاح الدين ، واستعان من جديد بالصلبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على عرش مملكة بيت المقدس . وفي الموقعة التي دارت عند تل السلطان - على الطريق بين حماه وحلب - حلت الهزيمة في ابريل سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) بالزنكيين وحلفائهم ، وقتل منهم كثيرون ، واستولى صلاح الدين على غنائم ضخمة^(٤٩) . وبعد ذلك ركز صلاح الدين جهوده في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقي حلب - مثل بزاعة ومنبج وعزاز - ليقطع الصلة بين حلب والموصل . واستمر صلاح الدين يواصل نشاطه في ذلك الإقليم حتى تم الصلح مرة أخرى بينه وبين الصليبيين ، فانصرف عن حلب (١١٧٦ م / ٥٧١ هـ) .

أما الباطنية فلم يكونوا أقل هلما من الصليبيين بسبب انتصارات صلاح الدين وازدياد نفوذه في بلاد الشام . ولم يلبث أن حاول الباطنية مرة أخرى اغتيال صلاح الدين أثناء حصاره عزاز في صيف

(٤٧) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧١ هـ ،

ابن واصل ، ج ٢ ص ٢٢ .

(٤٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٢ - ٣٤ .

(٤٩) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٠ .

سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، ولم يصب صلاح الدين الا بخدش في خده . وكان لابد لصلاح الدين أن يثار لنفسه من تلك الجماعة الهدامة ، ولذا فانه ما كاد يفرغ من الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار مصياب ، وهي قلعة شهيرة للباطنية^(٥٠) . وقد قتل صلاح الدين كثيرين منهم ، ولم يتركهم الا بعد أن شفع فيهم شهاب الدين الحارمي ، خال صلاح الدين^(٥١) .

وهكذا تحالفت قوى الزنكيين والباطنية والصلبيين جميعا ضد صلاح الدين في ذلك الدور ، ليحاولوا دون تحقيق وحدة اسلامية ، بين مصر والشام وشمال العراق ، وهي الوحدة التي كانت تنذر بالقضاء على الحلفاء الثلاثة .

ويلاحظ على ذلك الدور من أدوار تاريخ صلاح الدين أن جهوده كانت موزعة بين ثلاث جبهات : فهو يعمل ضد الانفصاليين من أمراء البيت الزنكي في شمال العراق والشام . وفي الوقت نفسه يضطر الى الدخول في مناوشات وحروب محلية ضد القوى الصليبية ، اما لارهابهم أو لصد عدوانهم ، لاسيما وأن الزنكيين لم يحجموا عن الاستعانة بالصلبيين ضد صلاح الدين . وأخيرا ، فقد كان على صلاح الدين دائما أن ينظر بعين الى مصر ، وبالعين الاخرى الى الشام ، فحرص في تلك الاثناء على متابعة الاحوال في مصر ، والاشراف على تحصينها ، والعمل على حمايتها ، بعد أن أثبتت التجارب أن أطماع الصليبيين في مصر لا تقل عن أطماعهم في الشام ، وأنهم يعملون حسابا كبيرا للوحدة بين مصر والشام^(٥٢) .

(٥٠) « مصياب حصن حصين مشهور للاسماعيلية ، بالساحل الشامي قرب طرابلس ، وبعضهم يقول مصياف » . باقوت الحموي : معجم البلدان .

(٥١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٥٨ .

(٥٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٨٣ — ٥٩٠ .

(١٩٨٦) .

ولعل هذا هو السبب في أننا عند دراستنا لتاريخ صلاح الدين في ذلك الدور نجده لا يكاد يحارب الزنكيين عند حلب ، حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لدافعة الصليبيين . ولا يكاد يدخل في حرب ضد الصليبيين حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع الى مصر لينظر في أحوالها ويشرف على تحصينها . ولا يكاد يقضى بعض الوقت في مصر حتى يعود الى الشام ليبدأ الدورة من جديد .

وستؤجل كلامنا عن جهود صلاح الدين في تحصين مصر من ناحية ، وفي محاربة الصليبيين من ناحية أخرى ، حرصا على وحدة الموضوع ولنلقى الاضواء على سياسة صلاح الدين في رآب الصدع الذي أصاب الوحدة الاسلامية عقب وفاة نور الدين محمود .

ذلك أنه اذا كان صلاح الدين قد اضطر الى عقد الصلح مع الحلبيين سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) كما سبق أن رأينا ، الا أنه ظل في قرارة نفسه يؤمن بأن أي عمل حربي واسع النطاق ضد الصليبيين يجب أن يسبقه ضم حلب والموصل ، وتوحيد الجبهة الاسلامية ، في الشرق الادنى . واذا كان صلاح الدين قد شغل بعض الوقت بأمر الصليبيين وأمر مصر ، الا أنه لم يسقط من حساباته مطلقا أمر الموصل وحلب . وكان أن بدأ صلاح الدين بالموصل سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) ، وذلك عندما « بلغه أن المواصله كاتبوا الفرنج ، ورعبوهم في قصد الثغور الاسلامية ، ليشغلوا السلطان عن قصدهم » . ولكنه « ألح في القتال ، فلم ينل غرضا » ، لأن عز الدين مسعود صاحب الموصل (١١٧٦ — ١١٩٢ م / ٥٧٢ — ٥٨٩ هـ) كان قد أعد عدته للحصار ، وحشد داخل مدينته عددا ضخما من المقاتلين ، وكميات اضافية وافرة من الطعام والسلاح والذخيرة (٥٢) .

ويبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر بالحرص لفشله في الاستيلاء

(٥٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١١٩ — ١٢١ .

على الموصل . ولذلك حاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فأرسل رسالة الى الخليفة يتهم فيها أتابك الموصل بالتحالف مع الصليبيين . على أن أتابك الموصل لم يهتر أمام تلك المناورات ، بل لجأ الى الاستعانة ببعض القوى الاسلامية المجاورة ، مثل صاحب أذربيجان وصاحب خلاط ، وغيرهما . أما الخليفة العباسي فقد اكتفى بأن سعى للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين^(٥٤) . ولكن بعض المؤرخين يؤكد أن الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذ ، وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد صلاح الدين منها ، الامر الذي يفسر اشتداد الغارات الصليبية على بصرى ودمشق وحران في تلك الفترة . ولم تلبث هذه الهجمات الصليبية أن أثمرت في تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل ، فعاد الى شمال الشام في صيف سنة ١١٨٣ م ! (٥٧٨ هـ) (٥٥) .

وعند عودة صلاح الدين من الجزيرة الى شمال الشام اتجه الى حلب لحصارها . ولم يكن لعماد الدين زنكى الثانى — أتابك حلب (١١٨٢ — ١١٨٣ / ٥٧٨ — ٥٧٩ هـ) ما لأخيه عز الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء ، فلم يكد صلاح الدين يحاصر مدينته حتى أسقط في يده ، ورفض أن يستنجد بالصليبيين أو حتى بأخيه عز الدين . ولم تجد مقاومة الحلبيين ، لأن حاكمهم عماد الدين أخذ يخطط للفرار ، وأرسل الى صلاح الدين سرا يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل اعطائه بلدة سنجار . وكان أن رحب صلاح الدين بهذا العرض ، وزاده الخابور ونصيبين والسرقة وسروج ، وتمت الصفقة في يونيو ١١٨٣ م ! (٥٧٩ هـ) (٥٦) .

(٥٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .
(٥٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦١٢ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .
(٥٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٨ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .

ولا شك في أن استيلاء صلاح الدين على حلب وتوابعها جاء نصرا كبيرا لمشروع رآب الجبهة الاسلامية المتحدة ، كما كان ضربة كبرى أحس بها الصليبيون واعترف بها مؤرخوهم (٥٧) .

وإذا كان صلاح الدين قد شغل عقب الاستيلاء على حلب بأمر الصليبيين فإنه لم ينس الموصل ، فعاد الى حضارها للمرة الثانية سنة ١١٨٥ م (٥٨١ هـ) . ثم ترك صلاح الدين حصار الموصل مؤقتا ليستولى على ميفارقين . وعندما عاد صلاح الدين لمنازلة الموصل للمرة الثالثة اعتراه المرض . ويقال ان المواصلة انتهزوا فرصة مرض صلاح الدين ، فسعوا الى الصلح ، وتم الصلح فعلا بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل في مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) . وبمقتضى ذلك الصلح رضى صاحب الموصل بأن يكون تابعا لصلاح الدين وبأن يخطب باسمه على المنابر ، ويضرب السكة باسمه (٥٨) .

وبذلك تم رآب الصدع الذى أصاب الوحدة الاسلامية ، بعد وفاة نور الدين محمود ، وعادت البلاد من الفرات الى النيل تخضع لسلطة عليا واحدة تتمثل في شخص صلاح الدين . ولم يبق أمام صلاح الدين الا توجيه العناية لتحصين مصر ، تمهيدا لانزال ضربة قاصمة بالصليبيين .

صلاح الدين وتحصين مصر :

· لم ينس صلاح الدين مطلقا مطامع الصليبيين في مصر ، وظل متخوفا طوال الفترة التى قضاها في احياء الجبهة الاسلامية المتحدة من أن يقوم الصليبيون بهجوم مباغت على مصر ، مثلما فعل عمورى الاول ملك بيت المقدس السابق (٥٩) . والواقع أن صلاح الدين لم يكن

(٥٧) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occ.) II, p. 1114

(٥٨) ابن واصل : مغزج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

(٥٩) سعيد عاشور : العناصر صلاح الدين (اعلام العرب ، العدد

(٤١) ، ص ١٣٥ .

مبالغا في مخاوفه ، اذ يثبت التاريخ أن ثمة اتصالات جادة دارت سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر (٦٠) . لذلك كان لابد لصلاح الدين من أن يتخذ الإهبة ، ويضع نظاما قويا لتحسين مصر ، حتى يمكن التصدي لأية محاولة من جانب الصليبيين لغزوها .

والواقع ان تفكير صلاح الدين في تحسين مصر يرجع الى أيام وزارته ، أي قبل سقوط الخلافة الفاطمية . من ذلك أن صلاح الدين شرع سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) في ترميم سور القاهرة واصلاح ما فيه من عطب بعد أن « تهدم أكثره وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا » (٦١) . على أنه يلاحظ أن صلاح الدين كان في ذلك الدور محدود النفوذ والسلطة ، قليل الموارد ، فهو لا يعدو أن يكون وزيرا للخليفة الفاطمي من جهة ، وتابعا لسيد نور الدين محمود من جهة أخرى . هذا الى أنه كان في ذلك الوقت أيضا قليل الخبرة وخاصة فيما يتعلق بأحوال الصليبيين وخططهم في الحرب . لذلك لم يكن منتظرا من صلاح الدين في تلك المرحلة أن يقوم بأكثر مما تمكنه مسؤولياته وامكانياته ، فاكتفى بترميم سور القاهرة القديم .

ولكن وضع صلاح الدين لم يلبث أن تغير بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي ثم وفاة سيده نور الدين محمود ، اذ غدا صلاح الدين سيد البلاد ورجلها الاول المسئول عن سلامتها وحماية أمنها . هذا الى أن الفترة التي قضاها صلاح الدين في الشام — يوحد قسوى المسلمين ويحارب الصليبيين — أكسبته خبرة واسعة في سياسة الشرق الأدنى في تلك المرحلة . ذلك أن صلاح الدين شاهد في بلاد الشام عندئذ مدنا محصنة ، وحصونا منسورة ، وأسوارا عالية محكمة البناء ، فضلا عن أنه أخذ فكرة واضحة عن فن التكتيك الحربى ، واكتسب خبرة واسعة

(٦٠) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occ.) II, p. 1033

(٦١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ١٩٢ (طبعة النيل) .

في فن الحرب ، وأساليب الحصار ، ودور الخيبريون والقنلاع
والسحانم في حماية المدن . وهكذا عاد صلاح الدين من الشام الى
مصر سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ثم سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) ليقوم في كل
مرة بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها ضد
أى هجوم مفاجيء من جانب الصليبيين .

وقد روى المؤرخ أبو شامة — على لسان العماد الاصفهاني — أن
صلاح الدين « لما تملك مصر ، رأى أن مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل
واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال : ان أفردت كل واحدة بسور احتاجت
الى جند مفرد يحميها ، وانى أرى أن أدير عليهما سورا واحداً من
الشاطيء الى الشاطيء ، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد
الدولة ، على جبل المقطم » (٦٢) . وهكذا قرر صلاح الدين بناء سور
ضخم يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع ، ليحمى عاصمة
البلاد وأهلها من أى خطر خارجى ، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل
المقطم تكون مركزاً للحكم ، وملاذا يحتوى به اذا هددته ثورة داخلية
من جانب أتباع الدولة الفاطمية ، أو خطر خارجى من جانب الصليبيين .

ولم يتباطأ صلاح الدين في تنفيذ مشروعه ، فجلبت الاحجار اللازمة
للبناء من منطقة أهرام الجيزة ، وساعد في عملية البناء عدد كبير من
أسرى الصليبيين (٦٣) . أما عن القلعة فقد أحسن صلاح الدين اختيار
موقعها ، بحيث تشرف على القاهرة ومصر اشرفاً تاماً ، وتستطيع
حاميتها أن تقوم بعمليات مزدوجتين ، هما ضبط الاهالى واخماد أية
فتنة داخلية ، ثم صد أى هجوم خارجى تتعرض له القاهرة (٦٤) . ومن
المعروف أن عمارة القلعة لم تتم إلا في عهد الكامل الايوبي سنة ١٢٠٧ م

(٦٢) المصدر السابق ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٨ .

(٦٣) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٦٩ .

(٦٤) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى في عهد

صلاح الدين ، ص ٩٢ .

(٦٠٤ هـ) بأن الكامل هو أول من شيد فيها قصورا ، كما أقام أبراجها الرئيسية ، ثم اتخذها مقرا له ومقاما للحكم . ومنذ ذلك الوقت غدت القلعة مقر الحاكم والحكومة ، وبها القصر السلطاني الذي عاش فيه بقية سلاطين الايوبيين ثم المماليك ، ثم أقام فيها الولاة العثمانيون ، فحكاهم مصر من أسرة محمد علي الكبير حتى زمن الخديو اسماعيل .

أما منور القاهرة ، فقد استخدمت فيه أيضا الأبراج الضخمة . وروغى في السور أن يكون محصنا بأبراج منيعة بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين . ويتكون البرج من قبة نصف دائري يؤدي إلى سائر الجائط بمزاغل تستخدم لرمى العدو المهاجم بالسهم منها ، أو القاء المواد الكاوية والزيت المغلى على المهاجمين (٦٥) .

على أن جهود صلاح الدين في تحصين مصر لم تقتصر على عاصمة البلاد ، وإنما امتدت لتشمل مختلف الثغور والموانئ المصرية ، لاسيما بعد أن تكررت هجمات السفن الصليبية على تنيس ودمياط وغيرها من الموانئ . من ذلك ما يرويه أبو شامة من خروج صلاح الدين سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) إلى دمياط ، وبصحبته ولداه الأفضل علي والعزیز عثمان ، فتفقد تحصينات الميناء ، ثم رحل إلى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائري ، وفحص الزيادات التي كان قد أمر بإنشائها غداة استيلائه على الحكم . كذلك تفقد صلاح الدين الاسطول بالاسكندرية ، وأمر بعمارته وتجديد سفنه « وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول » (٦٦) .

وبينما صلاح الدين منصرف في السنوات التالية إلى دعم الوحدة

(٦٥) للوقوف على تفاصيل القلعة والسور ، ارجع إلى :

نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٠٣ — ١٠٨
وستشير إلى بعض التفاصيل في نهاية هذا القسم من الكتاب ، عند الكلام عن الفنون .

(٦٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٨ (طبعة النيل) .

الاسلامية ومحاربة الصليبيين بانثام ، كان العمل مستمرا لانجاز التحصينات التي أمر بها ، سواء في القاهرة والاسكندرية أو غيرها . وقد حدث سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) أن أغار الصليبيون على تنيس — شرقى بحيرة المنزلة — فخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين تمهيدا لغزو مصر من ناحية البحر ، وأمر بالعباية بتحصين دمياط وتنيس « ورتب المقاتلة على البرجين بدمياط ، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر في السلسلة التي بين البرجين . وعمل تقدير برسم ما يحتاج اليه سور تنيس واعادته كما كان في القديم » . كذلك أمر صلاح الدين في العام نفسه ببناء برج بالسويس يسع عشرين فارسا « ورتبت فيه الفرسان » (٦٧) .

وهكذا عنى صلاح الدين عناية فائقة بتحصين عاصمة مصر وموانئها وثغورها حتى يأمن غلدية الصليبيين . وإذا كان صلاح الدين قد اهتم ذلك الاهتمام ببناء القلاع والابراج وتحصين المدن والثغور في مصر ، فمن المتوقع أن يكون اهتمامه بذلك الامر عظيما في بلاد الشام ، فأكثر من بناء الحصون في المواقع الاستراتيجية في تلك البلاد ، وحرص على تحصين القلاع لتكون مراكز لعملياته الحربية الكبرى ضد الصليبيين .

الفصل الثالث

صلاح الدين والصليبيون

فكرة الجهاد على عصر صلاح الدين :

ولد صلاح الدين وشب في بلاد الشام ، في عصر شهد ازدهار حركة الجهاد الديني ضد الصليبيين . ذلك أن عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود أكسبا هذه الحركة طابعا عمليا واضحا ، لأنهما بدءا من النقطة التي كان ينبغي أن يبدأ منها المسلمون منذ ظهور انخطر الصليبي في أفق الشرق الأدنى ، وهي توحيد الجهود وجمع الشمل لاقامة جبهة اسلامية تضم — على الاقل — البلدان الاسلامية التي كانت أكثر تعرضا للخطر الصليبي ، وهي الشام ومصر وشمال العراق . واذا كان صلاح الدين قد نشأ في اقليم هو بمثابة المسرح الاول للصراع بين المسلمين والصليبيين ، وشب في عصر شهد اشتداد تبار حركة الجهاد ، وترعرع بين أناس لا شغل لهم الا الحرب والدفاع عن العقيدة والارض ، والتضحية بالروح والدم في سبيل الحفاظ على اثرات ضد الدخلاء المعتدين . . . فلا غرابة أن نجد صلاح الدين وقد برز في صورة البطل الذي « كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا في آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه » ، وذلك على قول معاصره ورفيقه وصديقه بهاء الدين ابن شداد (1) .

(1) ابن شداد : النوار السلطانية ، ص ٤٤ (تحقيق محمد محمود

صبيح) .

وبدراسة الدور الاول من مراحل حياة صلاح الدين ، يتضح لنا أن القدر تدخل أكثر من مرة لمساعدته ، فباتاح له فرصة المجيء الى مصر ثلاث مرات بصحبة عمه أسد الدين شيركوه . وعلى أرض مصر احتك صلاح الدين بالصليبيين واكتسب خبرة واسعة في شئون الحرب والسياسة جميعا . ثم أتاح له القدر فرصة الظهور على سطح الاحداث عندما توفي عمه شيركوه ووقع اختيار الخليفة العاضد الفاطمي عليه — دون غيره من أمراء الجيش النورى — ليلبى منصب الوزارة . وللمرة الثالثة يتدخل القدر لينجح صلاح الدين في الخطوة الجريئة التي خطاها نحو الغاء الخلافة الفاطمية واسقاطها ، وهي الخطوة التي شاء القدر أن تصحبها وفاة الخليفة العاضد الفاطمي ، مما جعل من صلاح الدين الزعيم الاوحد الذي لا ينافس منافس في مصر . واذا كانت تلك التطورات قد تمت في ظروف صعبة بالنسبة لصلاح الدين فنتيجة للثورات والفتن الداخلية والهجمات والاضغوط الخارجية ، فان القدر شاء أن يقف الى جانب صلاح الدين ليحقق له النصر بعد الآخر على كافة خصومه في الداخل والخارج . وعندما تأزم الموقف بين صلاح الدين وسيدته نور الدين محمود وهم الاخير بغزو مصر لتتحية صلاح الدين ، توفي نور الدين فجأة ، فكان هذا حكم القدر ليجعل من صلاح الدين الرجل الاول ، ليس في مصر فحسب ، بل في دولة نور الدين محمود التي امتدت من الفرات الى النيل . ولا ندرى ماذا كان سيحدث لو أن العمر أمهل نور الدين محمود ليصل الى مصر على رأس جيشه ، ولكن ما نستطيع أن نؤكدده هو أن تاريخ صلاح الدين كان سيوقف عند تلك المرحلة ، لأنه كان من الصعب — ان لم يكن من المستحيل — على رجل واحد من رجال صلاح الدين في مصر ، بل كان من المتعذر على صلاح الدين نفسه ، أن يرفع سيفه في وجه نور الدين محمود ، سيده الشرعى وولى نعمته ، الذي « طبق ذكره الارض » (٢) .

(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاثابكية ، ص ١٦٢
(تحقيق عبد القادر احمد طليمات) .

لذا نستطيع أن نقرر أنه إذا كان مجيء صلاح الدين الى مصر يمثل نقطة التحول الاولى في حياة ذلك البطل ، فان وفاة نور الدين محمود في مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) تمثل نقطة التحول الكبرى في حياته . ذلك أن وفاة نور الدين المفاجئة تركت المسرح الاسلامي في الشرق الادنى وليس عليه شخصية كبرى تستطيع أن تسد الفراغ الذي تركه ذلك البطل . وعندئذ ظهر صلاح الدين على المسرح ليكمل مسيرة من سبقه من أبطال حركة الجهاد ، ويبيد عماد الدين زنكي ونور الدين جميعا في القدرة على انتقاء أفضل الوسائل لتنفيذ أهدافه .

الدور التمهيدي في الحرب بين صلاح الدين والصليبيين :

لعل أول ما يسترعى نظرنا في حروب صلاح الدين ضد الصليبيين هو أن تلك الحروب مرت بدورين كبيرين : الدور الاول الذي امتد من سنة ١١٧٤ م حتى سنة ١١٨٦ م (٥٧٠ - ٥٨٢ هـ) ، ولم يكن صلاح الدين في هذا الدور متفرغا لمحاربة الصليبيين ، وانما وجه جل جهوده نحو توحيد الجبهة الاسلامية ، وادخال القوى الاسلامية الصغيرة المبعثرة في الشام وشمال العراق تحت سيادته ، ليتمكن من مواجهة الصليبيين فيما بعد ، ومن خلفه جبهة اسلامية قوية متحدة تشد أزره . واذا كان صلاح الدين قد اشتبك مع الصليبيين في حروب في ذلك الدور ، فان هذه الحروب كان يغلب عليها الطابع الدفاعي ، اما لحماية المسلمين وبلادهم ، واما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الاسلامية الانفصالية التي أعمتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجي ، فاستعانت بالصليبيين ضد صلاح الدين .

أما الدور الثاني من أدوار الحروب الصلاحية ضد الصليبيين ، فيمتد من سنة ١١٨٦ حتى سنة ١١٩٢ م (٥٨٢ - ٥٨٨ هـ) ، وفيه كان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الاسلامية ، من الفرات الى النيل ، فانصرف بكل طاقته الى فكرة الجهاد ، حتى حقق الانتصارات الضخمة التي خلدت اسمه في التاريخ .

وإذا بقرنا أن الدور الأول التمهيدى لحروب صلاح الدين ضد الصليبيين بدأ بسنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) ، فليس معنى ذلك أن صلاح الدين لم يكن له عهد بمحاربة الصليبيين قبل ذلك التاريخ . حقيقة أن المصادر لا تمدنا بشيء ذي قيمة عن اسهام صلاح الدين في مستهل حياته — قبل مجيئه لأول مرة الى مصر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) — في محاربة الصليبيين . ولكن صلاح الدين الذي شب على مسرح الحروب الصليبية في بلاد الشام ، وقضى شطرا هاما من حياته الاولى في بلاط نور الدين بدمشق ، شاهد بلا شك صورة واقعية حية لمجتمع مضطرم بنيران الحماسة للدفاع عن الوطن والعقيدة ، وحماية نفسه وكيانه من عدو خطير ، وفد من أقصى الغرب ليعتدى على أصحاب البلاد ويسلبهم ديارهم .

وبوصول صلاح الدين — صحبه عمه شيركوه — الى مصر لأول مرة سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) بدأت صفحة جديدة في تاريخ نظرته الى الصليبيين وعلاقته بهم . ذلك أن الحملات الثلاث التي أرسلها نور الدين محمود الى مصر في سنى ١١٦٤ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ م (٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ هـ) ، والتي شارك فيها صلاح الدين ، انما كانت في حقيقة أمرها موجهة ضد الصليبيين الذين غزوا مصر في تلك المرحلة وحاولوا امتلاكها . وتعتبر المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين على أرض مصر عندئذ ، المحك الاول بين صلاح الدين والصليبيين ، اذ حدث فيها الاحتكاك المباشر بين الطرفين لأول مرة . من ذلك أن صلاح الدين قام بدور بارز في موقعة البابين في ابريل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) ، كما تعرض صلاح الدين لحصار الصليبيين في الاسكندرية بعد ذلك ، مما أكسبه خبرة بأساليب الصليبيين في الحرب .

ثم كانت الفوضى والانقسامات التي تعرضت لها دولة نور الدين محمود بعد وفاته ، الامر الذي ترتب عليه قيام بعض الأطراف المتنازعة في الشام بدعوة صلاح الدين لانقاذ الموقف سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) . وقد خشى الصليبيون عاقبة نشاط صلاح الدين في بلاد الشام ، وجهوده

لتوحيد القوى الاسلامية ، فتدخل ريموند الثالث أمير طرابلس والوصى عنى مملكة بيت المقدس ، للحيلولة دون استيلاء صلاح الدين على حلب .
وفعلا نجح مؤقتا سنة ٥٧٠ هـ (فبراير ١١٧٥ م) في صرف صلاح الدين عن قصده . وعلى الرغم من أن ريموند قام بدوره في مهارة ، متظاهرا بحماية الزنكيين من أطماع صلاح الدين ، الا أن الاخير أظهر ثباتا عجيبا ، فظل يحارب الزنكيين حينما ، ويدافع الصليبيين أحيانا ، مع حرصه الشديد في ذلك الدور على عدم توسيع دائرة الحرب ضد الصليبيين حتى لا يحارب في جبهتين في وقت واحد . وربما احتدت الحرب بين صلاح الدين والصليبيين في ذلك الدور — مثلما حدث بين سنتي ١١٧٧ ، ١١٨٠ م (٥٧٣ ، ٥٧٦ هـ) ، ولكنها مع ذلك لم تتخذ صورة الحرب الشاملة . ثم ان الصليبيين أنفسهم كانوا يعانون اضطرابا كبيرا في أحوالهم الداخلية عندئذ ، اذ كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مريضا بالجذام ، ومشكلة العرش ووراثته تثير كثيرا من المناقشات بين أمراء الصليبيين . هذا فضلا عن اختلال أوضاع امارة أنطاكية في الشمال .

وهكذا حتى استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ هـ) ، ثم دخلت الموصل تحت طاعة صلاح الدين في مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨١ هـ) ، وعندئذ صار في وسع صلاح الدين أن « ينصرف بكليته الى الفرنج » (٣) .

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية :

والواقع أن هجمات صلاح الدين على مملكة بيت المقدس أخذت تشتد فعلا بعد أن وضع يده على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ هـ) . وكانت مملكة الصليبيين قد بلغت عندئذ درجة شديدة من الضعف ، بعد أن ساءت أحوال ملكها المريض ، وقام بالوصاية على العرش

: (٣) سعيد ماثور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٢٢ وما بعدها .
الطبعة الرابعة ١٩٨٦ .

- جاي لوزجنان ، وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وسوء التدبير^(٤) .
- وقد استولى صلاح الدين على بعض المعامل الصليبية في تلك السنة .
- ثم حاول أن يستدرج الاعداء للدخول في معركة فاصلة في فلسطين ولكن الصليبيين « لم يخرجوا اى المصاف خوفا من المسلمين »^(٥) .

على أن الامير أرناط — صاحب حصن الكرك — اتبع سياسة استفزازية جعلت صلاح الدين يفكر في ضرورة اتخاذ اجراء حاسم سريع ضد الصليبيين . ولم يكن أرناط هذا من طراز الفرسان الذين مجدتهم العصور الوسطى لحرصهم على ازهى مبادئ القروسية وهو التمسك بالشرف ، وانما عرف عنه حبه للسلب والنهب ونقض العهود والاعتداء على الابرياء المسلمين^(٦) وقد استغل موقع امارته — حصن الكرك — لقطع طريق القوافل بين مصر والشام والحجاز . وفي سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) شرع في تنفيذ خطة تفيض حقدا على الاسلام والمسلمين ، استهدفت طعنهم في اقدس مقدساتهم بالحجاز . وكان أن بدأ أرناط في تلك السنة بالاستيلاء على أيلة وهو الميناء الهام على رأس خليج العقبة . ثم قام أرناط ببناء عدة سفن حملت أجزاءها مفككة الى خليج العقبة حيث جمعت وركبت وتم شحنها بالمقاتلين . وبسرعة مفاجئة خرج أرناط على رأس هذه السفن لمهاجمة الموانى الاسلامية في البحر الاحمر ، فبدأ بالموانى الواقعة على الشاطئ الغربى مثل عيذاب ، ثم نقل نشاطه الى شاطئ الحجاز ، حتى صار الصليبيون على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة^(٧) .

ومن الواضح أن العدوان على الحرمين أمر لا يمكن أن يغفره أو

(٤) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 111.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ — ١٥١ (تحقيق

جمال الدين الشيال) .

(٦) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occid. II) p. 4116

(٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ ، المغريزي :

كتاب السلوك ، ج ١ ص ٧٩ .

يستكت عنه المسلمون ، فأسرع العادل — أخو صلاح الدين ونائبه في مصر — الى ارسال أسطول قوى في البحر الاحمر ، نجح في مطاردة انفسن الصليبية وتدميرها وأسر كثير من رجالها ، في حين فر. أرناط نفسه بصعوبة . ومن ناحية أخرى ، رد صلاح الدين على عدوان أرناط بحصار حصن الكرك في أواخر سنة ١١٨٣ م ثم في سنة ١١٨٤ م (٥٧٩ — ٥٨٠ هـ) ، وان لم يستطع الاستيلاء عليه لقوة تحصينه^(٨) .

ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولا عندئذ بتنظيم الاوضاع الداخلية في دولته ، واحلال أبنائه محل اخوته وأبناء عمومته في حكم الاجزاء الرئيسية من تلك الدولة الكبيرة ، فاكفى بمقد. هدنة مع الصليبيين مدتها أربع سنوات تبدأ بسنة ٥٨٠ هـ (١١٨٥ م)^(٩) . وقد جاءت هذه الهدنة عظيمة الاهمية والنفع للطرفين ، اذ أتاحت لصلاح الدين فرصة لتنظيم دولته ، وفي الوقت نفسه أتاحت للصليبيين فرصة ذهبية لتصفية كثير من المشاكل الداخلية التي غرقت فيها دولتهم بعد وفاة بلدوين الرابع في مارس سنة ١١٨٥ م . ولكن أرناط لم يشأ — بحماقته المعهودة — أن يترك اخوانه الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ، فتعجل في اثاره الحرب مع صلاح الدين ، وهي الحرب التي جاءت كارثة على الكيان الصليبي في بلاد الشام بأجمعها .

موقعة حطين :

انتهى الصراع الداخلي الذي نشب بين الصليبيين بعضهم وبعض — عقب وفاة بلدوين الرابع — باختيار جاي لوزجنان ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية . وفي الوقت الذي آل أمر المملكة لصليبية الى ذلك الملك الضعيف ، كان أرناط قابعا في حصن الكرك — شرقي البصر الميت — وهو الحصن الذي كان يتحكم بموقعه الفذ في طرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز . ولكن أرناط كان « لا يستطيع أن يحيا هادئا

(٨) أبو شامة : كتب الروضتين ، ج ٢ ص ٥٦ .

Eracles, II p.p. 12 — 14.

(٩)

دون أن ينهب ويسرق» (١٠) ، ولذلك لم يلبث أن انتقض فجأة على قافلة كبيرة للمسلمين متجهة من القاهرة إلى دمشق في أواخر سنة ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧ م (٥٨٢ هـ) • ويبدو أن لعاب أرناط سال لتلك الثروة الضخمة التي تحملها القافلة فنصب لها كمينا ، واستولى على كل ما كانت تحمله من ثروة وبضائع ، وأسرى رجالها في حصن الكرك حيث « سامهم الشد والشدة » (١١) •

وقد بدأ صلاح الدين بأن أرسل إلى أرناط مهددا ، طالبا منه رد الأسرى والغنائم • ولكن أرناط رفض ذلك ، بل أقدم رفض الاستجابة لجاي لوزجنان ملك بيت المقدس عندما طلب منه الأخير رد الأسرى والغنائم إلى صلاح الدين • وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب ، فقام بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين وكافة مواردهم البشرية والمادية ، استعدادا لحركة جهاد كبرى ، لم تنته إلا في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد بالقضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام •

وقد اختار صلاح الدين أن يقيم في تلك المرحلة بدمشق ، ومن ذلك المركز أخذ ينظم تحركات قواته من مصر وحبلى والجزيرة وديار بكر • وعندما اكتملت استعداداته خرج صلاح الدين من دمشق في منتصف مارس سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، فقصد الكرك أولا « ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك » • ومن هناك اتجه إلى بانياس — قرب طبرية — لمراقبة الموقف (١٢) •

وفي ذلك الوقت ، جمع الملك جاي لوزجنان جيوشه في القاهرة ، فدارت المعركة الأولى بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية في مايو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وفيها سقط معنم الجيش الصليبي بين قتلى

Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 116. (١٠)

(١١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ •

(١٢) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٩٣ •

وأسرى • ويبدو أن هذه الكارثة التي حلت بالصلبيين ، جبلت ريموند الثالث يفيق الى رشده ، فنقض تحالفه مع صلاح الدين وانضم الى الجيوش الصليبية التي تجمعت في صفوفية استعدادا للانتقام • وقد رد صلاح الدين على ذلك بمهاجمة طبرية — التي كانت للصلبيين — فاقتحمت جيوشه مدينة طبرية وأحرقتها في يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وان لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها • ويؤكد المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين استهدف من مهاجمة طبرية أن يجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية ، مما يمكنه من انزال الهزيمة بهم بعد أن يعترتهم التعب لطول الطريق وحرارة الجو (١٣) •

وكان أن نجحت خطة صلاح الدين ، فتحرك الصليبيون للدفاع عن طبرية ، وساروا في شهر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) في ظروف قاسية ، بسبب حرارة الجو وقلّة الماء وعورة الطريق (١٤) • وعندما علم صلاح الدين أن الصليبيين أخذوا في السير تجاهه ، سر سرورا كبيرا وقال « جاء ما نريد » (١٥) •

وأخيرا وصل الصليبيون الى قرون حطين — وهي هضبة مرتفعة على سفح طبرية — وهم في حالة سيئة من الانهك والعطش ، بينما كان المسلمون مدخرين قوتهم ، ينعمون بالماء العذب والظل المديد • وفي شهر يوليو ١١٨٧ م دارت موقعة حطين الشهيرة بين صلاح الدين والصلبيين ، فأحاط المسلمون بأعدائهم ، بحيث لم يجد الصليبيون مخرجا سوى التراجع نحو قمة الجبل « والمقتل والأسر يعملان في فرسانهم » حتى قتل معظمهم ، وانهارت قوة الباقين ، فاستسلموا للمسلمين (١٦) •

(١٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ •

King : The Knights Hospitallers in the Holy Land. p. p. (١٤).
125 — 126

(١٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ •

(١٦) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ٢٣ ، ابن الاثير :

كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ •

وكان من جملة الاسرى الملك جاي لوزجنان وأرناط صاحب حصن الكرك ، ومقدم الداوية ، فسيقوا جميعا الى صلاح الدين في خيمته حيث أحسن استقبالهم ، ما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين وفاء لقبم له (١٧) .

استيلاء صلاح الدين على ساحل الشام وبيت المقدس :

تعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة في مجرى تاريخ الحروب الصليبية ، لأن الصليبيين لم يفيقوا مطلقا من تلك الضربة التي أودت بزهرة فرسانهم في الشرق الأدنى . ولم يكن منتظرا أن تتمكن مملكة بيت المقدس الصليبية من البقاء والصمود بعد فناء جيشها وأسر ملكها ، في الوقت الذي ارتفعت معنويات جيوش المسلمين وأخذوا يتطلعون لتحقيق مكاسب ضخمة عاجلة على حساب الصليبيين . أما عن صلاح الدين نفسه ، فالملاحظ أنه تحلى في ذلك الدور من أدوار حروبه ضد الصليبيين بصفات التسامح والشهامة والمروءة والبعد عن التطرف ، وهي الصفات التي كثيرا ما أنزلت الأضرار بمصالح المسلمين وجعلت بعض المؤرخين المسلمين — مثل ابن الأثير — ينقدون صلاح الدين نقدا مرا لتساهله مع خصومه تساهلا أنزل الضرر بمصالح المسلمين (١٨) .

وكان المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس ليستولى عليها في سهولة ، بعد أن غدت تلك المملكة الصليبية دون جيش يدافع عن عاصمتها ، ولكنه آثر أن يتجه أولا الى الموانئ الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة ترسل اليهم من غرب أوربا عن طريق البحر . وبعد ذلك يسهل عليه انتزاع المدن والقلاع الداخلية من الصليبيين .

هذا بالإضافة الى أن استيلاء صلاح الدين على موانئ فلسطين

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(١٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٤١ ، ٦٤٧ .

(الطبعة الرابعة ١٩٨٦) ، ٦٦٢ ، ٦٥٣ .

من شأنه أن يهيا له اتصالا سريعا وسهلا بين شطري دولته : مصر
والشام (١٩) .

وهكذا استولى صلاح الدين على عكا في سهولة ، اذ استسلمت
له تلك المدينة بمجرد رؤية الجيش الاسلامي (يوليو ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ)
ويبدو أن السياسة الرزخيمة التي اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين في
عكا ، ساعدته في الاستيلاء على العديد من المدن الساحلية والداخلية
بعد ذلك ، مثل الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصور ، وغيرها من
المواقع القريبة من عكا (٢٠) . هذا في الوقت الذي زحف العادل آخر
صلاح الدين من مصر واستولى على يافا ، في حين سقط حرس تبين
وصرفند وصيدا ، في أيدي المسلمين ، في أواخر شهر يوليو ١١٨٧ م .
(٥٨٣ هـ) . كذلك استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وعسقلان ،
رغم أن الأخيرة أبدت مقاومة عنيفة . وفي جميع تلك المدن والمناطق ،
كان صلاح الدين يترك الحرية لأهاليها ويخيرهم بين البقاء أو الرحيل ،
فأثر معظمهم الرحيل الى صور « حيث اجتمع كل اشرنجي بقي في
الساحل » (٢١) .

ولا شك في أن هذه السياسة كانت خطأ كبيرا وقع فيه صلاح الدين
ودفع ثمنه فيما بعد ، لأن تجمع كافة عناصر المقاومة الصليبية في مدينة
صور ، أدى الى استحالة استيلاء صلاح الدين على تلك المدينة من
ناحية ، والى تمكين الصليبيين من اتخاذها مركزا لحياء مملكة بيت
المقدس فيما بعد من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا ، أمر أن يتجه
الى داخلية فلسطين ليستولى على بيت المقدس . وكان أهل بيت المقدس

(١٩) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 249.

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ . (تحقيق
جمال الدين الشيال) .

(٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ (تحقيق محمد
محمود صبح) .

من الصليبيين قد استغلوا الفرصة التي أتاحتها لهم اتجاه صلاح الدين إلى الساحل بعد حطين ، وحصنوا مدينتهم . وهكذا رفضوا الفداء الذي وجهه اليهم صلاح الدين لتسليم المدينة مقابل تأمينهم (٢٢) . وعندما انس صلاح الدين عناد الصليبيين في بيت المقدس ، أقسم أن يستولي على المدينة بعد السيف ، وبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية في ٢٩ سبتمبر سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) . وكان أن أدرك الصليبيون استحالة المقاومة ، فطلبوا الأمان ، ولكن صلاح الدين تمنع عن ذلك عن اجابتهم إلى طلبهم . وأخيرا وافق صلاح الدين على أن يسمح لهم بالخروج سالمين ، مقابل فداء معين عن كل رجل وامرأة وطبيل (٢٣) .

وهكذا تظل صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة الموافق الثاني من شهر أكتوبر سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) . وشاعت الظروف أن توافق دخول المسلمين ذكرى الأسراء والمعراج ، فاحتفلوا بهذه المناسبة الدينية احتفالا كبيرا ، وأحسنوا معاملة الصليبيين ، مما جعل العديد من المؤرخين يشيدون بتسامح صلاح الدين ، ويقارنون بين معاملة للمسيحيين من جهة ، ومعاملة الصليبيين للمسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) من جهة أخرى (٢٤) .

صلاح الدين وغزو شمال الشام :

ويعد أن أتم صلاح الدين تقويض البناء الصليبي في فلسطين ، لم يبق أمامه إلا البقايا الصليبية في شمال الشام ، مثل طرابلس وأنطاكية ، فضلا عن الحصون الداخلية ، مثل حصن الأكراد وحصن

Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 809.

(٢٢)

Runciman : A Hist. of the Crusades II, p. 464.

(٢٣)

(٢٤) سعيد عشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٤٧ (الطبعة

الرابعة ١٩٨٦) .

المرقب . أما صور فقد قُشلت كافة جهود صلاح الدين للاستيلاء عليها ، بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التي سمح لها صلاح الدين بالخروج آمنة من المدن التي استولى عليها . لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من ترك صور وتوجيه جهوده ضد امارتى طرابلس وأنطاكية في الشمال .

وقد بدأ صلاح الدين هجماته على طرابلس بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة في إقليم الجليل ، مثل قلعة هونين ، كما حاصر صفد وحصن كوكب ، وان كانت هاتان القلعتان قد أظهرتا مقاومة عنيفة ، بحيث لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليهما الا في أواخر سنة ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩ م (٥٨٤ هـ) (٢٥) . وفي تلك الاثناء استولى صلاح الدين على بانياس في أقصى الشمال من امارة طرابلس ، ثم أوغل في امارة أنطاكية ، واستولى على جبلة في يوليو سنة ١٢٨٨ م (٥٨٤ هـ) . وبعد أن استولى صلاح الدين على اللاذقية — أكبر موانى امارة أنطاكية — في أواخر يوليو سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ، هاجم حصن صهيون واستولى عليه في مدة قصيرة .

وهكذا أخذت معاقل امارة أنطاكية تتساقط في يد صلاح الدين معقلا بعد آخر ، بحيث لم يبق لتلك الامارة سوى ثلاثة حصون ، هي القصير وبغراس ودربسك (٢٦) . وحتى هذه الحصون لم يلبث أن استولى عليها صلاح الدين في أواخر سنة ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ، وبذلك غدت امارتا أنطاكية وطرابلس « مقصومتى الجناح » ، على قول المؤرخ أبى شامة .

(٢٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، ١٢٥ ،
طبعة النيل .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٤ هـ ، أبو شامة : كتاب
الروضتين ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :

بدأ صلاح الدين هجومه الشامل الكبير على الصليبيين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) . ولم تمر ثلاث سنوات على هذا الهجوم حتى انكشبت الملكات الصليبية في بلاد الشام ، بحيث لم يتبق في حوزة الصليبيين من مملكة بيت المقدس الا صور ، ومن امارة طرابلس الا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة أنطربطوس وحصن الاكراد ، ومن امارة أنطاكية الا عاصمتها مدينة أنطاكية وحصن المرقب . هذا كله عدا بعض المواقع الثانوية الأقل أهمية (٢٧) .

ولا شك في أن المصائب التي حلت بالصليبيين في الشرق على يد صلاح الدين كان لها صداها الواسع ورد فعلها العنيف في الغرب الاوربي ، فارتفع صوت البابوية ينادى ملوك أوروبا وأمراءها بالقيام بحملة صليبية كبرى ، تسترد بيت المقدس من المسلمين ، وتثأر مما حل بالصليبيين في الشام على يد صلاح الدين . وتحت تأثير البابوية وضغطها استجاب لهذه الدعوة ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا امبراطور ألمانيا . ومن هؤلاء الثلاثة تبلورت الحملة الصليبية الثالثة .

وقد اختار فردريك بربروسا الطريق البري عبر البلقان وآسيا الصغرى ليصل الى بلاد الشام ، في حين سلك زميلاه — ملكا فرنسا وانجلترا — طريق البحر . ويبدو أن الحملة الألمانية بزعامة فردريك بربروسيا تعرضت في طريقها لمصاعب جمة من جانب الدولة البيزنطية ثم من جانب السلاجقة ، حتى انتهى الامر بغرق الامبراطور فردريك بربروسا في أحد أنهار آسيا الصغرى ، مما أدى الى تشتت حملته سنة ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) (٢٨) .

Grousset : Hist. des Croisades, II, p. p. 834 — 835. (٢٧)

(٢٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، حوادث ٥٧٦ هـ ،

Runciman : Op. cit. III ; p. 15.

وفي الوقت الذي جمعت البقايا الصليبية فلولها في الشام ، وانطلقت من صور لتسترد عكا من المسلمين ، وصل فيليب أوغسطس على رأس الشطر الفرنسي من الحملة الصليبية الثالثة ، ليشجع الصليبيين ويحيي فيهم الامل ، ولم يضع فيليب أوغسطس الوقت ، وانما ترعم على الفور معركة عكا (ابريل سنة ١١٩١ م / ٥٨٧ هـ) ثم وصل ريتشارد قلب الاسد الى الشام في ٨ يونيو من نفس العام لينت في الصليبيين مزيدا من القوة . أما صلاح الدين فقد بذل جهودا كبيرة لانقاذ عكا وشن هجمات قوية على الصليبيين ، ولكنه لم يفلح في انقاذ المدينة التي اضطرت حاميتها الى الاستسلام في يوليو ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) (٣٧) .

وإذا كان الخلاف بين فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الاسد قد دفع فيليب الى الاعتذار بالمرض والعودة الى الغرب في أوائل أغسطس سنة ١١٩١ م ، فان ريتشارد اختار أن يبقى بالشام بعض الوقت ليصفي الحساب بين صلاح الدين والصليبيين . وتعتبر الحروب التي دارت في الشام بين ريتشارد قلب الاسد وصلاح الدين سنة ١١٩١ - ١١٩٢ م (٥٨٧ - ٥٨٨ هـ) من أهم حلقات الحروب الصليبية وأكثرها اثارة ومغمة للباحث . ذلك أن ريتشارد جمع بين الشجاعة والتهور ، فترعم القوي الصليبية بالشام للقيام بحركة كبرى تستهدف استرداد بيت المقدس واعادتها الى سابق عهدها (٣٠) . وكان أن بدأ ريتشارد بمحاولة لاسترداد شاطئ فلسطين - من عكا الى عسقلان - فاستولى الصليبيون على حيفا ثم قيسارية في نهاية أغسطس سنة ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) ، ومنها اتجهوا صوب أرسوف .

على أن صلاح الدين لم يترك الصليبيين يواصلون زحفهم في

(٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ،

ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٧٦ .

(٣٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٨٦ وما بعدها

(الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

سهولة ، وإنما أخذ في مطاردتهم ، وتحمل في هذه المطاردة كثيرا من التضحيات ، حتى دارت موقعة أرسوف بين الطرفين في أوائل سبتمبر سنة ١١٩١ م. (٥٨٧ هـ) . وفي هذه الموقعة أحاط المسلمون بالصليبيين ، وأوشك صلاح الدين أن يقبض عليهم مثلما حدث في حطين ، لولا ثبات ريتشارد الذي أعاد تنظيم رجاله في سرعة ، واستطاع أن يحول المعركة إلى منالغ الصليبيين (٣١) .

ومع أن الصليبيين انتصروا في أرسوف ، إلا أن صلاح الدين ظل محتفظا بالسيطرة على داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . وكان أن حاول ريتشارد الزحف على بيت المقدس ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها بسبب يقظة صلاح الدين والاستعدادات الضخمة التي اتخذها للدفاع عن المدينة (٣٢) .

وأخيرا أدرك ريتشارد أن مشاكل الصليبيين الداخلية كثيرة ومعقدة ، وأن مركز صلاح الدين قوى متين ، وأن الأحوال في غرب أوروبا تتطلب منه العودة إلى بلاده على جناح السرعة . لذلك لجأ ريتشارد إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين ، وهي المفاوضات التي طالت ومرت بأدوار متعددة ، حتى أدت في النهاية إلى عقد صلح الرملة في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) . وقد نص هذا الصلح على أن تكون للصليبيين المنطقة الساحلية الممتدة من صور إلى يافا ، بما فيها قيسارية وحيفا وعكا . أما ما عدا ذلك من أرض فلسطين بما فيه بيت المقدس — فيظل بأيدي المسلمين (٣٣) .

وبعد عقد الصلح ، ركب ريتشارد البحر عائدا إلى بلاده في

(٣١) المقريزي : كتاب السلوك : ج ١ ص ١٠٥ .

(٣٢) ابن واصل : مغرب الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

(٣٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦٣ ، عماد الدين الكاتب :

الفتح القسى ، ص ٣٤٢ .

أوائل أكتوبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) • ولم يلبث أن توفي صلاح الدين في أوائل مارس سنة ١١٩٣ (٥٨٩ هـ) بعد مرض قصير ودفن في دمشق •

ولا شك في أن وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة فادحة للعالم الاسلامي بوجه عام ، ومصر والشام بوجه خاص • ويكفي أنه — باعتراف جمهرة المؤرخين المسلمين والمسيحيين — كان أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ، مما دفعهم جميعا الى الترحم عليه ، والاشادة بقوته وبعد نظره ، وعدله ، وتسامحه^(٢٤) •

* * *

(٢٤) ابن شداد : النوار السطانية ، ص ٤١ ،
Runciman : Op. cit. ; III, p.p. 11 — 18.

الفصل الرابع

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

انقسام البيت الأيوبي :

ترك صلاح الدين خلفه دولة مترامية الأطراف ، وفراغا ضخما لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر ، أو اخوته ، أو أبناء اخوته ، أن يملأه . ولا أقل من أن تلقى نظرة سريعة على أحوال الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين ، لنفدرك مدى الخطر الذي كان يتهددها ويمتهدد وحدة المسلمين في الشرق الأدنى عندئذ (١) .

على أنه قبل أن نتكلم عن التوزيع الإداري في الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين ، يصح أن نشير إلى أن صلاح الدين اعتمد في الدور الأول من تاريخه على اخوته وأبناء عمومته في توطيد سلطانه ، واختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية في دولته . ولكنه لم يلبث أن غير سياسته ، فجمل لأبنائه المكانة الأولى ، واختصهم بالأجزاء الرئيسية الأكثر أهمية ، مستبقيا لأخوته وأقاربه المناصب الثانوية . وسواء كان الدافع لصلاح الدين إلى ذلك عاطفة الأبوة التي جعلته يفضل أبناءه على اخوته ، أم كان الدافع تخوفه من أطماع أقاربه ، وازدياد نفوذ اخوته ، فالهمم أننا نجد الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين وقد تقاسم حكم أجزاءها عدد كبير من بنى أيوب ، فاستأثر أبناء صلاح الدين بالأجزاء المختارة ، وتقاسم بقية الأهل والإقارب الأجزاء الأقل أهمية .

(١) خلف صلاح الدين سبعة عشر ولدا ذكرا ، وأبنة صغيرة . انظر :

العماد الاسفهاني : الفتح القسي ، ص ٦٢٩ ، تحقيق محمد محمود

وكان أن احتفظ أكبر أبناء صلاح الدين — وهو الملك الأفضل نور الدين على — بدمشق (٥٨٩ هـ — ٥٩٢ هـ / ١١٩٣ — ١١٩٦ م) مركزا لدويلة تشتمل أيضا على السناحل وبيت المقدس وبلبك ومرغد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين ، حتى الداروم قرب حدود مصر . أما الابن الثاني لصلاح الدين — وهو الملك العزيز عثمان — فاحتفظ بمصر (٥٨٩ هـ — ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ — ١١٩٨ م) ، في حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين — وهو الملك الظاهر غازي — حلب وشمال الشام (٥٨٩ هـ — ٦١٣ هـ / ١١٩٣ — ١٢١٥ م) . أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر — أخو صلاح الدين — فقد أخذ الكرك والاردن ، فضلا عن الجزيرة وديار بكر ، وكلها اقطاعات ثانوية متفرقة منحه اياها صلاح الدين ، ولا تتناسب مع مكانة الملك العادل وأهميته التي ستتردد وضوحا مع مضي الوقت^(٢) . أما بقية أبناء صلاح الدين وأخوته وآل بيته ، فكانت لهم اقطاعات ثانوية صغيرة ، مثل الظاهر خضر بن صلاح الدين الذي أخذ بصرى وحوران ، والأمجد بهرام شاه ابن أخي صلاح الدين الذي أخذ ببلبك ، والمجاهد شيركوه الثاني (الصغير) ابن محمد بن شيركوه الكبير — عم صلاح الدين — الذي أخذ حمص ، والمنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر الذي أخذ حماة . هذا في حين أخذ سيف الاسلام طغتكين — وهو الاخ الرابع لصلاح الدين — اليمن وجزيرة العرب^(٣) .

فاذا أضفنا الى ذلك كله تحفز أبناء البيوت القديمة الحاكمة في الجزيرة ، مثل البيت الزنكي ممثلا في عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل (٥٧٦ هـ — ٥٨٩ هـ / ١١٨٠ — ١١٩٣ م) وأخيه عماد الدين زنكي الثاني ابن مودود أتابك سنجار (٥٦٦ هـ — ٥٩٤ هـ /

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ، تحقيق جميل الدين الشيبان .

(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ، ص ٦٤٤ ، تحقيق محمد

محمود صبح .

١١٧٠ — ١١٩٧ م) ، والبيت الأرتقى ممثلا في قطب الدين سقمان الثاني صاحب كيفا وآمد ، وعماد الدين أبي بكر صاحب خرقتوت ، فضلا عن بني سقمان في خلاط ، . . . أدركنا صورة الجبهة الإسلامية في الشرق الأدنى عند وفاة صلاح الدين (٤) .

النزاع بين أبناء البيت الأيوبي :

ولم تلبث أن تشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي . ذلك أن صلاح الدين أوصى لابنه الأفضل — صاحب دمشق — بالسلطنة من بعده ، على أن تكون له السلطة العليا في سائر أنحاء الدولة الأيوبية . ولكن الأفضل لم يكن بالشخص الذي يصلح للنهوض بتلك المهمة الكبيرة ، نظرا لما اتصف به من ضعف وسوء سيرة ، حتى وصفه المؤرخون بأنه أقبل على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته (٥) . وزاد من مشاعر الكراهية له أنه نبذ أمراء والده ومستشاريه ، ووضع كل ثقته في وزير جديد — هو ضياء الدين ابن الاثير — أخى المؤرخ الشهير . ولم يلبث وزراء صلاح الدين وأمراؤه المستبعدون أن فروا الى بلاط الملك العزيز عثمان بمصر ، واستعدوه على أخيه الأفضل ، فخرج العزيز عثمان من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م (٥٩٠ هـ) قاصدا الشام حيث شرع في محاصرة أخيه الأفضل في دمشق ، الأمر الذي جعل الأفضل بدوره يسجد بعمه العادل (٦) .

وهكذا أتاحت الفرصة للعادل — وهو الرجل الطموح الذي كان يرجو أن يخلف أخاه صلاح الدين — ليقفز على أكتاف أبناء أخيه المتنازعين . وقد وصف المؤرخ ابن واصل الملك العادل بأنه كان « ذا

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٩ هـ .

(٥) المقرئى : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ ، ابن تغرى

بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢٠ .

(٦) ابن الاثير : كتاب الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

مكر شديد وخديعة ، صبورا ذا أناة وثؤدة (٧) . لذا لم يشأ أن يتعجل الحوادث. عقب وفاة أخيه صلاح الدين ، وأخذ يتصرف بحكمة وأناة ريثما تتضيق الثمرة . وعندما أتاحت الفرصة ، استجاب العادل لنداء الأقباط ، فالتقى بالملك الظاهر صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماة ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك ، واتفق الجميع على منح العزيز عثمان من الأستيلاء على دمشق ، « علما منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم » . وعندئذ أدرك العزيز أن لا قدرة له على مقابضة أولئك الأمراء جميعا ، فأنصرف عائدا إلى مصر ، بعد أن اجتمع بعمه العادل في صحراء المزة ، قطيب العادل نفسه ، وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها (٨) .

أما التشنوية التي على أساسها انصرف العزيز ، والتي تمت في يوليو سنة ١١٩٤ م (٥٩٠ هـ) ، فقد قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال النور ، في حين يأخذ العزيز عثمان بيت المقدس وما يجاوره من أعمال فلسطين ، ويأخذ الظاهر غازي جبلة واللاذقية ، وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلا (٩) .

وهكذا أخذ العادل يبدو في صورة الحكم بين أبناء أخيه صلاح الدين ، والشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبي ، والمحافظة على كيان المسلمين أمام الأخطار الخارجية (١٠) .

(٧) ابن واصل : بئرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٧١ ، تحقيق جمال الدين الشيبلي .

(٨) المغزي : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة .

(٩) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(١٠) يروي أن العادل عندما التقى بالعزيز عثمان قرب دمشق قال له : « لا تخرب البيت وتدخل عليه الأمانه ، والتعدو وأمانا من كل جانب ، وأرجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك » .

ابن تغرى بزدي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢١ .

على أن الأفضل لم يلبث أن تعادى في لذاته ولهوه « فتبساغل
عن أمور الناس بادمان الشراب » ، في الوقت الذي عاد العزيز عثمان
الى مطامعه ، فخرج من مصر قاصداً دمشق . وكان أن عاد الأفضل
الى طلب النجدة من عمه العادل ، وعندئذ لجأ الأخير الى تحريض أمراء
العزيز على تركه . وعندما وجد العزيز عثمان نفسه وحيدا اضطر الى
العودة الى مصر . وسرعان ما تم اتفاق بين الامراء على أن يأخذ الأفضل
مصر ويترك دمشق للعادل . ولتنفيذ ذلك جمع الأفضل والفادل
جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ، ثم شرعا يزحفان على العزيز
عثمان في مصر حتى وصلا الى بلبيس وحاصراها . وليس أدل على
مهارة العادل من أنه خشي عندئذ أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه
دمشق ، فأرسل العادل سرا الى العزيز عثمان يطلب منه الثبات ،
ويتعهد بالانسحاب من بلبيس (١١) . وهكذا عاد الأفضل الى دمشق ،
في حين جعل العادل من نفسه حكما بين أبناء صلاح الدين مما مكنته من
أن يفرض كلمته عليهم جميعا .

ولكن الأفضل عاد في تلك المرة الى دمشق ، ليعترك كافة شئون
الحكم في يد وزيره ضياء الدين ابن الاثير ، « الذي اختطت به الاحوال
غاية الاختلال وكثر شاكوه » . وكان أن ضج الناس من سوء الحكم
وأعلنوا بسخطهم على الأفضل وابن الاثير جميعا (١٢) .

وعندما وجد العادل أن الأمور قد نضجت لعزل الأفضل ، اتجه
الى العزيز عثمان في مصر ، وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الأمر . ثم
خرج الاثنان — العادل والعزيز — من مصر في يونية سنة ١١٩٦ م
(٥٩٢ هـ) قاصدين دمشق ، « فما صدهم عن البلد صاد ، ولا ردهم
زاد » (١٣) . ولم تلبث أن سقطت دمشق في أيديهما في أوائل يوليو ،

(١١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(١٢) القرينى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، سنة ٥٩٢ هـ .

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٦١ .

وعندئذ حل العادل محل الأفضل في حكم دمشق وأواسط الشام ، في حين أخذ العزيز عثمان لقب السلطنة ، وبقيت له مصر وبيت المقدس ، على أن يذكر اسمه في الخطبة وينقش على السكة . أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد في إقليم حوران شرقي بصرى ، ليقيم فيها نسيا منسيا (١٤) .

مصر في عهد العزيز عثمان :

حكم العزيز عثمان مصر قرابة خمس سنوات (١١٩٣ — ١١٩٨ م / ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ) ، وكان قبل ذلك يحكم مصر باسم أبيه صلاح الدين وفي ذلك يقول المؤرخ ابن تغرى بردى عن العزيز عثمان أنه « ولي سلطنة مصر في حياة والده صورة ، ثم تسلطن بعد وفاته استقلالاً ، باتفاق الامراء وأعيان الدولة بديار مصر » (١٥) . ويلاحظ أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، وهو لذلك يمثل أول حاكم من بنى أيوب يولد على أرض مصر ويتولى حكمها . وقد أشادت المصادر المعاصرة باستقامة العزيز عثمان ، وصلاح حكمه ، وعدله في الرعية حتى وصفه ابن خلكان بأنه « كان ملكا مباركا ، كثير الخير ، واسع الكرم ، محسنا الى الناس » (١٦) .

ومع أن مصر ظلت في ذلك الدور — مثلما كانت في عهد صلاح الدين — قلب الدولة الايوبية ، إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت الى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل (٥٩١ — ٥٩٢ هـ / ١١٩٤ م) ، مما ترتب عليه حدوث القحط وانتشار الوباء ، فهلكت المواشي ، وكثر الزحام في الاسواق على الخبز لقلته « وكثرت الطرحي من الاموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي

(١٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٦ .

(١٥) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٢٠ .

(١٦) ابن خلكان : وقيلت الاعيان ، ج ٣ ، ص ٢٥١ ، تحقيق احسان

نفس ، وبقى بمصر من لم يوجد من يكفنه ، وأكثرهم يموت جوعاً (١٧) .
ويبدو أن انشغال العزيز عثمان بالفراع مع أخيه الأفضل في ذلك الدور ،
لم يساعد على سرعة وضع حد لتلك الضائقة التي أثرت تأثيراً خطيراً
في أحوال البلاد . . .

العادل وتوحيد الدولة الأيوبية :

وإذا كانت الظروف التي أملت بالبيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين
قد ساعدت على إبراز أهمية العادل بوصفه كبير بنى أيوب وزعيمهم ،
فإن هذه المكانة كانت تلقى مسئولية كبيرة على كاهل العادل فيما يختص
بالدفاع عن مصالح المسلمين ضد أي عدوان من جانب الصليبيين .
وفعلاً نهض العادل بمسئوليته تجاه العدوان الصليبي على خير وجه .
من ذلك أنه حدث سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) أن وفد بعض الصليبيين
الالمان على بلاد الشام ، وهاجموا المسلمين وبخاصة قرب الساحل ،
وعندئذ أسرع العادل الى جمع قوى المسلمين وأنزل هزيمة بالصليبيين
عند تل العجول قرب غزة ، ثم أتبع ذلك بالاستيلاء على يافا في سبتمبر
سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) (١٨) ، وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء
على بيروت في أكتوبر ، ثم خططوا للزحف على بيت المقدس ، ولكن
العادل طلب جمونة العزيز عثمان من مصر ، فحضر اليه في أوائل سنة
١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، وتمكن المسلمون من الصمود في وجه الصليبيين
الذين ارتدوا فاشلين (١٩) .

ولم يكد يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين في أوائل يوليو سنة
١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات انتهت
بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة للعادل . ذلك أن العزيز عثمان

(١٧) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(١٨) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

ابن واصل : منرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ .

(١٩) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ، حوادث سنة ٥٩٤ هـ .

— سلطان مصر — توفي في أواخر سنة ١١٩٨ م (٥٩٥ هـ) • وكان ابنه الأكبر ناصر الدين محمد — الملقب بالملك المنصور — في العاشرة من عمره • فأرسل الأمير فخر الدين جهاركس — صاحب النفوذ في مصر — الى العادل ، يستدعيه لحكم البلاد • ولكن المماليك الأيسديّة والصلاحيّة في مصر خافوا بأس العادل ، فاستدعوا الملك الأفضل من حوران ، وسلموه مقاليد الامور في مصر في يناير ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) • وكان العادل عندئذ يحاصر مارددين في ديار بكر ، فاتفق الملك الأفضل في مصر مع الملك الظاهر غازي صاحب حلب للقضاء على سيادة عمهما الجايل وأخذ دمشق منه (٢٠) •

وعندما علم العادل بمؤامرة ابني أخيه ضده ، عاد مسرعا الى دمشق ، فوصلها في ٨ يونيو سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وأخذ يعد المدينة بسرعة للدفاع • ولم تمض مدة طويلة حتى وصل الأفضل على رأس العسكر المصري ، والظاهر على رأس العسكر الخليلي ، وحاضرا دمشق طوال ستة أشهر • ولكن دون أن يقوموا بهجوم عام جاد • ويبدو أن طول مدة الحصار أدت بكثير من أمراء الأفضل والظاهر الى تركهما والانضمام الى العادل ، في الوقت الذي استغل العادل سوء تدبير الأخوين وأخذ يبذر بذور الخلاف بينهما ، حتى انتهى الأمر في أواخر ديسمبر سنة ١١٩٩ م (٥٩٦ هـ) بعودة الأفضل الى مصر والظاهر الى حلب (٢١) • وعندئذ لم يشأ العادل أن يترك الأفضل يعود في سلام الى القاهرة ، وإنما تبعه الى مصر ، وأنزل هزيمة به قرب بلبيس • ولم يلبث أن استسلم الأفضل ، وطلب أن يسمح له بالعودة الى اقطاعه المتواضع في حوران ، على أن تكون مصر للعايل (١٢٠٠ م / ٥٩٦ هـ) (٢٢) •

-
- (٢٠) ابن الاثير : الكابل ، حوادث سنة ٥٩٥ هـ ،
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٤٨ •
(٢١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ •
(٢٢) ابن الاثير : الكابل ، حوادث سنة ٥٩٦ هـ .

ولكن الظاهر والأفضل لم يلبثا أن اتفقا في العام التالي مرة أخرى ضد عمهما العادل ، وزحفا على دمشق ليحاصراها من جديد . وعندئذ أسرع العادل من مصر لبيذر بذور الخلاف بين الاخوين ، فعاد الظاهر الى حلب واعترف بسيادة عمه ، أما الأفضل فاختر عمه أن يعاقبه في تلك المرة ، فلم يعطه سوى سميساط^(٢٣) .

وهكذا صار العادل « سلطان البلاد جميعها » وببيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق ، فضلا عن أملاكه في الجزيرة . وإذا كان العادل قد نجح في توحيد الدولة الايوبية من جديد ، فان ذلك تطلب منه اعادة تنظيم دولته . وقد استعان في ذلك بالتنظيم بأبنائه ، فأناج ابنه الكامل محمد في حكم مصر ، وجعل المعظم عيسى في دمشق ، وأعطى الأشرف موسى حران ، والملك الاوحد نجم الدين أيوب ميافارقين . واحتفظ العادل لنفسه بالاشراف التام على جميع أنحاء الدولة ، « وصار ينتقل في ممالك أولاده ، والعمدة في كل الممالك عليه »^(٢٤) .

وبذلك تم اعادة توحيد الجبهة الاسلامية مرة أخرى في وجه الصليبيين ، وقام على رأس تلك الجبهة رجل يعتبر من أقوى رجال عصره ، وهو السلطان العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب ، أخو صلاح الدين .

السلطان العادل والصليبيون :

نظر الصليبيون والغرب الأوربي الى جهود العادل الايوي في توحيد الجبهة الاسلامية ، بعين القلق ، وأخذوا يدركون أهمية مصر بوصفها القاعدة الكبرى التي اعتمد عليها الايوبيون في دعم نشاطهم

(٢٣) المقرئى : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٥٩٨ هـ ، ج ١ ،

ص ١٥٩ .

(٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ .

(م ٦ — الايوبيون والمالِك)

الداخلي والخارجي . وكان أن ظهرت الدعوة في الغرب الاوربي في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) لارسال حملة كبيرة ضد مصر . وقد عرفت هذه الحملة في تاريخ الحركة الصليبية باسم الحملة الرابعة ، وهي التي انحرفت الى القسطنطينية ، ولم تصل الي مصر أو الشام .

أما الملك عمورى الثانى لوزجنان — ملك الصليبيين في عكا — فقد ظل في تلك الأثناء حريصا على عدم خرق الصلح الذى عقد مع المسلمين سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، مستهدفا عدم استفزاز العادل حتى تأتى الحملة الصليبية المنتظرة الى الشرق . من ذلك أن ثلثمائة فارس من الفلمنكيين وصلوا في نهاية سنة ١٢٠٣ م (٥٩٩ هـ) الى عكا ، وطلبوا من الملك عمورى الثانى البدء فورا بالزحف على بلاد المسلمين ، ولكن عمورى رد عليهم بأن الحماسة وحدها لا تكفى وبأن من الاضوب عدم خرق الهدنة مع المسلمين حتى يضمن الصليبيون قوة فعالة تحقق لهم الانتصار في حروبهم ضد المسلمين (٢٥) .

ولكن حرص عمورى الثانى على احترام الصلح مع المسلمين لم يؤد الى تهاونه في الدفاع عن سلامة الصليبيين . ذلك أن سياسته اتجهت الى عدم المبادره بالعدوان ، مع التأهب دائما للدفاع عن كيان الصليبيين ومصالحهم . من ذلك أن أميرا مسلما امتك قلعة في اقليم صيدا ، استغلها في القيام باغارات بحرية عدوانية على ممتلكات انصليبيين وسفنتهم . ولم تغلح الشكاوى التى بعث بها عمورى الى السلطان الملك العادل لوقف نشاط ذلك الامير ، وعندئذ قرر عمورى الثانى الرد على العدوان بالمثل . وكان أن تربص أسطوله لقاطلة من السفن الاسلامية — بلغ عدد سفنها نحو من عشرين سفينة —

قادمة من مصر الى موانئ الشام ، واستولى الصليبيون على ما فيها من بضائع قدرت بنحو ستين ألف دينار ، كما أسروا رجالها الذين بلغ عددهم نحو من مائتى رجل^(٢٧) . وبعد ذلك شرع عمورى في القيام باغارة على اقليم الجليل ، فأوغل الصليبيون حتى كفر كنا — على الطريق بين عكا وطبرية — واعتدوا على ارواح المسلمين وممتلكاتهم^(٢٨) . ولكن العادل خرج اليهم ، وعندئذ أوقف الصليبيون زحفهم ، واختاروا أن يترثوا حتى تصل الحملة الصليبية المنتظرة . ولم تلبث أن جاءت الاخبار بانحراف الحملة الصليبية الرابعة ، واتجاهها الى القسطنطينية ، مما ساعد على ابرام الصلح بين المسلمين والصليبيين في سبتمبر ١٢٠٤ م (٦٠١ هـ)^(٢٨) .

ويبدو أن العادل أدرك عندئذ أنه في سياسته تجاه الصليبيين أفرط في التسامح ، مما تسبب في الأذى الذى يلحق بالمسلمين . ذلك أنه لم يكتف بعدم الهجوم ، بل كثيرا ما كان يغض الطرف عن العدوان الصليبي ، رغبة منه في عدم اشعال نار العداوة بين الطرفين . من ذلك أن الصليبيين — وبخاصة الاسبتارية في حصن الاكراد — دأبوا منذ سنة ١٢٠٦ م (٦٠٣ هـ) على الاغارة على مدينة حمص ، في الوقت الذى استولى قراصنة قبرس سنة ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) على عدة سفن « من أسطول مصر »^(٢٩) . ومع ذلك كله ، فان العادل اكتفى بانذار ملك الصليبيين ، وقنع برد أسرى المسلمين . ومن الواضح أن سياسة العادل وتسامحه كانتا لا تتفقان بأى حال وروح العصر وحماسة المسلمين الذين دأبوا على عقد اجتماعات في جامع دمشق لاعلان

(26) Grousset Hist. des Croisades, III p. 180.

(٢٧) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٠٠ هـ .

(٢٨) تاريخ ابن الوردي (تمة المختصر في أخبار البشر) ، ج ٢ ، ص

١٨٢ ، تحقيق أحمد رفعت البدر اوى .

(٢٩) ابن الاثير : الكامل ، سنة ٦٠٤ هـ ،

سعيد عشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٣٩ .

استنكارهم لسياسة الاستكانة التي اتبعها العادل . وكان أن قطعت
امرأة شعرها ، وبعثت به الى العادل ، وقالت له « اجعله قيذا لفرسك
في سبيل الله » (٣٠) .

وتحت تأثير هذه الضغوط ، قام العادل ببعض الاعمال الحربية
ضد الصليبيين سنة ١٢٠٧ م (٦٠٣ هـ) في اقليم طرابلس . ولكنه
لم يلبث أن عقد الصلح معهم بعد قليل (٣١) .

(٣٠) ذيل الروضتين

(Rec. Hist. C. Tome 5 , pp. 156 — 158)

(٣١) ابن ابيك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، ص ١٦٠ ،

(تحقيق المؤلف) .

الفصل الخامس

السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة على مصر

تطلع الصليبيين الى مصر :

أدرك الصليبيون منذ بداية استقرارهم بالشام في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس للهجرة) أهمية مصر لهم ولشاريعهم في الشرق الأدنى ، فأخذوا يتطلعون للاستيلاء عليها ، وقام جودفرى دى بوايون - أول حاكم صليبي على بيت المقدس - بأولى المحاولات الاستكشافية في أرض مصر سنة ١٠٩٩ م (٤٩٣ هـ) ، ثم أعقبه أخوه بلدوين - أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية - فغزا أرض مصر فعلا سنة ١١١٦ م (٥٠٩ هـ) .

وقد سبق أن أشرنا الى التنافس بين شاور وضرغام في أواخر عصر الدولة الفاطمية ، وكيف أدى ذلك التنافس الى تدخل الصليبيين في شئون مصر ، وقيام ملكهم عمورى الاول بأربع حملات على مصر (١١٦١ - ١١٦٨ م / ٥٥٦ - ٥٦٤ هـ) . واذا كان الصليبيون قد فشلوا في مصر ، فان فشلهم كان حائزا لهم على الاحساس بمدى الخطر الذى يتهددهم بعد أن غدا نور الدين - ومن بعده صلاح الدين - يسيطران على الشام ومصر جميعا ، ويحصران الكيان الصليبي بين فكي كمائة الجبهة الاسلامية المتحدة . ولم يخف على الصليبيين والغرب المسيحى أن مصر كانت المخزن الرئيسى الذى استمد منه صلاح الدين موارده التى مكنته من الاطاحة بالصليبيين في موقعة حطين ، ثم من الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من المدن والموانى والمعازل الصليبية في بلاد الشام . وبعد الصدمة القوية التى تعرض لها الغرب الاوربى نتيجة لتلك الخسائر ، أفاق الغربيون في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد

أمام حقيقة كبرى ، هي أن مفتاح بيت المقدس موجود في مصر ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم أن يحكموا قبضتهم على مصر أولاً .

وكان المفروض أن تتجه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) ضد مصر على وجه التحديد . ولكن مطامع البنادقة ومتطلبات سياستهم الاقتصادية ، جعلتهم يوجهون الحملة صوب القسطنطينية ، حيث أزاح الصليبيون الإمبراطورية البيزنطية وأقاموا إمبراطورية لاتينية غربية . وازاء هذا الفشل الذي منيت به الحملة الصليبية الرابعة في ميدان الحركة الصليبية ، قام البابا انوسنت الثالث ومن بعده البابا هونوريوس الثالث ، بالدعوة لحملة صليبية جديدة لتدارك الخطأ الذي وقعت فيه الحملة الرابعة . وقد بدأت هذه الدعوة فعلاً منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٢١٣ م . ومن أجل ذلك عقد مجمع اللاتران الرابع في روما سنة ١٢١٥ برئاسة البابا انوسنت الثالث نفسه (١) .

حنا دي برين ومهاجمة مصر :

وسرعان ما أخذت أفواج الصليبيين المتحمسين تغد من الغرب الأوروبي على بلاد الشام تطبية لنداء البابوية ، في الوقت الذي آمن حنا دي برين — ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا (١٢١٠ — ١٢٢٥ م) — بفكرة غزو مصر . وكانت خطة حنا دي برين تستهدف دخول مصر عن طريق الاسكندرية أو دمياط ، وأيده في هذه الخطة جمهرة الصليبيين في بلاد الشام ، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية ، فضلاً عن الصليبيين في قبرس (٢) .

وعندما اكتملت استعدادات الصليبيين في بلاد الشام ، ترك الملك حنا دي برين حامية قوية في عكا للدفاع عنها ضد أي هجوم إسلامي

(1) Setton : A History of the Crusades, vol. 2, pp. 378 — 379.

(2) Brehier : L'Eglise et l'Orient, pp. 191 — 192.

مفاجيء ، ثم خرج على رأس الاسطول الصليبي متجها الى دمياط في
أواخر مايو سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) . ولم يغب عن الصليبيين عندئذ
أن يتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في طعن الدولة
الاسلامية من الجنوب عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة^(٣) .

على أنه يلاحظ أن الصليبيين ارتكبوا خطأ كبيرا سنة ١٢١٨ م
؛ ٦١٥ هـ) بغزوهم مصر عن طريق دمياط والنيل . وكان المقروض أن
بستفيد الصليبيون عندئذ من تجارب عمورى الاول ، التى أثبتت أن
الوصول الى القاهرة أمر ممكن عن طريق الصحراء الشرقية . وربما
كان عذر حنا دى برين هو أن عمورى كانت له قاعدة حربية كبرى في
جنوب فلسطين — هى مدينة عسقلان — استطاع أن يعتمد عليها في
غزو مصر عن طريق الشرق . أما حنا دى برين ، فلم يجد للصليبيين أية
قاعدة على الحدود يمكنهم الارتكاز عليها في طريقهم الطويل . وهكذا
اختار الصليبيون النزول على دلتا النيل في مواجهة دمياط ، لا لأن دمياط
أقرب الموانئ المصرية الكبرى من الصليبيين بالنسبة فحسب ، بل
أبضا لأن فرع دمياط يمثل في نظرهم طريقا سهلا يوصلهم الى داخلية
انبلاد . ونسى الصليبيون مدى ما يمكن أن يتعرضوا له في غزوهم
مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية : تتمثل في السدود والجسور
والترع مما يجعل وصولهم الى القاهرة عن هذا الطريق أمرا صعبا بل
ربما متعذرا^(٤) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين نزلوا على الضفة الغربية للنيل
المواجهة لمدينة دمياط ، اذ يبدو أنهم وجدوا المدينة محصنة تحصينا
قويا ، بينما امتدت بعرض مجرى النيل مآصرا ، وهى سلاسل ضخمة
من الحديد تحول دون دخول البهفن المعادية من البحر الى داخل مجرى

(3) Coulbeaux : Hist. d'Abyssinie pp. 256 — 266.

(4) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 190.

النهر^(٥) . هذا بالاصافه الى برج السلسلة ، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر عند مصبه ، لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها^(٦) .

ولما علم الملك الكامل - الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى حكم مصر - بنزول الصليبيين فى مواجهة دمياط ، أسرع على رأس جنده ، ونصب معسكره جنوبى دمياط - وهو المكان الذى صار يعرف منذ ذلك الوقت باسم منزلة العادلية - حتى يكون على اتصال بالمدينة من ناحية ، ويمنع الصليبيين من العبور الى ضفتها من ناحية أخرى . وكان ذلك فى الوقت الذى كلف السلطان العادل ابنه الملك الأشرف موسى بالضغط على الصليبيين فى الشام « فسار فى عسكره الى حمص ، ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط »^(٧) .

ولم يلبث أن أدرك الصليبيون فداحة الخطأ الذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة العربية للنيل بدلا من الضفة الشرقية القائمة عليها مدينة دمياط فعلا . مما أثار أمامهم مشكلة صعبة هى كيفية عبور نهر النيل للوصول الى ابيديه . هذا بالاضافة الى أنهم أضاعوا كثيرا من الوقت عقب نزولهم لى الشاطئ ، مما أعطى المسلمين فرصة للتأهب والاستعداد .

وكان أن قضى صصبييون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة حتى تمكنوا أخيرا - فى أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) - من الاستيلاء على البرج . وقطع المآصر البقى كانت تعترض مدخل النهر^(٨) .

(٥) المقريزى كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، حوادث سنة

٦١٥ هـ .

(٦) ابن الاثير الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٧) ابن العديم ردة الحلب فى تاريخ حلب ج ٣ ، ص ١٨٠ ، حوادث سنة ٦١٤ هـ بحقيق سلمى الدهان .

(٨) ابن الاثير الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

ولا شك في أن سقوط برج السلسلة في قبضة الصليبيين وقطع تلك المآصر جاء نذير خطر كبير بالنسبة للمسلمين . ذلك أن المعاصرين اعتبروا ذلك البرج « قفل الديار المصرية »^(٩) ، في حين كانت المآصر بمثابة البوابة التي تحول دون دخول سفن الأعداء الى داخلية البلاد .

ويقال ان السلطان العادل لم يحتمل سماع تلك الأخبار السيئة ، فمرض مرض الموت ، ثم لم يلبث أن توفي بفالقين بالشام في نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ)^(١٠) .

أبناء العادل ومدافعة الصليبيين :

أدرك أبناء السلطان العادل — في مصر والشام — أن الخطر الذي يهددهم ، ويهدد المسلمين جميعا في المنطقة ، خطر فادح ، وأنه لو ثبت الصليبيون أقداهم في مصر ، فلن يبقى للمسلمين مقام في مصر والشام . لذلك أجمعوا أمرهم على بذل كل ما في وسعهم للتصدي للصليبيين في مصر من ناحية ، وللضغط عليهم في الشام لاجبارهم على سحب قواتهم من مصر من ناحية أخرى .

وكانت الخطوة الاولى أمام السلطان الكامل هي سد مجرى نهر النيل في وجه الغزاة حتى لا يتمكنوا من التوغل في البلاد . لذلك عمل على اقامة جسر ضخم بعرض المجرى . ولكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر ، وعندئذ استحضر الكامل عدة مراكب كبيرة وأغرقها بعرض مجرى النهر ليغرق تقدم السفن الصليبية^(١١) . وفي تلك المرة أيضا تحايل الصليبيون على تفادي تلك العقبة ، فحفروا خليجا هناك كان

(٩) ذيل الروضتين

(Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5, p. 161).

(١٠) تاريخ ابن الوردي « تنمة المختصر في أخبار البشر » ج ٢ ، ص ٢٠١ ، تحقيق أحمد رفعت البدرأوى .

(١١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

النيل يجرى فيه قديما . وأجروا فيه الماء الى البحر . وبذلك استطاع
السفن الصليبية أن تدخل في النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية
حيث كان معسكر الكامل (١٢) .

ولم تكذ أخبار هذه الانتصارات التي أحرزها الصليبيون في مصر
تصل الى الشام ، حتى تشجع اخوانهم وهاجموا بعض المراكز
الاسلامية قرب عكا . ولكن المسلمين تصدوا للصليبيين ، وأتزلوا بهم
خسائر جسيمة ، كما خرج الملك المعظم عيسى من دمشق واقتحم قيساريا
وهدمها ، في حين أغار الابن الثالث للسلطان العادل — وهو الملك
الأشرف موسى — على امارة طرابلس الصليبية (١٣) . ومع ذلك فانه
يبدو أن المعظم عيسى كان متخوفا من عواقب الحرب مع الصليبيين في
مصر ، فقام سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) بهدم عدة حصون قوية في الشام ،
حتى لا يستفيد الصليبيون منها اذا استولوا عليها ، بل انه هدم أبراج
مدينة بيت المقدس وأسوارها حتى لا يتحصن الصليبيون فيها في حالة
استيلائهم عليها ، الأمر الذي أثار موجة من الذعر بين صفوف المسلمين
داخل المدينة وخارجها ، فهجرها كثيرون من أهلها خوفا على
أرواحهم (١٤) .

سقوط دمياط :

أما في مصر ، فعلى الرغم من أن الموقف في تلك المرحلة كان يشير
الى تفوق الصليبيين . الا أن حنا دى برين أخذ يواجه مشاكل عديدة
عقب استيلائه على برج السلسلة . ذلك أن كثيرا من الصليبيين ظنوا
أن مهمتهم انتهت بسقوط ذلك البرج وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبي ،

(١٢) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(١٣) ذيل الروضتين

(Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5, p. 166)

(١٤) تاريخ ابن الوردي « تنمة المختصر في أخبار البشر » ، ج ٢ ،

ص ٢٠٣ ، تحقيق احمد رعت البراوى .

فانسحبوا عائدين الى بلادهم . وهكذا صار على حنا دى برين أن ينتظر وصول امدادات جديدة ، وهي الامدادات التي وصلت من أوروبا فعلا خلال سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) . على أن الملك حنا دى برين لم يهنأ بوصول تلك الامدادات لأنها جاءت بزعامة مزدوب بابوى — هو الكاردينال بلاجيوس — الذى تزعم الحملة الصليبية بأكملها . ولاشك فى أن ظهور زعيم جديد للصليبيين فى مصر أضعف الملك حنا دى برين ، فضلا عن أن ذلك الازدواج فى القيادة أنزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها^(١٥) .

أما عن الجبهة الاسلامية ، فمن الواضح أن السلطان العادل عندما توفى فى أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) خلف لأبنائه تركة ثقيلة . ذلك أنه كان على ابنه الكامل — الذى خلف أباه فى مصر — طرد انصليبيين من الأراضى المصرية ، كما كان على ابنه المعظم — الذى خلف أباه فى دمشق — حراسة جبهة الشام ، والضغط على الصليبيين لاجبارهم على ترك مصر . هذا فضلا عن أنه كان على ملوك الشام جميعا — من بنى أيوب — مساعدة الكامل فى مصر وتقديم العون السريع له .

وقد حاول الكامل القيام بهجوم على المعسكر الصليبي فى أوائل أكتوبر سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) فعبر نهر النيل ، وانقض عليهم ، ولكنهم صمدوا فى وجهه ، وربما تغلبوا على مقدمة جيشه ، مما اضطر الكامل الى الانسحاب السريع . وقد أراد الصليبيون أن ينتهزوا الفرصة للعبور الى الضفة النيل الشرقية التى تقع عليها مدينة دمياط ، ولكنهم فشلوا فى ذلك^(١٦) . وزاد من موقف الكامل سوءا أن البدو أتوا من سيناء والشرقية ، ليستفيدوا من حالة الفوضى التى نجمت

(15) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 211.

(١٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٧ ، الطبعة الرابعة ١٩٨٦ .

عن الغزو الصليبي ، فأغاروا على القرى ونهبوها « وبالغوا في الانسداد فكاثروا أشد على المسلمين من الفرنج » (١٧) . ثم ضاعف من خطورة الموقف أن أحد القواد في معسكر الكامل — وهو ابن المشطوب — دبر غنْدَثَ مؤامرة لعزل الكامل ، واحلال أخيه الأصغر — وهو الفائز بن العادل — محله في الحكم (١٨) .

ولم يسع الكامل لمواجهة هذه الأخطار سوى أن يستتجد بأخيه المعظم . ولكن حدث قبل أن يصل المعظم الى مصر أن خشي الكامل على نفسه من المتآمرين ، فهرب من معسكره في العادلية ليلا ، وترتب على ذلك فرار الجند في أثره ، فلما أصبح الصباح وجد الصليبيون المعسكر الاسلامي أمامهم خاويا ، فعبروا في غير صعوبة الى الضفة الشرقية للنهر « آمنين بغير منازع ولا ممانع » ، وغنموا كل ما في معسكر المسلمين من عدد وسلاح ومؤونة (١٩) .

وهكذا ساء الموقف في مصر ، لولا وصول المعظم في الوقت المناسب ، فأعاد الثقة الى نفس أخيه الكامل ، وتخلص من ابن المشطوب ، وأعاد تنظيم الجيش الاسلامي الذي رابط عند فارسكور جنوبي العادلية . وبفضل هذه الاجراءات السريعة ، تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى ، قاومت فيها المحاولات التي بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها . وتذكر بعض المصادر المعاصرة أن الكامل والمعظم أرسلوا في طلب المعونة من شتى أنحاء العالم الاسلامي ، وأنها أوضعا لبقية الحكام المسلمين ما يترتب على سقوط مصر في أيدي الصليبيين من مخاطر « فانهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها » (٢٠) .

(١٧) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ .

(١٨) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ ،

تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(١٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٢٠) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ص ١٩٥ ، تلحق محمد مصطفي

وعندما علم الكامل بوصول نجدات قوية للصليبيين من قبرس وغرب أوروبا ، أرسل اليهم بعرض سخى ، هو استعداداه لاهياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة واعادتها الى ما كانت عليه قبل حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) باستثناء حصن الكرك الذى يبقى فى حوزة المسلمين ، على أن يجلوا الصليبيون عن مصر . وقد قبل هذا العرض الملك حنا دى برين وأمراء مملكته والصليبيون الفرنسيون . ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض الموافقة عليه ، وشاركة رأيه الاستتارية والداوية الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمرا سهلا (٢١) . وثمة خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الحملة ، ومؤيدوه من فرسان الاستتارية والداوية ، هو اصرارهم على توجيه هجماتهم ضد معسكر الكامل والمعظم فى فارسكور ، بدلا من تركيز جهودهم فى حصار دمياط ، مما عرضهم للهزيمة والفرار . ولم تلبث أن وصلت نجدات قوية للصليبيين فى سبتمبر سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) ، فشددوا هجماتهم على دمياط التى ازدادت أحوالها سوءا ، فاضطرت الى الاستسلام فى نوفمبر سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) (٢٢) .

وكان أن أتى الصليبيون كثيرا من أعمال السفك والعدوان فى دمياط (٢٣) ، كما أنهم خططوا لاتخاذ دمياط مركزا منيعا دائما لهم ، « فبالغوا فى عمارتها وتحصينها » . أما المسلمون ، فكانت خسارتهم بضياغ دمياط عظيمة ، ضاعف منها ظهور خطر التتار فى الجناح الشرقى للعالم الاسلامى ، اذ استولى جنكيز خان فى ذلك الدور على خوارزم وبلاد ما وراء النهر ومعظم فارس ، وسقطت بخارى فعلا فى يده سنة

(٢١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٩ ، الطبعة الرابعة ١٩٨٦ .

(٢٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٢٣) تاريخ ابن الوردي « تنمة المختصر فى اخبار البشر » ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، حوادث سنة ٦١٦ هـ ، تحقيق احمد رفعت البدرأوى .

١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) (٢٤) .

الصلبيون والزحف على القاهرة :

ومع أن الظروف كلها كانت في صالح الصليبيين عقب سقوط دمياط ، إلا أن الانقسامات التي تعرض لها الصليبيون ، والأخطاء التي وقعوا فيها ، أنزلت بهم كثيرا من الأضرار حتى أدت إلى فشلهم في نهاية الأمر . ذلك أن الملك حنا دى برين لم يستطع أن يتعاون مع المنذوب البابوي بلاجيوس ، فانسحب الملك الصليبي عائدا إلى عكا في أواخر مارس سنة ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) تاركا بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية ذلك العام والنصف الأول من عام ١٢٢١ م (٦١٧ — ٦١٨ هـ) في ركود تام . ولم يكن إلا في أواخر يونيو سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة ، فأرسل إلى حنا دى برين في عكا يسأله العودة لمساعدة بقية الصليبيين في غزو مصر . وكان أن خشى حنا دى برين أن يتهم بعدم التعاون وبالتفريط في حق الهدف الصليبي ، وهو ما يعرضه لنقمة المسيحيين جميعا . لذلك حضر إلى دمياط في أوائل يوليو في الوقت الذي شرع الصليبيون فعلا في الزحف جنوبا بمحاذاة نهر النيل في اتجاه قلب البلاد (٢٥) .

وفي تلك المرحلة الخطيرة فعل الأيوبيون كل ما أمكنهم لانقاذ مصر ، فجمعوا الناس ، وأقاموا خطا دفاعيا قبالة طلخا ، حيث شيد الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل ، أطلق عليها اسم « المنصورة » (٢٦) . وفي أواخر يوليو سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) اجتمع الاخوة الثلاثة — الكامل والمعظم والأشرف — في المنصورة ، على رأس

(٢٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٧ هـ ،

تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ص ٢٠٣ — ٢١٠ ،

D'Ohsson : Hist. des Mongols, I p. 216 f.

(25) Archer | The Crusades, p. 318.

(٢٦) تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، سنة ٦١٦ هـ ،

المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

جيوشهم استعدادا للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين . هذا مع ملاحظة أن الكامل استمر طوال تلك الاثناء يكرر عرضه على الصليبيين بالجلء عن مصر مقابل احياء مملكة بيت المقدس الصليبية ، بمعنى تسليمهم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة ، وجميع ما فتحه صلاح الدين من السطح الى الكرك والشوبك ، على أن يصلحوا ويسلموا دمياط . فأبوا ذلك ، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب سور القدس ، وقالوا : لا بد من تسليم الكرك والشوبك « (٢٧) . وكان أن واصل الصليبيون زحفهم وسط مثلث كبير ، تحيط به المياه من ثلاث جهات : هي بحيرة المنزلة شرقا ، وفرع دمياط غربا ، والبحر الصغير — أو أشموم طنح — جنوبا .

على أن السفن الاسلامية حرصت على أن تتخذ مكانها في النيل لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين أثناء زحفهم بقاعدتهم في دمياط (٢٨) . وهكذا حتى وصل الصليبيون الى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشموم طنح) من فرع دمياط ، وهي المنطقة التي تمثل رأس مثلث يحيط به الماء من ثلاث جهات ، فقطع المسلمون السدود في الوقت الذي كان نهر النيل ملئاً بماء الفيضان . ولم يشعر الصليبيون الا وقد غاصت سيقاتهم وسيقان خيولهم في الوحل ، بعد أن غرقت الارض تحت أقدامهم بالماء ، بحيث لم يتبق أمامهم سوى ممر ضيق يمكنهم العودة عن طريقه الى دمياط (٢٩) .

(٢٧) تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ص ٢١١ ، حوادث سنة ٦١٨ هـ .
(٢٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤١ .
(٢٩) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ،
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٦ سنة ٦١٨ هـ ، تحقيق
حسين محمد ربيع .

قتل الصليبيين وجلأؤهم عن دمياط :

وكان أن تتبعه الصليبيون الى خطورة موقفهم ، فأرادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط ، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل خلفهم عند شارمساح — شمالى شربين — ألفى فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة . وهكذا تجمد الموقف بالنسبة للصليبيين ، وأحاطت بهم المياه من كل جانب ، فلا هم يستطيعون القتال ، ولا هم يستطيعون العودة الى قاعدتهم دمياط . ولم يبق أمامهم الا طلب الصلح من السلطان الكامل في أواخر أغسطس سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) . ومن الواضح أن موقف الصليبيين كان عندئذ جد خطير ، لأنه لو صبر انكامل يومين « لأخذ برقابهم »^(٣٠) . لذلك عارض المعظم والاشرف في اجابة الصليبيين الى طلبهم . ولكن الكامل — الذى اشتهر بتسامحه — رأى السماح للصليبيين بالخروج من مصر ، لأنه كان يخشى وصول حملة صليبية من الغرب . على أن الكامل اشترط على الصليبيين أن يبعثوا اليه برهائن من ملوكهم ييقون لديه حتى يسلموا دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك ، وأرسلوا الى الكامل عشرين من كبارائهم على رأسهم حنا دى برين والندوب البابوى بلاجيوس ، في حين أرسل اليهم الكامل — مقابل ذلك — ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه^(٣١) .

وأخيرا تم جلاء الصليبيين عن دمياط في ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) فدخلها الملك الكامل في اليوم التالى . وكان أن أبحر الصليبيون الغربيون عائدين الى أوروبا ، في حين اتجه حنا دى برين ورجاله الى الشام بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين مداها ثمان سنوات (١٢٢١ — ١٢٢٩ م / ٦١٨ — ٦٢٦ هـ) .

(٣٠) قيل كتاب الروضتين سنة ٦١٨ هـ ،

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .

(٣١) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية الخامسة بالفشل ، بعد أن
أوشكت في بعض مراحلها على النجاح ، وأضاع الصليبيون من أيديهم
فرصة احياء مملكة بيت المقدس واسترداد مدينة القدس ذاتها مقابل
الجلء عن دمياط ، فاضطروا في النهاية الى الجلاء عن دمياط
بلا مقابل (٣٢) .

(٣٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ .
م ٧ — الأيوبيون والملوك)

الفصل السادس

السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى

الخلاف بين أبناء العادل :

أظهر أبناء العادل الثلاثة — الكامل محمد والمعظم عيسى والأشرف موسى — تضامنا قريبا بعد وفاة أبيهم . والى ذلك التضامن يرجع الفضل فى التغلب على خطر الحملة الصليبية الخامسة التى هددت مصر . على أن هذا التحالف لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ وأوائل سنة ١٢٢٤ م (٦٢٠ — ٦٢١ هـ) نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه (١) . ذلك أن المعظم عيسى أراد أن يتوسع ويضيف المزيد الى أملاكه . ولكنه بدلا من أن يتوسع على حساب الصليبيين بالشام ، لجأ الى العدوان على ممتلكات أخويه وأقاربه . من ذلك أنه هاجم حماة واستولى على بعض أعمالها ، مثل المعرة وسلمية . وكانت حماة وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، فغضب الأشرف موسى والكامل محمد لذلك ، وأرسل الكامل الى أخيه المعظم عيسى يطلب منه الرجوع عن حماة وأعمالها ، فرحل المعظم « بأمر الكامل صاحب مصر والأشرف » (٢) على أن المعظم « تركها وهو حنق » ، مما فتح باب الخلاف بين المعظم من ناحية وأخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى (١٢٢٣ م / ٦٢٠ هـ) .

والواقع ان ملوك بنى أيوب كانوا فى ذلك الوقت أحوج الى الاتحاد

(١) ابن العديم : زبدة الحطب ، ج ٢ ص ١٩٢ وما بعدها (تحقيقى ساسى الدهان) .

(٢) تاريخ ابن الوردى (تنمة المختصر فى أخبار البشر) ج ٢ ص ٢١٤ حوادث سنة ٦٢٠ هـ .

منهم في أي وقت منذ وفاة مؤسس الدولة الايوبية ،
صلاح الدين^(٣) .

ذلك أن خطرا جديدا — هو خطر الخوارزمية — لاح في الافق عندئذ ،
وهدد منطقة الشرق الأدنى بأجمعها . وقد ظهر هذا الخطر، نتيجة مباشرة
لحركة توسع التتار ، بعد أن دمر جنكيزخان دولة الأتراك الخوارزمية
سنة ١٢٢٠ — ١٢٢١ م (٦١٧ — ٦١٨ هـ) . وكانت الهزيمة قد حلت
بعلاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، فاضطر الى الفرار الى طبرستان
حيث توفي ، وخلفه ابنه جلال الدين منكبرتي الذي أقام في غزنة على
رأس ستين ألفا من فلول عسكر أبيه . ولكن جنكيز خان لاحقه ، ففر
جلال الدين ومعه رجاله الى بلاد الهند ، في حين ملك التتار غزنة
« وقتلوا أهلها ، ونهبوا وسبوا الحريم ، ولم يبقوا على أحد ، ثم
أحرقوها [كأن لم تغن بالأمس] »^(٤) .

على أن السلطان جلال الدين منكبرتي ما كاد يعلم بعسودة
جنكيزخان الي قراقورم في جوف قارة آسيا ، حتى رجع الي فارس حيث
التفت حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، وبذلك أحيا الدولة الخوارزمية
مرة أرى . ، متخذاً أصفهان عاصمة له . وبدلا من أن يعمل جلال الدين
في ذلك الدور على حماية العالم الاسلامي من خطر التتار الوثنيين ،
قام — وهو الحاكم المسلم — بمهاجمة الخليفة العباسي في العراق ،
وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥ م (٦٢٢ هـ) . وبعد ذلك
اتجه جلال الدين لمهاجمة اقليم جورجيا — على مقربة من ممتلكات
الملك الاشراف موسى بن العادل الايوبي — الأمر الذي جعل الاشراف

(٢) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٤) ابن واصل : مخرج الكروب ، ج ٤ ص ١٦٢ سنة ٦١٦ هـ (تحقيق حسن بن محمد ربيع ، تاريخ ابن الوردي ، ص ٢٠٥ وما بعدها
سنة ٦١٦ هـ) تحقيق أحمد رفعت البدرأوى .

يهرع الى دمشق طالبا معونة أخيه المعظم عيسى^(٥) .

ومن الواضح أن الاشراف كان أكثر احساسا بخطر الخوارزمية ، بحكم متاخمة بلاده في الجزيرة وخالط لهم . ولكن المعظم لم يأبه للخطر الخارجى ، وكان كل ما يعنيه هو تحقيق أطماعه على حساب اخوته وأهل بيته ، فانتهاز فرصة مجيء الاشراف اليه وقبض عليه ، ولم يطلق سراحه الا بعد أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة ، ثم في مهاجمة أخيهما الثالث — الكامل محمد — في مصر . وقد تعهد الأشراف موسى بكل ذلك ، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم ، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بكل ما حدث^(٦) .

على أن وجه الخطورة في النزاع الذى قام عندئذ بين أبناء العادل ، هو أن الفريقين المتنازعين استعانوا بقوى خارجية ، فاستجد الملك المعظم عيسى بالخوارزمية في حين استجد الملك كامل محمد بالامبراطور غردريك الثانى صاحب مسقلية وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوروبا . وكان أن حاصر السلطان جلال الدين منكبرتى خلائط — مقر مملكة الأشراف موسى — في يوميو ١٢٢٦ م (٦٢٣ هـ) ، كما أرسل جلال الدين الى المعظم « خلعة لبسها وثق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل »^(٧) . وعندما بلغت هذه الاخبار مسامع السلطان الكامل أخذ

(٥) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٢١٥ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) ،

D'Ohsson : Hist. des Mongols. III, pp. 5 — 19.

(٦) تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ (سنة ٦٢٣ — ٦٢٤ هـ) ،

العينى : عقد الجمان — حوادث سنة ٦٢٤ هـ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٠٥ (سنة ٦٢٤) .

(٧) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ (تحقيق

محمد مصطفى زيادة) .

يستعد للحرب ، مما أنذر باشتعال الموقف في العالم الاسلامى
(سبتمبر ١٢٢٧ م / ٦٢٤ هـ) .

الكامل وفرديك الثانى :

عندما علم الملك الكامل انتماء أخيه المعظم « الى سلطان العجم
جلال الدين بن خوارزم شاه ، خاف أن يكون اتفاقهما سبباً لزوال
الدولة »^(٨) ، فاستنجد بالامبراطور فرديك الثانى — كما ذكرنا —
وتعهد له مقابل مساعدته أن « يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح
صلاح الدين بالساحل »^(٩) . وكان مبعوث الكامل الى الامبراطور هو
شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين يوسف ، الذى أحسن الامبراطور
استقباله فى صقلية ، ورد على السلطان الملك الكامل بسفارة مماثلة ،
تحمل « هدية سنوية وتحف غريبة » . وكان أن تلقى الكامل هدية
الامبراطور بالسروور البائع ، وأحسن استقبال السفير « وأكرمه اكراما
زائداً » . وفى طريق عودة سفارة الامبراطور الى صقلية ، مرت بدمشق
لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للامبراطور ، ولكن المعظم أساء
استقبال السفير « وأغلظ له ، وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ،
وما له عندى سوى السيف »^(١٠) .

والواقع ان استتجاد السلطان الكامل لم يكن الدافع الوحيد الذى
حرك فرديك الثانى للذهاب الى الشام ، وانما كانت البابوية تضغط
عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة تصحح الأوضاع التى
نجمت عن فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر . والمعروف أن

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٠٦ (تحقيق حسنين
محمد ربيع) .

(٩) العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٢٤ هـ (مخطوط) ، المقرئى ،
السلوك ، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ وفى مفرج الكروب لابن واصل « ووعده
ان يعطيه البيت المقدس وبعض الفتوح الناصرى » .

(١٠) العينى : عقد الجمان (حوادث سنة ٦٢٤ هـ) .

تلك الحقبة تعرف في التاريخ الاوربي باسم « عصر البابوية والامبراطورية » ، نظرا لما شهدته من احتدام الخلاف واشتداد الصراع بين السلطتين الدينية — وعلى رأسها البابا — والعلمانية — وعلى رأسها الامبراطور — في غرب أوروبا . وقد وعد الامبراطور فردريك الثانى بتنفيذ رغبة البابا في القيام بحملة صليبية فعلا ، ولكن يبدو أنه كان متخوفا من أن يعتدى البابا على حقوقه وممتلكاته أثناء غيابه في الشرق ، ولذا أخذ يماطل البابوية ، ويؤجل مشروعه الصليبي مرة بعد أخرى ، حتى ضاق البابا ذرعا ، فأصدر جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الامبراطور في أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) (١١) .

وكان هجوم البابوية على فردريك الثانى عنيفا في تلك المرة ، فاضطر الامبراطور الى الازعان ، وقرر القيام بحملته الصليبية ، فغادر صقلية في يونيو ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) قاصدا بلاد الشام ، معتمدا على وعود صديقه السلطان الكامل الذى مناه ببيت المقدس « وبعض الفتوح الناصى » أى فتوح الناصر صلاح الدين ، وما كان قد استولى عليه من الصليبيين .

ويجمع المؤرخون على أن هذه الحملة التى عرفت بالسادسة ، كانت أغرب واحدة في سلسلة الحملات الصليبية قاطبة . فاذا كانت الحملات الصليبية الاخرى قد حظيت بعطف البابوية وتمتعت ببركتها ، فان حملة فردريك الثانى حلت بها لعنة البابوية وكان على رأسها امبراطور محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها . واذا كانت بقية الحملات الصليبية قد حرصت على أن تجيش الجيوش وتجمع الآلاف من المقاتلين والمتطوعين لمحاربة المسلمين ، فان الامبراطور فردريك الثانى أتى الى الشام وليس معه سوى خمسمائة فارس . واذا كان قادة الحملات الصليبية وزعماءها قد غادروا الغرب الاوربي قاصدين بلاد المسلمين وقد امتلأت صدورهم بمشاعر الحقد والكراهية للمسلمين . فان الحملة الصليبية

(11) Kantorowicz : Fredrick the Second , p. 111.

السادسة تزعمها امبراطور شب في بيئة كانت مركزا مزدهرا للحضارة الاسلامية ، فتشرب حب المسلمين وحضارتهم منذ طفولته ، مما جعل حملته تتسم بمسحة واضحة من الحب والتسامح (١٢) .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثاني أتى الى الشام ليفاوض لا ليحارب ، حتى أن أحد المؤرخين علق على حملته بأنه غادر أوروبا ليقوم بنزعة جميلة في الشرق يزور فيها سلطان مصر (١٣) . وكما سبق أن أشرنا ، فإنه خرج الى بلاد الشام معتمدا على وعود السلطان الكامل له باعطائه بيت المقدس مقابل ما يقدمه له الامبراطور من مساعدات « بشغل سر أخيه المعظم » (١٤) . على أن فردريك الثاني لم يعتمد على وعود السلطان الكامل وحده ، وإنما قام — قبل مغادرته الغرب — باجراء اتصالات واسعة مع عدد آخر من أمراء البيت الايوبى بالشام ، وذلك لاعداد المناخ المناسب لرد بيت المقدس الى الصليبيين . ونستدل على ذلك من رسالة أوردها القلقشندى ، وهي عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد — أحد أمراء بنى أيوب بالشام (١٥) — الى الامبراطور فردريك الثاني ، ردا على رسالة كان الامبراطور قد بعث بها الى ذلك الملك الايوبى . وفي الفقرة الاخيرة من رسالته ، يقول الملك الجواد « وأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الكاملى الناصرى (١٦) . . . من أنه لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المتفق فى صدق عهده وخالص

(١٢) سعيد عاشور : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١١١ وما بعدها . (جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٧) .

(١٣) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 281.

(١٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(١٥) هو الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب — انظر (ابن خلكان — وفيات الاعيان — ج ٥ ، ص ٨٣ — تحقيق احسان عباس) .

(١٦) كانت كنية السلطان الكامل هي « الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد) .

وده ٠٠٠» (١٧) . ونخرج من هذه الرسالة بنتيجتين هامتين : الاولى
هى أن مراسلات فردريك الثانى قبل شروعه فى حملته الصليبية لم
تقتصر على الكامل وحده ، وانما امتدت الى غيره من ملوك بنى أيوب .
والنتيجة الثانية هى أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والصدقة ،
حتى أن السلطان الكامل أرسل الى فردريك الثانى يخبره بعدم وجسود
فرق بين الملكين . وتعتبر هذه الروح ظاهرة فريدة فى عصر الحروب
الصليبية .

فردريك الثانى فى الشام :

على أن الامبراطور فردريك الثانى لم يكد يصل الى عكا فى سبتمبر
سنة ١٢٢٨ م / ٦٢٥ هـ حتى وجد الأمور على غير ما كان يشتهي .
ذلك أن البابا — للمرة الاولى والاخيرة فى تاريخ البابوية والحركة
الصليبية — أرسل سرا الى ملوك المسلمين فى مصر والشام — تعنى
ملوك بنى أيوب بوجه عام والسلطان الكامل بوجه خاص — مرضاً
اياهم على عدم اعطاء الامبراطور فردريك بيت المقدس ، حتى لا يكون
ذلك سلاحاً يشهره فى وجه البابوية ويعتمد عليه فى دعم سلطته فى
الغرب الاوربى . وهكذا أثبتت الاحداث أن المعركة بين البابوية
والامبراطورية كانت فى نظر البابا أهم بكثير من المعركة بين الصليبيين
والمسلمين فى بلاد الشام (١٨) .

ومن ناحية أخرى ، فانه اذا كان فردريك الثانى قد أتى الى الشام
معتداً على وعود السلطان الكامل باعطائه بيت المقدس ، فانه عند
وصوله الى الشام صدم وانهارت آماله بسبب التغيير المفاجىء فى سياسة
السلطان الكامل . ذلك أن المعظم عيسى صاحب دمشق — الذى كانت
أطماعه هى السبب فى استتجاد السلطان الكامل بالامبراطور فردريك —

(١٧) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ١١٧ — ١١٨ .

(١٨) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٣٩٦

وما بعدها (الطبعة الرابعة) .

كان قد توفي في أواخر سنة ١٢٢٧ م / ٦٢٤ هـ تاركاً ابنه الناصر داود يخلفه في ملكه . وكان الناصر داود عند وفاة أبيه شاباً في العشرين من عمره ، محباً للهو عديم الخبرة ، مما هياً للكامل محمد والاشرف موسى فرصة طيبة لاقتسام ممتلكات أخيهما المتوفى المعظم عيسى . أما الناصر داود فقد منحه عمه الكرك والشوبك وغيرهما من الجهات الثانوية^(١٩) . وهكذا استقرت الأوضاع وهدأت بين أبناء البيت الايوبى ، ولم يعد انسلطان الكامل في حاجة الى معونة الامبراطور الوافد من الغرب .

ويصور لنا المؤرخون المعاصرون حيرة السلطان الكامل في ذلك الوقت ، إلا زفرديك الثانى لم يحضر الى الشام الا بناء على طلب السلطان . وفي ذلك يقول المؤرخ ابن واصل - ومن بعده المقرئى - :
: تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربتة ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه^(٢٠) . ويبدو أن الكامل أحس بأن ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الايوبى أن يصطدم بالصليبيين بالشام في تلك المرحلة التي شهدت تعرض الوطن الاسلامى في الشرق الاوسط لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم التتر ، ولذا حرص على ملاطفة الامبراطور . ومن ناحية أخرى أدرك الكامل أن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط في حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام في العالم الاسلامى ، وبخاصة في دمشق التي كانت أكثر احساساً من غيرها بالخطر الصليبي^(٢١) .

ومهما يكن من أمر ، فان موقف فرديك ساء في الشرق . ذلك أنه

(١٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٥ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ (تحقيق حسنين محمد ربيع) ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٢٢٩ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

Grousset : Op. cit. III; p. 300.

خرج من بلاده محروما من الكنييسة ، مغضوبا عليه من البابوية ، معتمدا على وعود السلطان الكامل باعطائه بيت المقدس مما يضمن له تصحيح مركزه في الغرب الاوربي . ولو كان الامبراطور يعلم أن السلطان الكامل سينكث بوعده لما خرج الى الشرق أصلا ، أو لكان قد استعد استعدادا جديا لمحاربة المسلمين ، ولاصطحب معه جيشا كبيرا يضاهي الحملات الصليبية السابقة التي خرجت من الغرب الاوربي .

وهكذا لم يتبق لفرديريك الثانى سوى سلاح واحد ، هو سلاح المفاوضة والاستعطاف ، واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية لتحقيق غرضه ، حتى يعود الى الغرب الاوربي مرفوع الرأس ، منتصرا على البابوية . لذلك بادر فرديريك الثانى بارسال بعثة من رسولين الى السلطان الكامل ، تحمل له هدايا نفيسة — من منسوجات حريرية وأوان ذهبية وفضية — مطالبيا اياه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس للامبراطور . غير أن الكامل تنكر لوعوده ، وأعلنها في صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للامبراطور ثمنا للمساعدة التي يحصل عليها منه . أما وقد تبدل الموقف ، ولم يعد السلطان في حاجة الى تلك المساعدة . فإنه لا يستطيع التفريط في بيت المقدس^(٣٣) .

ولم تفلح جهود الامير فخر الدين يوسف — مندوب السلطان — في التوصل الى حل بين الطرفين ، فساء موقف فرديريك الثانى ، لا سيما بعد أن وصلتته أخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابة واعتدى على ممتلكاته . ولعل هذه الاخبار في حد ذاتها كانت كافية لدفع فرديريك الثانى الى التذلل للسلطان الكامل ، حتى حكى عنه أنه كان يبكى بكاء مرا في مراحل المفاوضات^(٣٣) . ويبدو ذلك من خلال رسالة أرسلها الامبراطور فرديريك الى السلطان الكامل أثناء المفاوضات ، جاء

(٢٢) سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ،
البحث السادس ، ص ١١١ .

Kantorowicz : Fredreck the Second; p. 185.

(٢٣)

فيها « أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لى عما تأمره خروج • وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر • وقد علم اليابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فان رجعت خاييا انكسرت حرمتى بينهم • وهذا القدس هى أصل اعتقادهم وضجرهم •• فان رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر ••• » (٢٤) •

استيلاء الصليبيين على بيت المقدس :

ولم تلبث هذه الاستعطافات أن أثرت فى نفس السلطان الكامل — وهو الرجل الذى عرف بتسامحه المفرط — فوافق على اعطاء فردريك بيت المقدس لقمة سائغة دون حرب أو قتال • ويبدو أن استعطاف الامبراطور وتذللته للسلطان كان مصحوبا بقدر من الأصرار على ضرورة وفاء السلطان بما كان قد تم الاتفاق عليه • ويوضح هذه الحقيقة المؤرخ ابن واصل عندما يقول : « وأبى ملك الفرنج أن يرجع الى بلاده الا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس اليه وبعض الفتوح انصلاحي » (٢٥) • يضاف الى ذلك أنه رغم تذلل الامبراطور ، فانه لجأ الى التلويح بالقوة ، فقام بتحسين يافا ، مما جعل السلطان الكامل يخشى حدوث تحالف بين فردريك وبقية القوى الصليبية فى بلاد الشام للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين • وفى تلك المرحلة بالذات كان السلطان الكامل غير مستعد لفتح جبهة جديدة لأن ذلك معناه وقوعه بين ثلاثة أعداء : ابن أخيه الناصر داود من ناحية ، والصليبيين من ناحية ثانية : والخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود من ناحية ثالثة •

وهكذا رضخ السلطان الكامل لمطلب الامبراطور ، لأنه « خاف من

(٢٤) المكتبة الصقلية ، ج ٢ ، ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات •)

(٢٥) ابن واصل : مرجع الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ — حوادث سنة ٦٢٦ هـ (تحقيق حسن بن محمد ربيع) •

غائلته عجزا عن مقاومته « على قول المقریزی (٢٦) . وتحت تأثير الامير فخر الدين يوسف ، وافق الكامل على عقد اتفاقية يافا مع الامبراطور فردريك الثاني في فبراير ١٢٢٩ م / ٦٢٦ هـ . وبمقتضى هذه الاتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرية وتبنين وصيدا . وتكون لهم القرى على الطريق من عكا الى القدس فقط . وبخصوص بيت المقدس انترط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هي عليه ، فلا يجدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الاقصى بأيدي المسلمين ، وتقام فيه شعائر الاسلام (٢٧) .

وكان أن آثار استيلاء الصليبيين على بيت المقدس موجة عامة من السخط والاسى في العالم الاسلامى ، « فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لم يمكن وصفه » (٢٨) . ويفصل المقریزی مدى الالاسى الذى حل بالمسلمين لضياغ بيت المقدس فيقول ، : « فاشتد انبكاء وعظم الصراخ والعيويل . . . وعظم على أهل الاسلام هذا البلاء . واشتد الانكار على الملك الكامل ، وكثرت الثناعات عليه في سائر الأقطبار . . . » (٢٩) .

(٢٦) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٢٢٠ . (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٢٧) العيني : عقد الجيئن ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ (مخطوط) ، ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ ، ابن واصل : مخرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٤١ ، ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٢ ص ١٤١ (سنة ٦٢٦ هـ) ، تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ (سنة ٦٢٦ هـ) ، ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ (تحقيق المؤلف) .

(٢٨) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٦ هـ .

(٢٩) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ . أما ابن واصل فيقول انه عند تسليم القدس للفرنج « وقع في أهل القدس الضجيج والنبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ، وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه » - مخرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٤٣ .

وسرعان ما أحس الكامل بأنه تورط مع ملك الفرنج - على قول المقریزی - فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ، وبرر مسلكه بأعذار لم يقبلها معاصروه . بل ان الامبراطور فردريك الثانى نفسه أحس بما سببته تلك الاتفاقية للسلطان من حرج « فاعتذر . للامير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك ... » (٣٠) .

ومهما يكن من أمر ، فان الصليبيين استولوا على بيت المقدس بسهولة تامة ، وهى المدينة التى أجهد صلاح الدين ورجاله أنفسهم فى استردادها ، فدخلها فردريك الثانى فى ١٩ مارس ١٢٢٩ م / ٦٢٧ هـ ليتوج نفسه امبراطورا فى كنيسة القيامة . ثم عاد الى عكا ، ومنها انصرف بعد قليل عائدا الى غرب أوروبا (٣١) .

جمود الايوبيين تجاه الصليبيين بالشام :

مر الصليبيون عقب عودة الامبراطور فردريك الثانى الى غرب أوروبا بدور طويل من الضعف والانحلال ، بسبب ما نشأ بينهم وبين بعض من خلفات ومنازعات (٣٢) . أما الايوبيون فقد اعتراهم أيضا التمزق والضعف والانحلال فى تلك الفترة - أى فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر للميلاد . السابع الهجرى - الأمر الذى أدى الى جمودهم أمام الصليبيين . وعدم محاولتهم استغلال سوء أوضاع الصليبيين بالشام للقضاء على البقايا الصليبية فى الشرق . وأقل ما كان ينتظر من ملوك بنى أيوب فى ذلك الدور هو محاولة استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، لا سيما وأن المدينة بقيت فى أيديهم غير محصنة ، خربة الأسوار ، دون جيش صليبي يحميها ويدافع عنها (٣٣) .

(٣٠) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٣١) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 314.

(٣٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٠٠ .

(الطبعة الرابعة ، ١٩٦٨) .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٨٠٧ .

وربما كان السبب في حرص الايوبيين على عدم اثاره حرب مع الصليبيين بالشام في ذلك الدور ، تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي . ذلك أن الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية في بغداد ، بل دأبوا على محاكاة التتر في تدميرهم المدن والقرى ، وتخريب البلاد ، وقتل العباد ، على امتداد الطرق التي يسلكونها ، حتى لو كانت تلك البلاد من بلاد الاسلام . ولم يكن السلطان الكامل محمد وأخوه الملك الأشرف موسى مبالغين في مخاوفهما من الخوارزمية ، اذ نجح جلال الدين الخوارزمي في الاستيلاء على خلاط في ابريل سنة ١٢٣٠ م / ٦٢٧ هـ بعد حصار ستة أشهر ، وعندئذ اقتحم الخوارزمية المدينة ، ووضع خوارزمشاه « السيف في أهلها ، وسبى النساء والصبيان »^(٣٤) ويقال انه كان من جملة الاسرى زوجة الملك الأشرف موسى ، فانتهك السلطان جلال الدين منكبرتي عرضها في نفس الليلة التي استولى فيها على المدينة^(٣٥) .

وكان أن أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين في البلدان المجاورة ، فقتاسوا ما بينهم وبين بعض من خصومات لمواجهة ذلك الخطر ، وتحالف الايوبيون مع عدوهم السابق كيقباز الاول - سلطان سلاجقة الروم - ضد جلال الدين انخوارزمي . وتم اجتماع قوات الايوبيين تحت زعامة الملك الأشرف موسى مع قوات سلاجقة الروم تحت قيادة كيقباز في سيواس ، ومنها زحف الحلفاء على خلاط . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين قرب أرزنجان في أغسطس سنة ١٢٣٠ م / ٦٢٧ هـ حلت الهزيمة ساحقة بالخوارزمية وفر سلطانهم جلال الدين

(٣٤) ابن العميد : زبدة الطلبي من تاريخ حلب - ج ٢ ص ٢٠٨
(تحقيق سامي الدهان) .
(٣٥) ابن ابيك : كنز الدرر وجامع الغرر - الجزء السابع المسمى
الدر المطلوب في اخبار ملوك بني ايوب ، ص ٢٩٩ (تحقيق المؤلف ،
القاهرة ١٩٧٢ .

الى أذربيجان بعد أن فقد كثيرا من رجاله (٣٦) .

وهكذا استرد الأشرف موسى خلاط ، وتم الصلح بغد قليل بينه وبين جلال الدين خوارزمشاه . ولم يلبث أن قتل جلال الدين بأيدي بعض الأكراد سنة ١٢٣١ م / ٦٢٩ هـ ، وعندئذ تمزقت دولته ، وهامت جموع الخوارزمية في عديد من بلاد الشرق الأدنى ، يعرضون خدماتهم على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين (٣٧) .

ومع ذلك ، فان الايوبيين في الشام ومصر ظلوا عندئذ في حالة خوف وقلق ، لأن الخطر الذي هددهم في تلك الحقبة لم يكن خطر الخوارزمية فحسب ، وانما كان من وراء هؤلاء التتار بجحافلهم وعنفهم . ولم يلبث التتار أن استولوا على ممتلكات الخوارزمية ، وبذلك غدت الخطوة التالية أمامهم هي غزو العراق ، ثم ممتلكات الايوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى (٣٨) .

وكان المفروض أمام ذلك الخطر أن يتحالف الايوبيون مع سلاجقة آسيا الصغرى لصد المغول ، مثلما تحالفوا من قبل ضد جلال الدين الخوارزمي ، ولكن علاء الدين كيقباز الاول - سلطان سلاجقة الروم (١٢١٩ - ١٢٣٧ م / ٦١٦ - ٦٣٤ هـ) - أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين لمنازعة الايوبيين ملكية خلاط والرها وهران (٣٩) . وعندما أدرك السلطان الكامل حقيقة نوايا السلاجقة ، جمع حوله القوى الايوبية في الشام وزحف لمنازلة السلاجقة في آسيا الصغرى سنة ١٢٣٤ م / ٦٣١ هـ . على أن ملوك بنى أيوب عادوا

(٣٦) ابن المديم : زبذة الطلب من تاريخ حلب ، ج ٣ ص ٢٠٩ (تحقيق سامى الدهان) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٧٣ .

(٣٧) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٢ ص ١٥١ .

(٣٨) D'Ohsson : Hist. des Mongols, III, p. 62.

(٣٩) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ١٢٧ .

وتخوفوا من ازدياد نفوذ السلطان الكامل ، وخشوا ان هو نجح في السيطرة على سلاجقة الروم أن يتمكن من القضاء عليهم جميعا . لذلك تأمروا على السلطان الكامل ، وأرسلوا في الخفاء الى علاء الدين سلطان سلاجقة الروم يؤكدون وقوفهم الى جانبه ضد الكامل . وهكذا انتهى الموقف بعودة الكامل من حيث أتى ، في حين احتل السلاجقة حران وخراسان والرها سنة ١٢٣٥ م (٦٣٢ هـ) (٤٠) .

(٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٨٧ ، ٩٨ (سنة ٦٣٢ هـ)

(م ٨ — الأيوبيون والملوك)

تحقيق حسنين محمد ربيع .

الفصل السابع

الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع

نهاية السلطان الكامل وقيام الصالح أيوب :

لم يقتصر الانقسام في صفوف المسلمين في منطقة الشرق الأدنى في الربع الثاني من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع الهجري) على ما حدث من عدااء بين سلاجقة الروم والايوبيين ، بل ان البيت الايوبي نفسه لم يلبث أن انقسم على نفسه ، فانشق الملك الاشرف موسى صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان الكامل محمد صاحب مصر ، وأخذ يدبر ثورة شاملة ضده مستعينا في ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص^(١) ، وضييفة خاتون الوصية على حلب^(٢) ولكن القدر نساء أن يموت الملك الاشرف موسى في أواخر أغسطس سنة ١٢٣٧ م (٦٣٥ هـ) قبل أن تشتعل نار الحرب الأهلية فعلا بين ملوك البيت الايوبي^(٣) .

وكان الاشرف موسى قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه في ملك دمشق أخوه الملك الصالح اسماعيل صاحب بصرى . ولم يكد الملك الصالح اسماعيل يتسلم زمام الامور في دمشق حتى أعاد تكوين الحلف المضاد للسلطان الكامل محمد ، فاتصد بالمجاهد شيركوه صاحب

(١) هو الملك المجاهد اسد الدين شيركوه صاحب حمص المتوفى سنة ٦٣٧ هـ بحمص . (وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٢ ص ٤٨٠ - ٤٨١ - تحقيق احسان عباس) .

(٢) ابنة الملك العادل الأيوبي ، ووالدة الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين - توفيت سنة ٦٤٠ هـ (أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٨) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٩٩ .

حمص ، والمظفر. تقى ادين محمود صاحب حماه ، وضييفة خاتون التي كانت « المرجع في الامور »^(٤) في حلب ، ليكونوا جميعا يدا واحدة ضد الكامل ، بحيث « يتفقون على منعه من النزول الى الشام ، وأن يقتصر على الديار المصرية »^(٥) .

وقد استجاب جميع ملوك الايوبيين بالشام لدعوة الصالح اسماعيل ما عدا المظفر محمود صاحب حماه ، والناصر داود صاحب الاردن والكرك . ولكن السلطان الكامل أسرع بالحضور من مصر ، فقفى على تلك الحركة وهي لا تزال في المهد ، وحاصر دمشق وقطع الماء عنها ، حتى وقعت في يده في أوائل سنة ١٢٣٨ م (٦٣٥ هـ) ، وعندئذ عاقب الصالح اسماعيل بعزله واعطائه اقطاعا صغيرا في بعلبك والبقاع^(٦) .

على أن السلطان الكامل نفسه توفى بعد قليل ، في مارس سنة ١٢٣٨ م (٦٣٥ هـ) . وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على مدحه ، فوصفه أبو الفدا بأنه كان « ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير »^(٧) . أما ابن واصل فيقول عنه انه « كان عظيم الهيبة . . . وكان يباشر الامور بنفسه . . . وكان محبا للعلماء ومجالستهم وبسماع مناظراتهم . . . »^(٨) . ولا شك في أن وفاة الكامل الايوبى في ذلك الوقت جاءت نذيرا بتفكك الدولة الايوبية وانهارها . حقيقة أن ابنه العادل النصير (الثانى) سيف الدين أبا بكر خلفه في الحكم ، وصارت له

(٤) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٢١ - ١٢٢

(تحقيق حسنين محمد ربيع) .

(٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٢٥٧ (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

(٧) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٢ ص ١٦١ (حوادث

سنة ٦٣٥ هـ) .

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٥٦ - ١٥٨ .

السلطنة — أى السلطة العليا فى الدولة الايوبية — ولكن الاوضاع اضطربت فى بلاد الشام بعد أن اشتعلت الحرب بين المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، والمظفر (الثانى) تقى الدين محمود صاحب حماه ، فى حين استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب — ابن الكامل — على دمشق سنة ١٢٣٩ م (٦٣٦ هـ) ، مما أوقعه فى نزاع مع أخيه السلطان العادل الصغير^(٩) . وفى ذلك النزاع استعان كل طرف بأنصار من البيت الايوبى نفسه ، فاعتمد العادل الصغير على المجاهد شيركوه صاحب حمص ، واعتمد الصالح أيوب على المظفر تقى الدين صاحب حماه . هذا بالاضافة الى أن كل فريق استخدم جموعا من الخوارزمية المرتقة الذين تفرقوا فى البلاد المجاورة بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى .

ثم حدث فى نهاية سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) أن استطاع الصالح اسماعيل — عم العادل الصغير والصالح أيوب — أن يسترد دمشق التى كان أخوه السلطان الكامل قد طرده منها^(١٠) . وقد ظل الصالح اسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ — ١٢٤٥ م / ٦٣٧ — ٦٤٣ هـ) ، فى حين وقع الصالح أيوب فى قبضة الناصر داود صاحب الاردن والكرك ، حتى أطلق الاخير سراح الاول بعد أن اتفق معه على القيام بحملة على مصر لانتزاعها من العادل الصغير^(١١) . وكان كبار أمراء العادل الصغير قد استاءوا منه فى ذلك الوقت لتحجبه عنهم واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة ، فقبضوا عليه فى أواخر مايو سنة ١٢٤٥ م (٦٣٧ هـ) وعزلوه ، واستدعوا بدله أخاه الصالح

(٩) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ حوادث سنة ٦٣٥ هـ ، سنة ٦٣٦ هـ .

(١٠) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٦٤ (سنة ٦٣٧ هـ) .

(١١) ابن العديم : زبدة الطب من تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ (تحقيق سامى الدهان) .

نجم الدين أيوب - ابن الكامل - الذي دخل القاهرة ليصبح سلطانا
(١٢٤٠ - ١٢٤٩ م / ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) (١٢) .

الايوبيون والصليبيون :

وقعت بلاد الشام في حالة شديدة من الفوضى بسبب النزاع الذي اشتد بين الصالح أيوب وعمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وهو النزاع الذي شارك فيه كثير من ملوك البيت الايوبى في بلاد الشام ، مثل ملوك حمص وحماه والاردن . وزاد من تلك الفوضى أنها دبت في الوقت الذي تعرضت بلاد الشام لغزو جموع من الخوارزمية من ناحية ، وتهديد المغول الذين اقترب خطرهم من ناحية أخرى ، ثم وصول حملة صليبية جديدة الى ساحل الشام من ناحية ثالثة .

ذلك أنه حدث قبل أن ينتهى أمد الصلح الذي عقده السلطان الكامل مع الامبراطور فردريك الثانى أن دعت البابوية لحملة صليبية جديدة ، وصلت الى الشام في مطلع سبتمبر سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) وعلى رأسها ثيبوت الرابع أمير شامبنى . ويؤخذ على هذه الحملة أن زعماءها اختلفوا تماما الى المرونة السياسية التي ميزت ريتشارد قلب الاسد وفردريك الثانى . وهكذا لم يحاول ثيبوت الرابع استغلال المآزعات العنيفة الناشئة بين ملوك البيت الايوبى عندئذ ، واتبع سياسة جامدة أدت الى فشل حملته في نهاية الامر (١٣) .

وكان بيت المقدس لا يزال في قبضة الصليبيين منذ أن استرده الامبراطور فردريك الثانى . ولكن الناصر داود أسرع - عندما علم بنزول الصليبيين في عكا سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) باحتلال بيت المقدس ، بدعوى أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها ، وبذلك نقضوا شروط

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٦٥ وما بعدها

(تحقيق حسنين محمد ربيع) .

Grousset : Op. cit. : III p. 374.

(١٣)

الصلح مع المسلمين^(١٤) . ولاشك في أن استيلاء المسلمين على بيت المقدس عندئذ جاء صدمة قوية أصابت الصليبيين ، فأخذوا يتدبرون أمرهم ، حتى استقر رأيهم أخيرا على أن يتجهوا الى عسقلان للاستيلاء عليها وهدم تحصيناتها ، وبعد ذلك يقصدون دمشق بوصفها مركز الحركة الاسلامية في بلاد الشام^(١٥) .

وعندما اتجه الصليبيون من عكا الى عسقلان ، بادر العادل الصغير - الذى كان لا يزال سلطان مصر قبل عزله - بإرسال جيش أنزل هزيمة بالصليبيين قرب غزة في ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) ، وسبق كثير من أسراهم الى القاهرة^(١٦) .

ثم كان أن تمت في صيف سنة ١٢٤٠ م (٦٣٧ هـ) المؤامرة التى انتهت بعزل العادل الثانى من حكم مصر ، وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله فى السلطنة ، كما سبق أن ذكرنا ، وعندئذ استاء الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، لاسيما وأن الصالح أيوب أراد أن يرضى حليفه الناصر داود صاحب الكرك ، فاتفق الطرفان « على أن تكون النديار المصرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، والشام والشرق للملك الناصر (داود) »^(١٧) وتلفت الصالح اسماعيل حوله فلم يجد سوى الصليبيين ، فمد يده اليهم وطلب منهم مخالفته ضد الصالح أيوب فى مصر ، والناصر داود فى الاردن . وفى مقابل ذلك تعهد الصالح اسماعيل باعطاء الصليبيين بيت المقدس ، واعادة مملكة الصليبيين الى ما كانت عليه قديما ، بما فيها الاردن . ولكى يبرهن صاحب دمشق على صدق نواياه تجاه الصليبيين ، بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية

(١٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٧ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

(١٥) Stevenson : The Crusaders in the East; p. 317.

(١٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٢٩٢ (سنة ٦٣٧ هـ) ، ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or. V, p. 139)

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٥٩ .

وعسقلان ، فضلا عن عدد آخر من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين (١٨) .

وكان أن ثار الرأي العام في العالم الاسلامي في مصر والشام على الصالح اسماعيل مثلما ثار من قبل على السلطان الكامل . وقد رفضت حاميات بعض القلاع اطاعة الاوامر الصادرة اليها من الصالح اسماعيل ، فحضر بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون والقلاع التي وعد بتسليمها الى الصليبيين . أما الصليبيون فقد فرجوا لحصولهم على بيت المقدس مرة أخرى ، وحصنوا قلعتي طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعدادا للخطوة التالية . وعندئذ ودهم الصالح اسماعيل « بأنه اذا ملك مصر أعطاهم بعضها » ، فسال لعابهم لذلك ، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر (١٩) .

وتؤكد المصادر المعاصرة أن الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور ابراهيم الايوبي صاحب حمص (٢٠) ، حضرا على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبيين في غزوهم مصر . ولكن القوات الشامية التابعة للصالح اسماعيل والمنصور ابراهيم لم تقبل فكرة طعن اخوانهم المسلمين ، فلم تكد تصل هذه القوات الى غزة حتى انضمت الى العسكر المصري ، ليتعاون الجميع في ضرب الصليبيين . وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم عدد كبير ، وسيق الاسرى الى القاهرة ، في حين انسحب الباقون الى عسقلان حيث عقدوا صلحا مع الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) (٢١) .

(١٨) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٣ .

(١٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ .

(٢٠) خلف المنصور ابراهيم اباه المجاهد شيركوه (الثانى) فى حكم حمص سنة ١٢٤٠ م (٦٣٧ هـ) وظل يحكمها حتى سنة ١٢٤٦ م (٦٤٤ هـ) — زامبارو : معجم الانساب ج ١ ص ١٥٣ .

(٢١) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٣٤٤ (سنة ٦٣٨ هـ) تحقيق

المؤلف ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ (سنة ٦٣٨ هـ) Eracles, p. p. 418 - 420.

وإذا كانت هذه الحملة الفرنسية لم تستطع البقاء في بلاد الشام بعد ذلك ، وإنما غادرت عكا عائدة الى الغرب الاوربي في سبتمبر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) فان حملة أخرى جديدة وصلت الى عكا في الشهر التالي بقيادة ريتشارد دي كورنول ، أخى ملك انجلترا هنرى الثالث . على أنه يبدو أن هذه الحملة كانت صغيرة ، فلم تستطع القيام بعمل حربى هام في الشرق ، عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أى هجوم من ناحية مصر^(٢٢) . وبعد أن أتم ريتشارد تحصين عسقلان في مارس سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ هـ) ، أجاب الصالح أيوب الى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع . وبمقتضى هذه الاتفاقية اعترف الصالح أيوب للصليبيين بملكية الحصون التى آلت اليهم في فلسطين ، فضلا عن بيت المقدس . ولم يلبث أن قفل ريتشارد دي كورنول عائدا الى بلاده في مايو سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ هـ) ، تاركا خلفه الصليبيين ببلاد الشام غارقين في خلافاتهم الداخلية : مما أوقعهم في حروب أهلية ، بينهم وبين بعض^(٢٣) .

الخوارزمية واسترداد بيت المقدس :

لم يلبث أن دب النزاع مرة أخرى بين الصالح أيوب في مصر ، وعمه الصالح اسماعيل في دمشق . وساند الاخير الناصر داود في الاردن . وكان أن لجأ ملكا دمشق والاردن الى طلب مساعدة الفرنجة ، وعرضا عليهم مقابل تلك المساعدة أن يوافقا على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة ، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الاقصى وقبة الصخرة وغيرهما من الاماكن التى ظلت — ولو اسميا — في حوزة المسلمين وتحت اشرافهم

(٢٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٣٩ — ١٠٤٠

Grousset : Op. cit. ; III, p.p. 303 - 304.

(٢٣)

• منذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس (٢٤) .

ومن ناحية أخرى ، فإن الصالح أيوب عرض على الصليبيين في ذلك الوقت نفسه أن يحالفوه ضد ملكى دمشق والاردن مقابل نفس الثمن الذى عرضه هذان الملكان على الصليبيين . وهكذا يكون الملوك الايوبيين الثلاثة — الصالح أيوب والصالح اسماعيل والناصر داود — قد أقروا في تلك السنة (١٢٤٣ — ١٢٤٤ م / ٦٤١ هـ) مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف ووضع أيديهم على المقدسات الاسلامية في بيت المقدس . ويروى المؤرخ ابن واصل أنه مر ببيت المقدس عندئذ « فرأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة ، وعليها قفانى الخمر برسم القربان . ودخلت الجامع الاقصى وفيه جرس معلق . وأبطل بالحرم الشريف الاذان والاقامة » (٢٥) .

أما الصليبيون ، فيبدو أنهم اتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملكى الشام وسultan مصر ، وذلك ليحتفظوا بالمكاسب التى حققوها على حساب المسلمين جميعا دون عناء . على أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى فى هذه السياسة طويلا ، ولم يلبثوا أن أحسوا بأن الاوضاع تضطرهم الى الوقوف بجانب أحد الطرفين ضد الطرف الآخر . وكان أن انتصرت وجهة نظر الداوية الخاصة بمهاجمة مصر ، فاختر الصليبيون الوقوف الى جانب ملكى دمشق والاردن ، بوصفهما أقرب اليهم ، فضلا عن أن التحالف معهما يعنى كسب بعض ملوك الايوبيين فى شمال الشام ، مثل المنصور ابراهيم صاحب حمص (٢٦) . ولم يلبث هؤلاء الملوك الثلاثة — الصالح اسماعيل والناصر داود والمنصور

(٢٤) المقرئزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٥ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ (تحقيق حسنين محمد ربيع) .

Stevenson : The Crusaders in the East, p. 322. (٢٦)

ابراهيم — ، أن قرروا غزو مصر بمساعدة الصليبيين ، فحشدوا قواتهم عند غزة ، وقدموا للصليبيين وعودا كثيرة مقابل مشاركتهم في الهجوم على الصالح أيوب في مصر (٢٧) .

أما الصالح أيوب ، فلم يجد قوة يمكنها أن تسعفه اسعافا سريعا سوى الخوارزمية ، فاتصل بهم طالبا معونتهم ، الامر الذي ترتب عليه تحول الموقف تحولا سريعا في صالحه . ذلك أن دعوة الصالح أيوب ما كادت تصل الى الخوارزمية حتى رحبوا بتلك الفرصة التي أتاحت لهم منفذا لدخول بلاد الشام ، فاندفع منهم عشرة آلاف في اتجاه دمشق ، ولما وجدوا هذه المدينة قوية التحصين ، استولوا على طبرية ثم على نابلس ، ومنها اتجهوا صوب بيت المقدس (٢٨) .

وكانت بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ، ليس فيها ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها ، فاستنجد من فيها من الصليبيين بانخوانهم في أنطاكية وطرابلس ، فضلا عن ملك قبرس . ولكن أحدا من هذه الاطراف لم يتحرك لانقاذ الصليبيين في بيت المقدس ، اذ يبدو أن الجميع كانوا في شغل بمشاكلهم الخاصة . أما ملوك الايوبيين بالشام فكان لا يجرؤ أحدهم على التدخل لمنع الخوارزمية — وهم مسلمون — من الاستيلاء على بيت المقدس من الصليبيين ، والا تعرض لنقمة المسلمين جميعا (٢٩) .

وهكذا اقتحم الخوارزمية بيت المقدس في ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ م (٦٤٣ هـ) ، فاستولوا على المدينة في سهولة ، وعندئذ طلب من فيها من الصليبيين وساطة الناصر داود ملك الاردن لتأمين خروجهم ، فتوسط لهم ، وخرج منهم ستة آلاف قاصدين يافا ، وذلك في شهر

(٢٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٢٤ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

(٢٨) المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

Grousset : Op. cit. III, p. 412.

(٢٩)

أغسطس • على أن الخوارزمية لم يتركوهم في طريقهم آمنين ، وانما اعتدوا عليهم ، مثلما اعتدوا على كنيسة القيامة وغيرها من الاماكن المسيحية في بيت المقدس (٣٠) .

وكانت هذه آخر مرة يسترد فيها المسلمون بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية ، اذ لم يقدر لجيش غير اسلامي أن يقتحم هذه المدينة حتى الحرب العالمية الاولى .

الصالح أيوب وتوحيد الدولة الايوبية :

وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس من الصليبيين ، اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالعسكر الذي أرسله السلطان الصالح أيوب لمشاركتهم في ضرب قوات ملوك الشام ومن ناصرهم من الصليبيين الذين خططوا لغزو مصر (أكتوبر ١٢٤٤ م / ٦٤٢ هـ) • وكانت العساكر التي أرسلها الصالح أيوب بقيادة الامير ركن الدين بيبرس — وكان من أكبر مماليك الصالح أيوب — في حين كان مع عسكر الشام الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، ولم يحضر الملك الصالح اسماعيل أو الملك الناصر داود • وكان المنصور ابراهيم قد مر وهو في طريقه الى غزة بمدينة عكا — قاعدة مملكة الصليبيين — « فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ، ووعدهم بجزء من بلاد مصر ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل » (٣١) • ولكن الهزيمة حلت بالصليبيين « ومن انضم اليهم من منافق المسلمين » ،

(٣٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٣٧ (تحقيق حسنين محمد ربيع) ، ابن ايبيك : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٢٥٢ (تحقيق المؤلف) .

(٣١) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٧٢ (سنة ٦٤٢ هـ) والامير ركن الدين بيبرس هذا غير الامير ركن الدين بيبرس الذي اعطى عرش سلطنة المماليك بعد ذلك وتلقب بالظاهر . ولا يعدو الامر تطابقا في الاسم والكنية . (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢٢) .

حتى قدرت خسائر الصليبيين بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير ، بحيث
« لم يفلت منهم الا الشارد النادر » (٣٢) .

ولا شك في أن هذه كانت أفدح كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة
تطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، حتى أطلق المؤرخون عليها اسم
« حطين الثانية » (٣٣) . وكانت جموع الخوارزمية التي بفضلها تحقق
هذا النصر يأملون في أن يكافأهم الصالح أيوب بالسماح لهم
بالاستقرار في مصر . ولكن يبدو أنه تنكر لهم لأنه خشى ما يترتب
على دخولهم مصر من ضرر بالبلاد والعباد ، فلم يسمح لهم الا
بالاستقرار في بلاد الشام على حساب ما يستولون عليه من أراض
في حوزة الصليبيين . ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير
على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلت الى مشارف عكا .
أما العسكر المصرى ، فقد انفصل عن الخوارزمية بعد موقعة غزة ،
واتجه لمعاقبة صاحبى دمشق والكرك لتحالفهما مع الصليبيين وشروعهما
في غزو مصر . وقد نجح العسكر المصرى في الاستيلاء على القدس
والخليل وبيت جبريل والاغوار ، من الناصر داود صاحب الكرك الذى
لم يتبق له سوى مراكز قليلة الاهمية مثل الكرك وعجلون (٣٤) . ولم
تستطع دمشق مقاومة الحصار الذى فرضته عليها جيوش الصالح
أيوب ، وبدخلها صاحبها الصالح اسماعيل ومعه حليفه الملك المنصور
صاحب حمص . وكان أن استسلمت دمشق في أكتوبر سنة ١٢٤٥ م
(٦٤٣ هـ) ، فاستولى عليها الملك نجم الدين أيوب ، وهذا « هو
استيلاؤه الثانى عليها » (٣٥) . وقد عوض الصالح اسماعيل عن دمشق
ببعلبك وبصرى وأعمالهما (٣٦) .

(٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ،
المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٢١٧ ، ذيل الروضتين
(Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5 p. 193)
Grousset : Op. cit. III, p. 415. (٣٣)
(٣٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٨ .
(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ .
(٣٦) ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5 p. 193)

على أن الخوارزمية ظلوا في حالة استياء وقلق بعد أن تنكر لهم الصالح أيوب ، مما خيب آمالهم فيه . وقد حدث بعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق أن منع الخوارزمية من دخولها ، وأقطعهم الساحل « فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان » (٣٧) . وكان أن ثار الخوارزمية بالشام ، واتصلوا بالامير ركن الدين بيبرس - أحد قادة قوات الصالح أيوب وكانت أمه خوارزمية - وحسنوا له الانضمام اليهم في ثورتهم ، ففعل ذلك (٣٨) . وهكذا أتاحت الفرصة للناصر داود صاحب الكرك ، والصالح اسماعيل طريد دمشق ، فانضموا الى الثوار للانتقام من الصالح أيوب ، وزحفوا جميعا على دمشق وحاصروها . وعندئذ أظهر الصالح أيوب صبرا وثباتا ، فلجأ الى « أعمال الحيلة والتدبير » وبدأ باستمالة الحلبيين ، فضلا عن المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وتحايل حتى استحضر الامير ركن الدين بيبرس الى مصر حيث قبض عليه وأعدمه . وبفضل هذه الاجراءات تمكن الصالح أيوب من انزال الهزيمة بالخوارزمية - بين بعلبك وحمص - فتبدد شمل تلك الجموع ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك (٣٩) .

وبعد القضاء على جموع الخوارزمية بالشام ، اتجه صلاح الدين نحو الصليبيين ، فتمكنت جيوشه في ١٧ يونيو سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥ هـ) من انتزاع قلعة طبرية منهم ، ثم استولى على عسقلان في أكتوبر من العام نفسه ، وبذلك انحسرت حدود الصليبيين الى أبواب يافا (٤٠) .

وهكذا استعادت الدولة الايوبية وحدتها ، وصار السلطان الصالح أيوب يجمع في قبضته بين القاهر - ودمشق وبيت المقدس .

(٣٧) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

(٣٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٣٩) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ ، المعنى :

عقد الجمال ، حوادث ٦٤٥ هـ (مخطوط) .

وفي دمشق أقام السلطان في الفترة من نوفمبر سنة ١٢٤٨ حتى إبريل سنة ١٢٤٩ م (٦٤٦ - ٦٤٧ هـ) حيث وفد عليه ملك حماه المنصور (الثاني) سيف الدين محمد ، وملك حمص الأشرف مظفر الدين موسى (الثاني) ، وغيرهما من ملوك البيت الأيوبي بالشام ، لتقديم فروض الولاء والطلاعة . كذلك قام الصالح أيوب بزيارة مدينة بيت المقدس بعد أن عادت نهائيا إلى أحضان الدولة الإسلامية ، فقوى تحصيناتها ودعمها ، ووفد عليه فيها العديد من ملوك الشام يعبرون له عن ولائهم (٤١) .

الحملة الصليبية السابعة على مصر :

أحدث استيلاء المسلم بن علي بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) رد فعل عنيف في الغرب الأوربي المسيحي ، فقامت البابوية - كماداتها في أعقاب كل كارثة تحل بالصليبيين في الشرق - بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وكانت ظروف الغرب الأوربي عندئذ تحول دون تلبية كثير من ملوك أوروبا وأمرائها تلك الدعوة ، فلم يستجب لها إلا لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الرجل الذي اشتهر بالتقوى والورع ، حتى لقب بالقدّيس .

وفي الوقت الذي أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يواصل استعداداته لحملة الصليبية ، إذا بأخبار هذه الاستعدادات تتسرب إلى السلطان نجم الدين أيوب . ذلك أن الامبراطور فردريك الثاني الذي ظل مصادقا للسلطان الكامل - ومن بعده لابنه الصالح أيوب - أرسل سرا إلى السلطان الصالح ، يخبره بأن ملك فرنسا « عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها » (٤٢) . وكان السلطان الصالح أيوب مريضا

(٤١) ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or. Tome 5 p. 194)

ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٦٠ (تحقيق المؤلف) .

(٤٢) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢١٩ (بولاق) ،

ابن الجوزي : مرآة الزمان (المكتبة الصقلية ج ٣ ، ص ٥١٧) .

في دمشق عندما بلعه تلك الاخبار ، فحمل الى مصر ، ونزل عند
أشموم طنّاح ليكون على مقربة من ساحة العمليات العسكرية .

أما لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته الى جزيرة قبرس
في سبتمبر سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر
استراحوا فيها من دوار البحر ، وحصلوا على ما يلزمهم من مواد
التجوين . وعندما استقر رأيهم على مهاجمة دمياط ، أبحروا اليها في
مايو سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) . وهنا نلاحظ ملاحظتين : الاولى هي
أن فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال
مسيطرة على عقول الصليبيين في الشرق والغرب جميعا . والملاحظة
الثانية هي أن لويس التاسع أراد أن يمهد لهجومه بنوع من حرب
الاعصاب ، فاتبع أسلوب المغول بارسال رسائل مليئة بعبارات التهديد
والوعيد الى حكام البلاد التي يعترمون غزوها ليفتوا في عضدهم
فيستسلمون دون مقاومة . من ذلك أن لويس التاسع ما كاد يصل
الى دمياط في أوائل يونيو سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ، حتى بعث برسالة
عنيفة الى السلطان الصالح يعلمه فيها بسوء موقف المسلمين في
الاندلس ، ويطلبه بالاستسلام فوراً « وقد عرفتك وحذرتك من عساكر
قد حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحمى ،
وهم مرسلون اليك بأسياف القضا . . . فسيوفنا حداد ، ورماحنا
مداد ، وقلوبنا شداد . . . » (٤٣) . وعندما تسلم الصالح أيوب هذه
الرسالة وهو مريض طريح الفراش ، أغرورقت عيناه بالدموع ، ورد
على لويس منددا بغروره ، مذكرا إياه بما حل بالصليبيين على أيدي
المسلمين ، منذرا بأنه سيندم حيث لا ينفع الندم « فلو نظرت أيها
المنجور حد قلوبنا ، وجد حروبنا ، لرأيت فرساننا أسفتهم لا تمل ،
وقلوبهم لا تذلل . . . » (٤٤) .

(٤٣) ابن أيك : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ (تحقيق المؤلف) .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ، وكذلك المقرئزي : السلوك ،

ج ١ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

والواقع أن التحذير الذي كان أرسله الامبراطور فردريك الثاني ، أفاد الصالح أيوب ، إذ تمكن من اعداد دمياط لمقاومة الحصار ، بعد أن أثبتت التجارب اختيار الصليبيين لها لتكون نقطة ارتكاز يعتمدون عليها في غزوهم مصر . وكان أن عهد السلطان الصالح الى الامير فخر الدين يوسف بالوقوف على رأس قوة على البر الغربي لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر^(٤٥) . أما دمياط ذاتها ، فقد شحنت « بآلات عظيمة وذخائر وافرة ، وجعل فيها بنى كتانة ، وهم مشهورون بالشجاعة »^(٤٦) .

وعندما وجد لويس لتاسع أن دمياط قوية التحصين ، بحيث يتعذر عليه النزول على برها ، قرر النزول على الضفة الغربية للذيل المواجهة لدمياط . وعلى الرغم من أن قوات الامير فخر الدين تصدت للصليبيين وقاومتهم ، الا أنها لم تنجح في الحيلولة بينهم وبين النزول الى الشاطئ ، مما جعل الامير فخر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلا الى الضفة الشرقية حيث تقوم مدينة دمياط^(٤٧) . ولم يلبث أن استولى الرعب على أهل دمياط ، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين ، بعد أن أشعلوا النار في سوقها . بل ان عرب كتانة الذين عهد اليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ، ولوا هاربين تاركين أبواب دمياط مفتوحة^(٤٨) .

وهكذا غدت دمياط مدينة مفتوحة خالية من المدافعين « فتملكها الفرنج بغير قتال » في ٦ يونيو سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) . ويروى المؤرخ المقرئ أن الصليبيين عندما رأوا أبواب دمياط مفتوحة ،

(٤٥) النويري : نهلية الأرب ، ج ٢٧ ورقة ٩٠ (مخطوط) ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٣٥٥ — ٣٥٦ (مخطوط) .
(٤٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٧٨ (سنة ٦٤٧ هـ) .

(٤٧) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٤٨) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(م ٩ — الأيوبيون والمماليك)

ولاً أحد يحميها تخوفوا من أن يكون في الأمر خدعة • ولكن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت واضحة « فدخلوا المدينة بغير كلفة » ، واستولوا على ما فيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال « صفوا عفوا » (٤٩) •

على أن الصليبيين لم يحاولوا في حملتهم هذه — سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) — أن يستفيدوا من الأخطاء التي وقعت فيها الحملة النضلية الخامسة سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) ذلك أنه كان من المفروض أن يستغل لويس التاسع فرصة سقوط دمياط في يده دون عناء ، ويبادر بالزحف الى داخلية البلاد قبل أن يعيد المسلمون تنظيم صفوفهم • ولكن الصليبيين أضاعوا في دمياط خمسة أشهر كاملة (يونيو — نوفمبر ١٢٤٩ م / ٦٤٧ هـ) وربما استهدف الملك لويس أن ينتظر انحسار فيضان النيل الذي كان سببا في فشل حملة حنا دي برين على مصر قبل ذلك بثلاثين عاما (٥٠) • ومهما تكن الأعذار التي حاول بها بعض الكتاب تبرير تباطؤ لويس التاسع في دمياط ، فالذي يعنينا هو أن هذا التباطؤ أعطى السلطان الصالح فرصة طيبة للاستعداد واعادة تنظيم جيشه •

وكان السلطان الصالح أيوب قد عاقب أمراء بنى كنانة عقابا قاسيا لفرارهم من دمياط ، كم وبخ الأمير فخر الدين ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين • ولكن المرض اشتد على السلطان ، وكان مرضا مستعصيا « أيس منه » ، فحمل الى قلعة المنصورة حيث استمر — وهو على فراش الموت — يواصل تنظيم شؤون الدفاع (٥١) • وفي تلك الاثناء لم يسلم الصليبيون من أية مقاومة اسلامية ، وانما دأب المسلمون على شن هجمات متوالية على الصليبيين ، وأسروا منهم كثيرين ،

(٤٩) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٣٦ •

(٥٠) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ١٢٠

وما بعدها (القاهرة ١٩٦١) •

(٥١) أبو الفدا : المختصر في اخبار البئر ، ج ٣ ، ص ١٧٩

(سنة ٦٤٧ هـ) •

أرسلوهم تباعا الى القاهرة^(٥٢) .

وأخيرا وصلت امدادات الى لويس التاسع بصحبة أخيه سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) فقرر الصليبيون الزحف جنوبا في اتجاه القاهرة . ولم يكذ لويس التاسع يشرع في الزحف على رأس جيشه ، حتى توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ (١٥ شعبان ٦٤٧ هـ) .

ولا شك في أن وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة جاءت حسارة كبرى للمسلمين ، لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد من جهة ، وفي مواجهة الخطر الصليبي من جهة أخرى^(٥٣) .

موقعة التصورة :

كان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه ، وصفته المصادر بأنه شاب مستهتر عديم الخبرة ، وكان عند وفاة أبيه ينوب عنه في حصن كيفا وديار بكر^(٥٤) . والى أن يصل توران شاه الى مصر ليحل محل أبيه ، قامت زوج أبيه — شجرة الدر أرملة الصالح أيوب — بدور بارز ، حفظه لها التاريخ ، فأخفت خبر موت زوجها السلطان ، وأرسلت الى توران شاه تستدعيه على عجل من كيفا ، في الوقت الذي استمرت الاستعدادات تجري على قدم وساق للدفاع عن البلاد^(٥٥) .

ولكن حدث — على الرغم من كل هذه الاحتياطات أن تسرب خبر وفاة السلطان ، لا الى عامة أهل مصر فحسب ، بل الى الصليبيين

(٥٢) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٧ . (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٥٣) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٧٠ وما بعدها (تحقيق المؤلف) .

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٤ .

(٥٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ورقة ٣٦٢ — ٣٦٣ (مخطوط) .

أيضا . لذلك رأى الملك لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من تلك الظروف السيئة ننى أمست فيها البلاد ، وليتمكن من انزال ضربته بالمسلمين قبل وصول نوران شاه^(٥٦) .

وعندما تحرك الجيش الصليبي من دمياط في ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ، اختار الملك لويس طريق الدلتا الكثير الترع والقنوات ، فسار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل ، واتجهوا جنوبا في الاقليم الذى أطلق عليه الصليبيون اسم « جزيرة دمياط » . وهى عبارة عن مثلث تحده من الشمال الشرقى بحيرة المنزلة ، ومن العرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقى فرع أشموم طناح المعروف باسم البحر الصغير^(٥٧) . وفى أثناء زحف الصليبيين جنوبا . تعرضوا لهجمات كثيرة ، حتى وصلوا فى النهاية الى نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط ، وهى النقطة التى تمثل رأس المثلث . وعندما وصلوا الى ذلك المكان ، وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصوره . ولكنهم استطاعوا عبور بحر أشموم عن طريق مخاضة قريبة اسمها مخاضة سلمون . وفى تلك المرحلة قتل الامير فخر الدين قائد الجيش الايوبى ، الامر الذى جعل موقف المسلمين يزداد تأزما ، حتى « كادت تكون الهزيمة بالكلية »^(٥٨) .

ولم ينقذ الموقف عندئذ سوى حماقة الصليبيين . ذلك أن فريقا منهم تسرع فى اقتحام المنصورة ، دون أن يستجيب الى ما أصدره الملك من تعليمات تطالب رجال جيشه بالتمهل والتأنى^(٥٩) . وكان أن اندفعت مقدمة الجيش الصليبي داخل مدينة المنصورة ، وانتشر أفرادها فى الطرقات والدروب ، فى الوقت الذى وجد المسلمون قوة

(٥٦) العينى . عقد الجبلن - حوادث سنة ٦٤٧ هـ (مخطوط) .

(٥٧) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ١٢٨

(٥٨) ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ورقة ٣٦٦ (مخطوط) .

(٥٩)

جديدة في المماليك البحرية ، الذين أطلق عليهم المؤرخ المعاصر ابن واصل اسم « داوية الاسلام » . ولم يبالغ هذا المؤرخ عندما أطلق على ذلك اليوم اسم « يوم الكبسة » لأن الموقف كان خطيرا جدا ينذر بالنسبة للمسلمين بأوخم العواقب^(٦٠) . ولكن المماليك البحرية أنقذوا الموقف ، فأحاطوا بشراذم الصليبيين الذين تفرقوا في دروب المنصورة ، وأوسعومهم ققتلا ، حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين وفرار من نجا من القتل^(٦١) . وكان عدد ضحايا الصليبيين في المنصورة بضعة آلاف ، مما جعل بعض المؤرخين الاوربيين يعتبرها « مقبرة الجيش الصليبي » ، في حين وصفها المقریزی بأنها كانت « أول ابتداء النصر على الفرنج »^(٦٢) .

ولا شك في أن موقعة المنصورة أعادت الثقة الى نفوس المسلمين ، فقوميت عزائمهم وتطلعوا الى استئصال شأفة الغزاة . هذا في الوقت الذي حافظ لوييس التاسع على ثباته ، وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشه بسرعة ، على الرغم مما كان يعانيه من نقص في المؤن وفي أعداد الفرسان ، فضلا عن انتشار الحمى بين رجاله^(٦٣) .

توران شاه والصليبيون :

وفي تلك المرحلة ، وصل المعظم توران شاه الى المنصورة في أواخر فبراير سنة ١٢٥٠ م (٦٤٧ هـ) بعد أن نودى به سلطانا في دمشق وهو في طريقه الى القاهرة . وقد أدى وصول السلطان الجديد الى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين ، « وتيمن الناس بطلمته »^(٦٤) .

(٦٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ورقة ٣٦٦ (مخطوط) .

(٦١) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ (مخطوط) .

(٦٢) المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥١ ،

Grousset : Op. cit. III, p. 465.

(٦٣) سعيد عاشور : الحسكة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٤٦

(الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٦٤) المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، ابن تغرى

بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٤٦ .

أما لويس التاسع فقد أخذ يدرك استحالة الزحف على القاهرة ، وأنه من الأسلم العودة الى دمياط ليستغل هذه المدينة الساحلية الكبيرة في مساومة المسلمين . على أن انسحاب الصليبيين الى دمياط لم يكن عندئذ بالمهمة السهلة ، وهذا هو السر في تردد لويس في اتخاذ تلك الخطوة حتى الخامس من شهر ابريل . وفي كل يوم كان موقف الصليبيين يزداد سوءا بسبب انقطاع المواصلات بينهم وبين دمياط ، مما هددهم بالجوع وتطلب منهم أن يتدبروا أمرهم بسرعة . فحتى ذلك الوقت ، كانت الغلبة في النيل - بين دمياط والمنصورة - للسفن الصليبية التي نجحت في امداد الصليبيين بكل ما احتاجوا اليه من زاد وعتاد . ولكن السلطان توران شاه شيد عدة سفن ، حملت أجزاءها على الجمال الى شمالي المعسكر الصليبي ، حيث ركبت وأنزلت في الماء وشحنت بالمقاتلين . ولم تلبث هذه لسفن الاسلامية أن انقضت على المراكب الصليبية « وأخذتها أخذا وبيلا » ، وبذلك قطعت الطريق على السفن الصليبية ، وحالت دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم في دمياط (٦٥) . وتفيض المصادر المعاصرة بأخبار المعارك النيلية التي نشبت عندئذ بين السفن الاسلامية والسفن الصليبية ، وكيف أن هذه المعارك أدت الى استيلاء المسلمين على عشرات السفن الصليبية وأسر بضعة آلاف من رجالهم ، فضلا عن كميات ضخمة من المؤن والاسلحة (٦٦) .

وفي خضم هذه المصاعب ، لجأ لويس التاسع الى محاولة فتح باب المفاوضات مع المسلمين ، على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس الى الصليبيين . وقد أراد الملك لويس أن يضرب بهذا العرض عصفورين بحجر ، فيسترد بيت المقدس مما يحفظ له ماء وجهه أمام البابوية وشعبه في غرب أوروبا ، وفي الوقت نفسه يضمن لجيشه

(٦٥) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(٦٦) عن تفاصيل هذه المعارك انظر المصدر السابق ، وكذلك : العيني : عقد الجمان ، حوادث ٦٤٧ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٣٧١ ، أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

انسحابا آمنا. ومخرجا. سالما من مصر . ولكن عرض لوييس .التاسع .
جاء بعد فوات الاوان « فلم تقع الاجابة الى ذلك » ورفض توزان
شاه طلبه (٦٧) .

وفي الخامس من ابريل سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) بدأ الصليبيون
يتراجعون نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية للنيل ، في حين حمل
المرضى والجرحى في السفن . والواقع أن العملية لم تكن انسحابا
بالمعنى المعروف في الحروب ، وانما هي عملية « هروب الى دمياط »
كما أسماها المؤرخ المعاصر ابن واصل (٦٨) . ولم يترك المسلمون
الصليبيين يتراجعون في سهولة وانما « ركب المسلمون أكتافهم » أى
تعقبوهم وأنزلوا بهم خسائر جسيمة . وهكذا حتى وصل الصليبيون
الى شرمساح ، عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط . ولم تك
مقدمة الجيش الصليبي تصل الى فارسكور ، حتى غلب المرض على
لوييس التاسع ومعظم رجال جيشه ، في الوقت الذى « أهدق المسلمون
بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسرا » (٦٩) . وعندما أيقن المسلمون
سوء موقف الصليبيين ، قرروا أن يشنوا عليهم هجوما عاما عند
فارسكور . وكان المرض قد اشتد بلوييس التاسع ، فلم يعد يقوى
على القتال ، وقاده أحد رجاله ليستريح في منية أبى عبد الله ، وهى
احدى قرى شرمساح . وفي موقعة فارسكور حلت الهزيمة ساحقة
بالصليبيين ، ووقع الجيش الصليبي بأجمعه تقريبا بين أسرى وقتلى .
وكان من جملة الاسرى لوييس التاسع نفسه ، وقد سيق مكبلا بالاغلال

(٦٧) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٠ ،
Grousset : Op. cit. III, p. 419.

(٦٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٣٦٩ (مخطوط) .

(٦٩) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٨ هـ (مخطوط) ،

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٤ .

الى المنصورة حيث سجن في دار القاضى ابن لقمان ، ووكل به الطواشى
صبيح المعظمى (٧٠) .

نهاية الدولة الايوبية :

ولم يهتم المسلمون كثيرا — وهم في تشوة نصرهم — بأمر دميظ ،
اذ باتوا يعتقدون أن استردادها صار أمرا مفروغا منه . ولذلك ركزوا
طلباتهم في الحصول على الممتلكات الصليبية بالشام . وكان أن أجاب
الملك لويس على هذا الطلب بأنه لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم
بالشام ، الامر الذى أغاظ توران شاه ، فصمم على غزو الشام ، كما
طالب بمبلغ ضخيم من المال فداء للجيش الفرنسى ، على أن يكون الحلاء
عن دميظ ثمنا لاطلاق الملك الفرنسى نفسه (٧١) .

وقد وافق لويس التاسع على هذه الشروط ، وعندئذ أبرمت
معاهدة بينه وبين توران شاه نصت على أن يستمر الصلح بين الطرفين
عشر سنوات ، وأقسم الطرفان على ذلك (٧٢) .

على أن توران شاه لم يلبث أن قتل في المحرم سنة ٤٨ - هـ
(١٢٥٠ م) قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصليبيين . ولعل
أهم ما ترتب على مقتل توران شاه من تطور خطير في تاريخ عصر
الشام والشرق الادنى ، هو سقوط دولة الايوبيين وقيام دولة سلاطين
المماليك في حكم مصر والشام ، وهو ما سنعالجه في الباب الآتى : أى
في القسم الثانى من هذا الكتاب .

(٧٠) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٦ ،

ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ١٣ ، ص ١٨١ .

(٧١) Grousset : Op. cit. III, p. 484.

(٧٢) جوزيف نسيه يوسف : لويس التاسع ، ص ٦١ .

الفصل الثامن

الأوضاع الحضارية في العصر الايوبي

الحياة الدينية :

لعل أهم ما تتصف به الحياة الدينية في العصر الايوبي ، هو تقويض المذهب الشيعي في مصر ، ودعم المذهب السني . ومن المعروف أن المذهب الشيعي في العصر العباسي الثاني وجد سندا قويا له في البويهيين بالمشرق الاسلامي ، وفي الفاطميين بالمغرب . ولكن الاثراك السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين في الهيمنة على الخلافة العباسية حاربوا التشيع في المشرق ، حتى أن الوزير السلجوقي نظام الملك لجأ انى شتى الوسائل لدعم المذهب السني . وكان الأتابك عماد الدين زنكى — ومن بعده ابنه نور الدين محمود — من أتباع السلاجقة ، لذلك أظهرها حماسة شديدة في مقاومة التشيع وما كادت تتم لنور الدين محمود السيطرة على مصر ، حتى تعجل القضاء على الخلافة الفاطمية ، والدعوة على منابر المساجد لامام أهل السنة ، وهو الخليفة العباسي في بغداد .

وقد حذا صلاح الدين حذو سيده نور الدين محمود في العمل على تقويض أركان التشيع ، واستخدم في ذلك العنف والقتل حيناً ، وأساليب السياسة وانشاء المدارس لتكون مراكز للفقهاء السني ، أحياناً . أما الشيعة وأنصار الخلافة الفاطمية في مصر ، فلم يستسلموا لتلك السياسة ، لانهم أدركوا أن الامر بالنسبة لهم ليس الا مسألة حياة أو موت ، فقاموا بعدة ثورات في عاصمة البلاد وأطرافها ، كما سبق أن أوضحنا . ولكن صلاح الدين تصدى لهذه الثورات في حزم حتى أخمدها . واذا كانت بقايا المذهب الشيعي قد ظلت قائمة في مصر حتى عصر سلاطين المماليك — وما بعد عصر سلاطين المماليك — فان

هذه البقايا كانت هشة ضعيفة ، يغلب عليها الطابع الفردي ، وتظهر حيناً لتختفى بسرعة ويعفو أثرها بعد قليل .

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحاً في العصر الايوبي ، هي ظاهرة انتشار التصوف واتخاذها مظهراً جماعياً بعد أن كان في العصور السابقة يمثل اتجاهاً فردياً محدوداً . وصحب ذلك ، الإكثار من بناء دور ومنازل للصوفية عرفت باسم الخانقاوات ، في حين عُرِف الصوفية باسم الفقراء . ويفهم مما كتبه المقرئزي أن صلاح الدين أنشأ أول خانقاه بمصر — وهي خانقاه سعيد السعداء — (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) ، وولى عليها شيخاً عرف بشيخ الشيوخ ، ووقف عليها الاوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية) ، كما خصص لهم في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبنى لهم حماماً بجوارهم^(١) . كذلك أعطى المقرئزي صورة حية عن بعض جوانب نشاط أولئك الصوفية ، فقال ان « لهم في يوم الجمعة هيئة فاضلة » ، فيخرج صوفية خانقاة سعيد السعداء في موكب جميل ، على رأسهم شيخ الخانقاة « وبين يديه خدام الربعة الشريفة ، قد حملت على رأس أكبرهم ، والصوفية مشاة بسكون وخفر الى باب الجامع الحاكمي » . وبعد الصلاة يعودون بنظام الى الخانقاة ، والناس مصطفين لمشاهدتهم^(٢) .

ولا يخفى علينا أن التصوف ليس مجرد ظاهرة دينية ، وإنما هو أيضاً ظاهرة اجتماعية خطيرة . وكان أن وفد على مصر في العشرين الايوبي والمالكي كثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم — وبخاصة من بلاد المغرب والاندلس — وهؤلاء أشاعوا حياة الزهد والتقشف ، مما نرك أثراً عميقاً في المجتمع والحياة الاجتماعية .

(١) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٥ (بولاق) .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

الحياة العلمية والفكرية :

اشتهر سلاطين بنى أيوب وملوكهم بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ويستمع اليهم ويشاركهم في أبحاثهم^(٣) . أما العزيز عثمان الذى خلف أباه صلاح الدين في السلطنة ، فقد قال عنه ابن خلكان أنه « سمع الحديث من الحافظ السلفى . والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى ، وسمع بمصر من العلامة أبى محمد بن برى النحوى وغيرهم »^(٤) . ومثل هذا يقال عن بقية سلاطين بنى أيوب ، وبخاصة السلطان الكامل الذى قال عنه المقرئى ، وكان يحب أهل العلم ، ويؤثر مجالستهم ، وعنده شغف بسماع الحديث النبوى وكان يناظر العلماء ، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكانت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريرهم ليسامروه »^(٥) .

لذلك لا عجب اذا اشتهر من بنى أيوب أنفسهم أعلام فى شتى ضروب المعرفة ، منهم المؤرخ الشهير أبو الفدا ، وهو عماد الدين اسماعيل ابن الملك الافضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وهو صاحب حماه المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، ومن مؤلفاته كتاب « المختصر فى أخبار البشر » . ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ، وكان شاعرا أديبا . ومنهم الملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وكان مشتغلا بتحصيل الكتب النفيسة ، ويجيز الأدباء . والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب

(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ، ص ٣٢٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٢٥١ (تحقيق

احسان عباس) .

(٥) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٨ (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

دمشق ، المتوفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، وكان راغبا في الادب وأهله ، حتى شرط لكل من يحفظ الفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعة . . . (٦) .

كذلك ظهر تقدير سلاطين بنى أيوب وملوكهم للعلم في عنايتهم بالمكتبات ، وأهمها المكتبة التي عني بها السلطان الكامل بالقلعة ، وكانت في الاصل تؤلف مكتبة القاضي الفاضل ، ثم آلت الى ابنه الاشرف أحمد ، حتى أمر السلطان الكلعل بوضع اليد عليها ، ونقلها الى القلعة لتصبح نواة لمكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد . وقد تم نقلها الى القلعة سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) .

وإذا كانت هذه هي رغبة سلاطين بنى أيوب وملوكهم في العلم ، فاننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه في مدارس ، درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية ، وصارت مراكز لحياة علمية نشطة في ذلك العصر .

والواقع أن الايوبيين عندما دأبوا على انشاء المدارس في مصر لم يكونوا مبتكرين ، وانما كانوا محاكين لما شاهدوه وسمعوا به في الدولة العباسية . ذلك أن ظاهرة انتشار المدارس كانت من أبرز سمات انحياة العلمية في العصر العباسي الثاني ، وخاصة بعد أن أسس نظام الملك - وزير السلطان ملكشاه السلجوقي - المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٥٧ هـ ، وافتتحها سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) (٧) . ولم تلبث أن استوعبت المدارس ثنتي ألوان العلوم والمعرفة ، فضلا عن أنها غدت مراكز لنشر المذهب السني ، وشنن الحرب على الشيعة ومحاربة التشيع (٨) . وكان من الطبيعي أن يحاكي الاتابكة في العراق والشام

(٦) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (ج ٣ ، ص ١٠) .

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيلىن ، ج ٢ : ص ١٢٨ - ١٣١

(تحقيق احسان عباس) .

(٨) حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص ٢٢٢ .

سادتهم سلاطين السلاجقة في انشاء المدارس ، فأقاموا الكثير منها ، مثل المدرسة الاتابكية التي أنشأها سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى بالموصل قرابة منتصف القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد . ومدرسة الجامع النورى التي أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فى الموصل . كذلك كان طبيعيا أن يحاكى صلاح الدين سادته فى انشاء المدارس .

ومهما يقال عن أهداف صلاح الدين من انشاء المدارس ، فإن التوسع فى اقامة هذا النوع من المؤسسات جاء فى حد ذاته مظهرا قويا لرقى الحياة الفكرية فى عصر الايوبيين . وقد بدأ صلاح الدين بانشاء مدرستين فى حياة الخليفة العاضد الفاطمى ، اذ يروى ابن الاثير أنه كانت بمصر دار تسمى دار المعونة يجلس فيها من يراد حبسه ، فهدهما صلاح الدين وبنائها مدرسة للشافعية سنة ٥٦٦ هـ (٩) . وقد عرفت هذه المدرسة باسم الناصرية نسبة الى الناصر صلاح الدين . أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية ، وقد عرفت باسم المدرسة القمحية ، نسبة الى انقمح الذى كانت تحصل عليه من الوقف الذى وقفه عليها صلاح الدين (١٠) . ولم تلبث أن سقطت الخلافة الفاطمية ، فأقام صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى ، وبذلك صار عدد المدارس التى أقامها بالقاهرة خمس مدارس ، خلاف ما أقامه فى أقاليم الدولة ، وبخاصة دمشق وبيت المقدس .

وقد حاكى سلاطين الايوبيين — ومن بعدهم سلاطين المماليك — صلاح الدين فى بناء المدارس . ولا يخفى علينا أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية ، لذلك قصد الحكام باقامتها التقرب الى الله وكسب الثواب . ومن أهم هذه المدارس المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) ، والمدرسة الصالحية

(٩) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

(١٠) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ (بولاق) .

التي أقامها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م)^(١١) . وكانت هذه المدرسة الاخيرة أول مدرسة في مصر تجمع بين مذاهب السنة الاربعة .

وكانت المدارس في تلك العصور أشبه بالجامعات اليوم ، فهي معاهد للتعليم العالي ، ولكل مدرسة مذهبها الذي تتبعه ، وان كان بعضها يشتمل على أربع كليات المذاهب الاربعة . وكان المقرض في المدرسة أن تكون مركزا للعلوم الدينية - من فقه وحديث وتفسير وغيرها - ولكن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية ، فضلا عن العلوم الدينية .

وقام بالتدريس في المدرسة مدرس أو أكثر ، اختير من مشايخ علماء عصره ، وأوسعهم علما وأبعدهم صيتا ، لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها . وكان يساعد المدرس معيد ، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ، فهو أكبر منهم درجة ، ويجلس معهم ليستمع الى ما يعطيه المدرس ، وبعد ذلك يرجع اليه الطلاب لشرح ما قد يكون قد صعب عليهم فهمه . ومنذ العصر الايوبي صار منصب المعيد مرموقا ، بحيث قل أن خلت منه مدرسة من مدارس ذلك العصر . من ذلك أن صلاح الدين عين معيدين بالمدرسة الفاصرية . كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الاربعة في مدرسته^(١٢) . واعتمد التدريس عادة في ذلك العصر على الالقاء والتلقين والاملاء ، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وتلاميذه .

(١١) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٧٤ ،
ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨
(بغداد ١٩٦٥) .

(١٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، المقرئى :
المواظ ، ج ٢ ص ٣٦٢ وما بعدها .

ومن المعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالي ، لا بد لها من مكتبات دسمة ، يرجع اليها المدرسون والطلاب ، ويعتمدون على ما فيها من كتب في التحصيل والاستفادة . لذلك عنى الايوبيون عناية كبيرة بالمكتبات ، وذلك اقتداء بنور الدين محمود الذي خصص لمدرسته في دمشق كتباً كثيرة يجد فيها طلاب العلم حاجتهم من المعرفة^(١٣) . هذا مع ملاحظة أن المكتبات في ذلك العصر لم تكن مقصورة على المدارس فحسب ، وانما وجدت بالجوامع وغيرها مكتبات غنية ، فضلا عن المكتبات الخاصة . وكان لكل مكتبة من المكتبات العامة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم انكتب ورعايتها والمحافظة عليها ، فضلا عن خدمة المترددين على المكتبة من طلاب العلم . وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الامين) والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون

وبالاضافة الى المدارس التي كانت تمثل معاهد التعليم العالي أو الجامعي ، وجدت في العصر الايوبي مكاتب — أو كتاتيب — لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد أنشأ صلاح الدين عددا من هذه المكاتب لتعليم « أبناء الفقراء والايتام خاصة » ، مما جعل الرحالة ابن جبير يعتبر ذلك من « مآثره الكريمة المعربة عن اعتناؤه بأمور المسلمين كافة »^(١٤) .

ولما كانت المنشآت السابقة — من مدارس ومكاتب ومكتبات — في حاجة الى موارد مالية ثابتة ، تضمن لها الاستمرار في أداء رسالتها ، وتوفر للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريم من العيش ، يجعلهم ينصرفون الى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة ، فان سلاطين الايوبيين وملوكهم لجأوا الى دعم مدارسهم بالاقواف البغنية التي أوقفوها عليها . ولم تكن جميع هذه الاوقاف أراض زراعية ، وانما يذكر المقرئ أن صلاح الدين وقف على مدرسته الصلاحية التي أقامها بجوار مقام

(١٣) النعمي : الدارس فيها في دمشق من مدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٨ .
احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٢٠ وما بعدها .
(١٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ (تحقيق حسين نصار) .

الامام الشافعى ، حماما وفرنا وحوانيت ، فضلا عن الجزيرة التي كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل ، خارج القاهرة^(١٥) . أما المدرسة القمحية التي أقامها صلاح الدين للمالكية ، فقد سبق أن ذكرنا أنها سميت كذلك نسبة الى القمح الذي كانت تغله الاوقاف التي أوقفها صلاح الدين بالفيوم على تلك المدرسة . كذلك حبست على المكاتب الخاصة بتعليم الصغار أوقاف للانفاق على مؤديها وتلاميذها ، كما كانت « تجرى عليهم الجراية الكافية لهم »^(١٦) .

ومن الواضح أن المستوى المعيشى لمدرسى المدرسة وطلابها توقف على قيمة الوقف الموقوف عليها ، ومقدار ما يغله ذلك الوقف من إيرادات . ولما كانت هذه القيمة غير ثابتة ، لان انتاج الارض يرتبط بحالة الفيضان ، وما قد يتعرض له الزرع من آفات ، فان رجال العلم في تلك العصور لم يكونوا على حال دائم من البسطة وسعة العيش . هذا الى أن الاوقاف الموقوفة على المدارس لم تكن ثابتة ، وانما تعرضت أحيانا للزيادة . من ذلك أن الملك السعيد بركة — ابن الظاهر بيبرس — أضاف الى الاوقاف التي أوقفها الصالح نجم الدين أيوب على المدرسة الصالحية^(١٧) .

أما عن الحياة الادبية ، فقد نشطت في العصر الايوبى ، وان كانت الاحداث التي ألت بالعالم الاسلامى في الشرق الادنى — وخاصة ما يتعلق بالحروب الصليبية — قد صبغت الادب صبغة خاصة ، فكسدت سوق الشعر ، واتجهت القرائح الى الادعية ومدح النبى (ص) وكذلك المعانى الصوفية^(١٨) . ومن أشهر شعراء مصر في العصر الايوبى ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ، وقد استكثر

(١٥) القرىزى : المواعظ والاعتبار . ج ٢ ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(١٦) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ (تحقيق حسين نصار) .

(١٧) القرىزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ،

احمد احمد بدوى : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ص ٤٩ .

(١٨) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص

من الموشحات وأجاد فيها^(١٩) . وكمال الدين ابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م)^(٢٠) ، وعمر بن الفارض الذى اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف ، وجمال الدين بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)^(٢١) .

أما عن النثر فى ذلك العصر فقد اتصف باتقان الصناعة اللفظية ، والتفنن فى البيدع والجناس والسجع ، والمبالغة فى التتميق ، كما يبدو ذلك بوضوح فى أسلوب عماد الدين الاصفهانى ، وخاصة كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدى » الذى أرخ فيه لاستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . ومن أعلام النثر فى ذلك العصر القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) ، وكان وزير صلاح الدين ، وكتب عددا من الرسائل^(٢٢) .

كذلك شهد العصر الايوبى نشاطا فى علوم اللغة ، وبخاصة النحو والصرف . واشتهر من علماء اللغة فى ذلك العصر أبو محمد بن برى المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأبو الفتح البلطى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) . وابن عبد المعطى الزاوى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ، وابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)^(٢٣) .

أما عن علم التاريخ فقد شهد هو الآخر نشاطا كبيرا فى العصر الايوبى ، فاتجه بعض المؤرخين نحو كتابة موسوعات فى تاريخ الدولة الاسلامية ، واتجه آخرون نحو شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم ،

-
- (١٩) ياقوت : معجم الادباء ، ج ١٩ ، ص ٢٥٦ .
(٢٠) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .
(٢١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ١ ص ٢٢٢ (تحقيق احسان عباس) .
(٢٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٢٤٢ .
(٢٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٥ — ٥٦ .
(م ١٠ — الايوبيون والمماليك)

في حين عنى القسم الاكبر من المؤرخين بذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين . ومن مؤرخي ذلك العصر أبو على الجوانى المصرى المتوفى سنة ٥٨٨ هـ (١١٦٣ م) وله شجرة رسول الله (ص) في النسب النبوى . والملك المعظم عيسى الايوبى المتوفى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) . وبهاء الدين بن شداد صاحب كتاب سيرة صلاح الدين يوسف — واسم الكتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » — وقد توفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) ، وشهاب الدين أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) صاحب كتاب الروضتين ، وابن ظافر الازدى صاحب كتاب الدول المنقطعة وقد توفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وجمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) صاحب كتاب انعماء بأخبار الحكماء . هذا بالاضافة الى ابن الاثير ، وأبى صالح الارمنى ، وابن عساكر الدمشقى ، وغيرهم .

الزراعة والاقطاع :

اعتمدت مصر في حياتها الاقتصادية — طوال تاريخها — على الزراعة بوجه خاص . فبالزراعة اشتغلت غالبية أهلها ، وعلى الانتاج الزراعى عاش معظم سكانها . ومن المعروف أن مصر لم تستخدم الرى الدائم لأول مرة الا في القرن التاسع عشر للميلاد ، ولذلك اعتمدت الزراعة في العصور الوسطى — ومن جملتها العصر الايوبى — على رى الحياض ، بمعنى تقسيم الاراضى الزراعية الى حياض كبيرة تنمر بمياة الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور . وقد أدى اتباع هذه الطريقة الى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان ، فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الارض في اطمئنان ، وظهر المحصول طيبا في مقداره وأثمانه . أما اذا جاء الفيضان منخفضا دون وفاء النيل ، فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسفار الغلال ، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الاوبئة في البلاد .

وفي ضوء هذه الظاهرة يمكن أن نفسر ما حدث بمصر في تلك العصور من أزمات اقتصادية نتيجة انخفاض فيضان النيل . ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) في عهد السلطان العادل الأيوبي ، إذ « احترق البحر احترقا عظيما »^(٢٤) . واشتد بالناس انجوع وأكل بعضهم بعضا ، وأكلوا الميتة وهرب أكثر أهل مصر إلى الغرب وإلى الحجاز واليمن والشام وكان يقوم الرجل فيذبح ولده الصغير ، وتساعده أمه على طبخه ، ويأكلونه وحصر من كفته السلطان في مدة عشرة أيام فكانوا مائة ألف وعشرين ألف . وصلى خطيب الاسكندرية في يوم واحد على سبعمائة جنازة من أعيان الناس ، خارج عن لا يعبا به^(٢٥) ومهما يكن في هذه الأقوال من مبالغات ، فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها ، وما كانت تتعرض له من أزمات خطيرة في حالة عدم وفاء النيل .

ولا ينتظر في مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة ، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام من ناحية أخرى . وإذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حيناً وترحمه أحيانا ، فإن الحكام كانوا في الغالب لا يرحمونه أبدا ، فأنقلوا عليه بالإلترامات والرسوم ، ولم يتهاونوا في جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال . ومن الضرائب التي فرضت على الفلاحين في ذلك العصر الخراج وشد الاحباس ، فضلا عن الزكاة .

(٢٤) المقصود بالبحر ، بحر النيل أو نهر النيل ، واحترق بمعنى جف وانعدم الماء به .

ويعنى لفظ البحر في اللغة ما نعرمه اليوم جغرافيا باسم البحر الملح وكذلك النهر العذب . جاء في القرآن الكريم « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سلق شرابه وهذا ملح أجاج » . جاء في لسان العرب لابن منظور « البحر الماء الكثير ملحا كان أو عذبا » .

(٢٥) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٧ المسمى الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، ص ١٤٨ — ١٤٩ (تحقيق المؤلف) . وانظر أيضا كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ج ٦ ص ١٧٣ .

ومن الثابت في تصور النظم الاقطاعية في الشرق والغرب في العصور الوسطى أن الاقطاع اتخذ طابعا حربيا . ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم في حاجة الى محاربين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول مما يتطلب أموالا ونفقات لا تتحملها مواردهم ، فيلجأون الى توزيع الاراضى في صورة اقطاعات على الامراء والاجناد ، مقابل ما يؤدونه من خدمة عسكرية للحكام . وهذا المبدأ الذى يفسر المؤرخون في ضوءه تطور النظام الاقطاعى في الغرب الاوروبى منذ أيام شارل مارتل في القرن الثامن للميلاد ، ينطبق أيضا على النظم الاقطاعية التى عرفت في الشرق على أيام السلاجقة والايوبيين . وهكذا عرفت مصر زمن الايوبيين الاقطاع الحربى الذى كان مطبقا عند السلاجقة . ولم يتخذ هذا الاقطاع صفة وراثية ، وانما صار للمقطع أن يتمتع بالارض المقطعة له طالما هو يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها في شروط عقد الاقطاع .

ولم يكد صلاح الدين يوطد أقدامه في مصر ، حتى قام سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ثم سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) « باقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد »^(٢٦) . وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم دولته بين أبنائه وأهل بيته ، جعل ذلك التقسيم على أسس اقطاعية ، وكذلك حرص من بعده أخوه السلطان العادل على أن يكون أولاده - دون غيرهم - هم أصحاب الاقطاعات الكبرى في مصر^(٢٧) .

وهكذا ظل النظام الاقطاعى سائدا في مصر حتى نهاية العصر الأيوبى ، فأقطع الصالح نجم الدين أيوب أهل بيته اقطاعات وافرة ، كما اختص الخوارزمية باقطاعات واسعة مقابل ما قدموه من خدمات حربية . ولم ينس الصالح أيوب ممالিকে الاتراك الذين ساندوه

(٢٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٦٢ .

(٢٧) حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ،

وناصروه ، فمنحهم الاقطاعات الوافرة ، « وكان اذا مات أحد من مماليكه ، وكان له ولد ، أنعم باقطاع والده عليه » (٢٨) .

وكان على المقطعين أن يؤديوا خدمات اقطاعية ، منها ما هو مالى — مثل ضرائب الزكاة والجوالى وغيرهما — ، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شئون الامن فى الإقطاع ، والعناية بمرافق الزراعة وصيانة الجسور . هذا كله عدا الواجبات الحربية — التى هى الاساس فى فكرة الاقطاع — فكان على المقطع أن يعد العدد المقرر له من الجند ، ويخصص جزءا من اقطاعه لكل منهم ، أو يمنح كل جندى مرتبا معيناً يناسبه (٢٩) .

وكان من المنتظر أن يؤدي انتشار النظام الاقطاعى إلى سوء حال الفلاحين ، لأنه جعلهم أشبه شىء برقيق الارض ، كما جعلهم تحت رحمة طبقة جديدة هى طبقة كبار الامراء الاقطاعيين . ولكن انظم التى وضعتها الدولة الايوبية حرصت على أن تحمى الفلاحين من عسف السادة الاقطاعيين ، فكان التوقيع الخاص بالاقطاع فى ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الامر بالمعروف ، واتباع العدل والاهتمام بالقضاء وعدم أخذ رشوة من الناس ، وحسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له (٣٠) ويبدو أن القيود التى وضعتها الدولة الايوبية على السادة الاقطاعيين ، وخاصة فيما يتعلق بتحديد الايجارات والجبايات التى يدفعها الفلاح لسيد الاقطاعى ، حمت الفلاح من العسف من ناحية ، كما حدثت من نفوذ وثروة السادة الاقطاعيين من ناحية أخرى (٣١) .

(٢٨) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

النويرى : نهلية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٩٠ (مخطوط) .

(٢٩) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٢٤ .

(٣٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٢ — ٢٤ ،

ج ١٢ ص ١٤٤ — ١٤٨ .

Poliak : The Ayybid Feudalism, p. 430.

(٣١)

ولا أدل على عناية الايوبيين بشئون الزراعة وادراكهم لأهميتها لحياة مصر وشعبها ، من عنايتهم الفائقة بعمارة القناطر والجسور ، حتى أن صلاح الدين عهد الى الأمير قراقوش الاسدى بذلك . وقد أتى ابن مماتى — الذى عاصر الدولة الايوبية — بثبت طويل عن خلجان مصر وترعها وجسورها ، وأوان سدها ، وأوقات فتحها ، مما يلقي أضواء على مدى العناية بمرافق الري والزراعة في ذلك العصر (٣٢) . وكانت الجسور عندئذ على نوعين : جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ، ولذا تمهدت الحكومة باقامتها وصيانتها والانفاق عليها . وجسور خاصة بجهة معينة ، ويعود نفعها على تلك الجهة لا غير ، ولذا اختص أهالى تلك الجهة من المقطعين والفلاحين باقامتها ورعايتها والانفاق عليها (٣٣) .

الصناعة والتجارة :

والى جانب الزراعة ، ازدهرت في العصر الايوبى عدة صناعات ، أهمها صناعة النسيج التى اشتهرت بها مصر طوال العصور الوسطى ، حتى أن هناك أنواعا معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية في أوروبا في تلك العصور ، مثل قماش الفستيان *Fustian* الذى نسب الى الفسطاط . ومن أهم مراكز صناعة النسيج في ذلك العصر تنيس ودمياط والبهنسا وأخميم ، وفيها جميعا صنعت أفخر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية .

وبالإضافة الى صناعة المنسوجات اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من بذور السمسم والكتان وغيرهما ، واستخدمت بعض هذه الزيوت في صناعة الصابون وهى الصناعة التى اشتهرت بها فقط . هذا عدا صناعات أخرى عديدة ازدهرت في مصر ، مثل صناعة السكر

(٣٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٠٥ وما بعدها (تحقيق عزيز سوريل عطية) .
(٣٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠١ (بولاق) .

من القصب ، اذ كانت مصر تنتج عندئذ كميات ضخمة من السكر ، يستهلك بعضها داخل البلاد ، ويصدر الباقي الى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الايوبية سياسة الاحتكار في عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في كافة أنحاء البلاد . كذلك فرضت على الصناع وعلى الانتاج الصناعي بعض الضرائب ، مثل الرسوم المفروضة على منتجات دار الطراز ، وما يحصل برسم أجرة الصناع الذين يعملون في خزائن السلاح^(٣٤) .

أما التجارة الخارجية ، فقد شهدت نشاطا ملحوظا في عصر الدولة الايوبية . ذلك أن قيام نور الدين محمود بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ، ترتب عليه ازدياد حجم التبادل التجاري بين الجانبين . حقيقة ان سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبك بالاردن ، مكنتهم في بعض المراحل من اعتراض طريق القوافل بين مصر والشام والحجاز . ولكن نور الدين محمود — ومن بعده صلاح الدين — لم يسكتا عن ذلك التهديد ، حتى انتهى الامر باستيلاء المسلمين على حصن الكرك والشوبك جميعا ، وتأمين طرق القوافل في تلك المنطقة الهامة التي تعتبر حلقة الوصل بين جناحي الدولة الاسلامية ، الافريقي والآسيوي .

وثمة ملاحظة أخرى هامة ، هي أن الكثيرين يظنون أن الحرب كانت مستمرة ، وأن العداة ظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين في الشام طوال عصر الحروب الصليبية . ولكن الواقع يختلف عن هذا ، لأن الحروب الصليبية كانت تشتعل نارها حيناً وتخمد أحيانا . وفي الاوقات التي يتوقف خلالها القتال ، كانت تحدث اتصالات حضارية ، ومعاملات اقتصادية ، على جانب كبير من الاهمية بين المسلمين والصليبيين . وقد ذكر ابن جبير — وهو معاصر لصلاح الدين — أنه « من أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسببهم يدخل الى بلاد المسلمين » . ثم شرح ابن جبير كيف

(٣٤) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠٥ .

أنه غادر دمشق في قافلة اسلامية للتجار متجهة الى مدينة عكا التي كانت تحت سيطره الصليبيين . فلما وصلت القافلة الاسلامية الى عكا « وهي قاعدة مدن الافرنج بالشنام » ، نزلت في خان معد خصيصا لنزول القوافل الاسلامية^(٣٥) .

ثم انه من المعروف أيضا أن الحروب الصليبية أدت الى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، وان القوى التجارية الايطالية - وبخاصة البندقية وجنوه وبيزة - رأت في تلك الحروب فرصة لدعم نشاطها التجارى مع بلدان المشرق الاسلامى . لذلك ازدادت تجارة مصر الخارجية منذ العصر الايوبى بالذات ، وقصد التجار الاوربيون ثغرى دمياط والاسكندرية لشراء حاصلات الشرق . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك في احدى رسائله ، فقال « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشقة (البيازنة) والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطلق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتازة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة . وما منهم لا من هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ؛ ويقرب الينا باهداء طرائف أعماله ... »^(٣٦) .

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الاوربيين من التعامل مع المسلمين فى عصر الحروب الصليبية ، اذ أدى حصر المدن التجارية الايطالية على مواصلة نشاطها التجارى ، الى سعيه لتجديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل ، وذلك بعد وفاة صلاح الدين . كذلك أدت سياسة التسامح التى اتبعها العادل والكامل الى اتجاه كثير من التجار الاوربيين بسفنهم نحو شواطئ مصر . ولا تلبث الاسكندرية - بصفة خاصة - أن شهدت نشاطا تجاريا واسه نتيجة للامتيازات التى منحها سلاطين الايوبيين لتجار المدن الايطالية

(٣٥) رحلة ابن حبير ، ص ٢٨٨ - ٢٩٣ (تحقيق حسين نصار)

(٣٦) ابو شامة كتاب الروضتين ، ج ١ ، (طبعة النيل) .

حتى أنه وجد بميناء الاسكندرية في شتاء سنة ١١٨٧ — ١١٨٨ م (ز ٥٨٣ هـ) سبع وثلاثون سفينة ايطالية تجارية ، وهذا عدد ضخم بالنسبة لموسم فصل الشتاء بالذات (٣٧) .

أما عن التجارة الداخلية ، فكانت لا تقل نشاطا في العصر الايوبى ، حتى أن الرحالة ابن جبير وصف بعض مدن مصر في ذلك العصر — مثل منفلوط وأبى تيج وغيرهما — بأن فيها « الاسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق » (٣٨) . وتشهد كتب الحسبة في ذلك العصر ، على مدى نشاط التجارة الداخلية في العصر الايوبى ، وعلى ما كان هناك من اشراف دقيق على الاسواق والباعة (٣٩) .

الحياة الاجتماعية :

جاءت الدولة الايوبية — من الناحية الزمنية — بين دولتين اتصفتا بالبذخ ، وتميزت الحياة الاجتماعية فيهما بالاسراف والمبالغة في اقامة الحفلات ، هما الدولة الفاطمية والدولة المالكية ، ولكن دولة الايوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو اللاحقة بها ، اذ ولدت الدولة الايوبية في وقت كان الصليبيون بالشام قد بلغوا ذروة قوتهم ، حتى هدد خطرهم بايتلاع البلدان الاسلامية ، ليس في الشام فحسب ، بل أيضا في مصر والحجاز . لذلك لم تكن هناك فرصة أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، اذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وطغت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف . واذا توافر الوقت أحيانا في العصر الايوبى لممارسة حياة الترف ، فان المال كان من الصعب أن يتوافر ، لأن حراسة القوافل ،

(٣٧) Heyd : Hist. du Commerce, Tome 2, p.p. 391 - 399.

(٣٨) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ — ٣٢ (تحقيق حسين نصر) .

(٣٩) عبد الرحمن الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

، تحقيق السيد الباز العرينى) .

وتحصين المدن والقلاع . واعداد الجيوش ، وبناء السفن والاساطيل ، وتوفير العدد وآلات الحرب . . . كل ذلك كان كفيلا بأن يستنفد ما في خريفة بنى أيوب . وحسبنا أن أول ما فكر فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي عند وصوله الى مصر كان تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ، واقامة المنشآت المتباينة فيها ، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة في احيائها . أما صلاح الدين الايوبى ، فما كادت تستقر له الامور في مصر ، حتى فكر في بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة وتحصين ثغور البلاد .

وقد وصف ابن ترداد صلاح الدين الايوبى وصفا يصور روح العصر ، فقال ان « حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا في آله ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه . لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده . وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة » (٤٠) .

وبينما نسمع عن خلفاء الفاطميين ، وعن سلاطين المماليك ، أن كلا منهم مات تاركا في خزائنه مالا مكدسا وتحفا عديدة ، اذا بكتب التاريخ المعاصرة تجمع على أن صلاح الدين مات ولم يترك في خزائنه سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجراما واحدا من الذهب . . . لقد استنفد الجهاد كل ما عدا ذلك من أموال وايرادات (٤١) .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في مصر صارت على زمن الايوبيين مجدبة كل الجذب ، خشنة كل الخشونة . ذلك أن طبيعة البشر وطبيعة المجتمع جعلتا الناس — حكاما ومحكومين — لا ينسون

(٤٠) ابن ترداد النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٤٤

تحقيق محمد محمود صبح .

(٤١) سعيد عاشور . الناصر صلاح الدين ، ص ٢٨٥ وما بعدها .

تماما نصيبهم من الدنيا ، فاهتموا باحياء الحفلات الدينية وغير الدينية ، ولكن دون اسراف ، وبلا تهتك . من ذلك أن المقرئى عندما يشير الى بعض الاحتفالات في العصر الايوبى ، فإنه لا يتعرض لألوان الاباحية والمنكرات التى انتقدتها في مرارة عند اشارته الى الاحتفالات في العصرين الفاطمى والماليكى (٤٢) .

والواقع أن لايوبيين اقتصدوا في الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، في حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحول البلاد رسميا من المذهب الشيعى الى المذهب السنى . من ذلك مثلا أن عاشر المحرم — وهو يوم عاشوراء — كان يوم حزن عند الفاطميين ، تغلق فيه الاسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ، ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب (٤٣) .

وهكذا شهدت مصر في العصر الايوبى اهتماما باحياء الاعياد وبالحفلات ، ولكن مع مراعاة الاقتصاد . فنسمع عن الاسمطة السلطانية في العصر الايوبى ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة في مصر كان السلطان صلاح الدين الايوبى ، ولكننا لا نسمع عن الاسراف والمبالغة اللتين اتصفت بهما الحفلات والمواكب الفاطمية والماليكية .

ومع ذلك فإننا نجد في المصادر المعاصرة اشارات الى أن بعض خلفاء صلاح الدين أسرفوا أحيانا في اقامة الاسمطة واحياء بعض الحفلات ، وربما كان ذلك لاحساسهم بأن حدة الهجمة الصليبية قد خفت الى حد ما . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الاسمطة الكبرى لأعيان دولته ، وموظفيها بين حين وآخر (٤٤) . أما السلطان الكامل محمد فقد أقام سماطا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وأنفق في ذلك السماط أموالا

(٤٢) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ١٣٦ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٤٣) المقرئى : التواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٤٩٠ (بولاق) .

(٤٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٤٧ .

طائفة^(٤٥) . وتكرر ذلك في عهد السلطان العادل الصغير الذي أقام سماطا في الميدان الاسود - تحت القلعة - ذبح لأجله ألف رأس من الغنم ، فضلا عن البقر والجاموس والابل والخيل^(٤٦) . ولكن هذا الاسراف لم يكن الطابع الغالب على الدولة الايوبية ، وبخاصة في الشطر الاول من عمرها .

ويفهم مما ذكره عبد اللطيف البغدادي - الذي زار القاهرة في العصر الايوبي - أن المجتمع بلغ درجة كبيرة من الرقى في ذلك العصر ، فوصف البغدادي حمامات القاهرة ، وقال انه لم يشاهد في البلاد التي زارها أتقن منها صنعة واحكاما ، لما اتصفت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيها الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب للمستحمين^(٤٧) .

كذلك أفاض ابن جبير في وصف عناية صلاح الدين بالاغراب الذين يفدون الى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر السلطان « بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم . . . » . أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جريات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بمصر في طريقهم الى الحج^(٤٨) .

ولم تكن مدن الصعيد أقل رقيا في مستواها عن مدن الوجه البحري والقاهرة ، إذ ذكر ابن جبير عن بعض مدن الصعيد - مثل قنا وقفت - أنها كانت ممتازة « حسنا ، ونظافة بنيان ، واتقان وصنع » . كذلك امتدح ابن جبير تحشم نساء الصعيد « وصون نساء أهلها ، والترامهن البيوت ، فلا تظهر في زقاق من أزقتها المرأة البتة »^(٤٩) .

(٤٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .

(٤٦) المصدر السابق ، ورقة ٦٣ ، المتريزي : كتاب السلوك ج ١ ،

ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٤٧) البغدادي : كتاب الانادة والاعتبار ، ص ٢١٣ .

(٤٨) رحلة ابن جبير ، ص ١٠ (تحقيق حسين نصار) .

(٤٩) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ ، ٣٦ (تحقيق حسين نصار) .

الادارة ونظم الحكم :

صار صلاح الدين بعد زوال الخلافة الفاطمية ، ووفاء نور الدين محمود ، هو سيد مصر والشام والحاكم الاوحد عليهما جميعا .

ومن الثابت تاريخيا أن صلاح الدين لم يتخذ لقب « سلطان » رسميا ، وان كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب الذي تمسك به خلفاؤه من الايوبيين والمماليك ، تأكيدا لما لكل منهم من سيادة عليا على الدولة وعلى بقية الملوك فيها . ولما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب اشتغاله بأمر الجهاد ضد القوى الصليبية بالشام ، فانه صار عليه أن يترك شخصا يعتمد عليه في حكم مصر وينوب عنه في ادارة شئونها أثناء غيابه عنها . لذلك استحدث صلاح الدين وظيفة نائب السلطنة ، وهو الشخص الذي ينوب عن السلطان ، واستمرت هذه الوظيفة بعد ذلك قائمة في عصرى الايوبيين والمماليك .

ومن الثابت أن انشاء وظيفة نائب سلطان في العصر الايوبي أضعف من أهمية الوزير . فالوزارة التي كان لها شأن كبير في العصر الفاطمي حتى صار للخلفاء الفاطميين نوعين من الوزارة — وزارة تفويض ووزارة تنفيذ — انحطت وظيفتها وضعف شأنها في العصرين الايوبي والمماليكي . بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ما كان للوزير من اختصاصات ونفوذ . وقد غدا الوزير في العصر الايوبي « وزير تنفيذ » لا غير . واذا كان صلاح الدين قد اعتمد على وزيره القاضي الفاضل ، ووثق فيه ، وعهد اليه بكثير من الامور ، فان بعض خلفاء صلاح الدين استغنى أحيانا عن وظيفة الوزير . من ذلك أن السلطان العادل الأول — أو الكبير — استوزر الصاحب صفى الدين بن شكر ، ولكنه لم يلبث أن تغير عليه ، فأقاله من الوزارة ، وترك المنصب خاليا دون أن يعين فيه وزيرا ، حتى نهاية حكمه (٥٠) .

(٥٠) . ابن شلكر الكتبي : فوات الوفيلت — ترجمة صفى الدين بن

شكر (تحقيق احسان عباس) .

وكذلك فعل السلطان الكامل بن العادل ، اذ أعاد ابن شكر الى الوزارة ، فلما بغى اس شكر « وأحدث حوادث كثيرة ، وحصل مالا جما ، عزله الكامل وأحاط بجميع موجوده ٠٠٠ ولم يستوزر بعد ابن شكر أحدا » (٥١) .

وبالإضافة الى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامية في الدولة الايوبية ، بعضها يختص بالبلاط ، والبعض الآخر يختص بالدواوين . فمن وظائف البلاط ووظيفة الحاجب الذى يقوم بادخال الناس على السلطان ، ووظيفة الاستادار الذى ينظر فى شئون البيوت السلطانية ويشرف على ادارتها ، ووظيفة الدوادار الذى يقوم بابلاغ الرسائل ورفع القصص الى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية ، ووظيفة ناظر الخاص المكلف برعاية شئون السلطان المالية . . .

أما عن الدواوين والوظائف الادارية فقد تكلم عنها باسهاب ابن ممتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، وكان نصرانيا ثم أسلم ، وتولى نظارة الدواوين المصرية . وقد ألف كتابا شهيرا أسماه قوانين الدواوين ، شرح فيه نظام حكومة مصر وقوانينها فى عصر الدولة الايوبية . ويفهم منه أنه كان بمصر عدد كبير من الدواوين — مثل ديوان الانشاء ، وديوان بيت المال ، وديوان الجيش — ولكل ديوان من هذه الدواوين ناظر . — أى رئيس ، وميزانية خاصة ، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره . وكان ابن ممتى نفسه ناظرا على ديوان بيت المال فى أوائل العصر الايوبى (٥٢) .

هذا بالإضافة الى عدد آخر من الوظائف ، بعضها ذو صبغة ادارية ، مثل والى القاهرة ، والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل

(٥١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٥ ، ٢٢٠ . (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٥٢) ابن ممتى : قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريل عطية ، القاهرة ١٩٤٣) .

قاضي القضاة والمحتسب • وجدير بالذكر أن صلاح الدين كان شافعي المذهب ؛ ولذا حرص على أن يكون قاضي القضاة شافعيًا • وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك ، عندما عين السلطان الظاهر بيبرس قاضيا للقضاة من كل مذهب ، فصار عددهم أربعة يمثلون مذاهب أهل السنة الأربعة •

المالية العامة :

أدى انتقال النظام المالي في الدولة الأيوبية من الاقتصاد النقدي إلى الاقتصاد الاقطاعي إلى ضعف ديوان المال ، ثم زواله ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر في جميع الشؤون المالية في الدولة ، من إيرادات ومصروفات ، ولذا سمي ديوان النظر^(٥٣) •

أما عن الإيرادات ، فقد تنوعت مواردها ، ومعظمها كان قديما وجده صلاح الدين الأيوبي بمصر ، فأبقاه على حاله • ومن الثابت أن المورد الأول لإيرادات الدولة الأيوبية كان الاقطاع الحربي ، وهذا يرتبط بالخراج لأنه كان على المزارع أن يدفع الضريبة السنوية المفروضة على الأرض التي يقوم بفلاحتها ، ليقوم المقطع باستقطاع النسبة المطلوب منه دفعها لخزانة الدولة • وكان صلاح الدين قد أدخل ما يسمى بالبدل في جمع الخراج ، بمعنى أن يؤدي الخراج عينا ، فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الفول أو الحمص بدلا من القمح مثلا • وحددت نسبة البدل بحيث يؤدي المزارع أردبين شعير بدلا من أردب واحد قمح ، أو يؤدي أردبا ونصف فول بدلا من أردب القمح وهكذا^(٥٤) •

وارتبط بالمال الخراجي أيضا الخراج والمعادن • أما الخراج فيقصد به أشجار السنط التي وجدت بكثرة في بعض أنحاء البلاد ،

(٥٣) حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ص ٤٠ (١٩٦٤) •

(٥٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥ •

مثل البهنسا والاشمونين وأخميم وقوص • وكانت هذه الغابات تعتبر ملكا للسلطان ، ويدفع أهالي تلك الجهات رسوما مقابل انتفاعهم بأخشابها^(٥٥) • وأما المعادن فأهمها الذهب والزمرد والنطرون والشب ، وقد احتكرها السلطان ، فلا تباع الا في المتجر السلطاني بالاسكندرية ، ولا يجوز لأحد الرعايا المتاجرة فيها^(٥٦) •

وبالإضافة الى الخراج وجدت ضرائب أخرى عديدة غذت موارد الدولة ، منها الجوالى وهى الضريبة المفروضة على أهل الذمة ، أى النصارى واليهود القادرين على حمل السلاح • وقد بلغ المتحصل من هذه الضريبة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) مائة وثلاثين ألف دينار^(٥٧) • ومنها أموال المواريث الحشرية ، وهم الذين يموتون دون وريث • ومنها متحصلات ديوان الاحباس الخاصة والعامة — أى الاوقاف — ، وهى على أنواع كثيرة ، منها الدور والحوانيت والطواحين والاراضى التى وقفها المسلمون فى عصور سابقة • ومنها الاموال الهلالية ، وهى الايجارات الشهرية المتحصلة من الجهات السكنية الخاصة بسلطين بسى أيوب ، ومن سبقهم من خلفاء الفاطميين • ومنها متحصل دار الضرب ، وهى الرسوم التى تجببها الدولة من أصحاب الاموال الذين يرغبون فى سبك ما لديهم من ذهب أو فضة فى شكل عملة رسمية^(٥٨) •

هذا كله بالإضافة الى المكوس ، وهى الضرائب التجارية ، ومعظمها غير شرعى • وكان صلاح الدين قد ألغى معظم المكوس الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) — عندما كان لا يزال نائبا عن نور الدين محمود فى مصر — وبعدها ٨٨ مكسا جملة حصيلتها مائة ألف دينار سنويا • ثم أعاد صلاح الدين بعد ذلك فرض بعض هذه المكوس ، مثل مكس

(٥٥) النبلسى : مع القوانين الماضية فى دواوين الديار المصرية ، ص ٤٨ •

(٥٦) ابن مباتى : قوانين الدواوين ، ص ٨١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ •

(٥٧) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٧ (بولاق) •

(٥٨) ابن مباتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٢ — ٣٣٣ •

تجار الكارم — وهى الضريبة المفروضة على التوابل الواردة الى البلاد —
ومكس الخمس وهى الضريبة المفروضة على ما يجلبه التجار الاوربيون
وغير المسلمين من بضائع ...

• أما أبواب المصروفات فكانت عديدة ، تشهد عليها أسماء بعض
الدواوين التى اختلفت بالمصروفات • ومن هذه الدواوين ديوان الخاص
السلطانى ويقوم بالانفاق على شئون الدور السلطانية ، بعد جمع
الايرادات الخاصة بالسلطان • ومن هذا الديوان كان ينفق على المطبخ
السلطانى والاسمطة والخيول السلطانية فى الاعياد وغيرها ، فضلا عن
الهدايا والمنح والهبات التى كانت تخرج باسم السلطان •

أما ديوان الجيش فكان مركز توزيع الاقطاعات ، ومنه يتم الانفاق
على الجند وشئون التعبئة والاسلحة والمؤن والحاميات والحصون
والتحصينات والمواقع والمدن العسكرية ، مثل العادلية والمنصورة
والصالحية • وكذلك ديوان الاسطول ، كان ينفق منه على دور الصناعة ،
صناعة السفن • هذا فى حين قام ديوان الاحباس بالانفاق على المؤسسات
الخيرية والدينية كالمساجد والخانقاوات والمدارس والبيمارستانات ،
ونحسوها (٥٩) •

وقد تعرضت البلاد فى بداية الدولة الايوبية لضائقة مالية ، بسبب
هروب الذهب منها ، نتيجة لعدم استقرار الاوضاع فى أواخر العصر
الفاطمى • ولكن صلاح الدين واجه ذلك الموقف فى سرعة وحزم ،
فسك عمله ذهبية جديدة سليمة العيار ، مما أعاد الثقة الى سوق
المال (٦٠) • على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التى شنها صلاح الدين
ضد اصيلبيين الجأت سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨ م) الى ضرب درهم نصفه
من الفضة ونصفه من النحاس ، فضاقت الناس بهذه الدراهم الرديئة ،

(٥٩) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٥٨ وما بعدها •

(٦٠) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٥ •

(م ١١ — الأيوبيون والمماليك)

مما جعل السلطان الكامل يصدر فلوسا نحاسية • وبالجملة ، فان حالة النقد ظلت مضطربة أيام الايوبيين ، وذلك نتيجة للحروب الصليبية ، مما أثر تأثيرا سيئا في النشاط الاقتصادي داخل البلاد (٦١) •

الجيش والبحرية :

سبق أن أشرنا الى أن الدولة الايوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية ، وثمره مشروع الجبهة الاسلامية المتحدة • وقد قدر للدولة الايوبية أن تعاصر أشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفا على مسرح الشرق الادنى • لذلك كان من الطبيعي أن يزداد الاهتمام بالجيش في أيام تلك الدولة ، لأنه أداة الجهاد • وقد أقيم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) — أى في الوقت الذى كن صلاح الدين نائبا في مصر عن سيده نور الدين محمود — عرضا عسكريا في القاهرة ، شهده رسل البيزنطيين والصليبيين ، فشارك في ذلك العرض نحو أربعة عشر ألف فارس ، كل منهم مزود بمتاعه من الخيل وغير ذلك ، ولكل منهم غلام يحمل سلاح الحرب • هذا عدا الجنود المشاه والعربان المحققين بالجيش (٦٢) ولما كان رزق الفارس الواحد من الطوائسية لا يقل عن سبعمائة دينار وقد يزيد على الألف ، فان الاحتفاظ بجيش كبير كان معناه تحميل صلاح الدين عبئا ثقيلا لا تستطيع خزائن الدولة النهوض به • لذلك لجأ صلاح الدين الى تطبيق نظام الاقطاع الحربى ، بمعنى توزيع الاقطاعات على الامراء ليتولوا هم الانفاق من دخلها على كتائبهم التى يتألف منها الجيش • وكان صلاح الدين هو أول من بدأ سياسة الاقطاع الحربى ، وهى السياسة التى بلغت ذروتها في عصر سلاطين المماليك كما سنرى فيما بعد • وفي ذلك يقول المقرئى « اعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء

De Bellard : Evolution Monetaire d'Egypte Medievale, (٦١)
p. 450.

(٦٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٨٦ (بولاق) •

مصر ، لعساكر البلاد اقطاعات ٠٠٠ ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام ، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر تغير الحال بعض التغير لا كله « (٦٣) .

وقد أعاد صلاح الدين تنظيم الجيش عدة مرات . من ذلك أنه في سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) بلغت عدة الجيش الايوبى في مصر ٨٦٤٠ فارساً منهم ١١١ أميراً ، ٦٩٧٦ فارساً من الطواشية ، ١٥٥٣ قراغلاميه أى جندياً عادياً . ووصلت النفقة على هؤلاء ٣٠٠٠٠٠٠٠ ديناراً (٦٤) . على أن الجيش الايوبى لم يظل على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الايوبى ، فانخفض عدده بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحى ضد الصليبيين ، وبعد عقد صلح الرملة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ثم ازدادت أعداد الجيش وارتفعت نفقاته أيام السلطان الكامل عندما أخذ تيار الحروب الصليبية يتجه الى مصر .

وبالإضافة الى الجيش الدائم ، ضم جيش صلاح الدين فرقا مساعدة من التركمان والاكراد والعربان وغيرهم ، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين ، يعملون مقابل أجور معينة يتقاضونها ، وان كانوا لم يقلوا — في حالات كثيرة — عن الجند النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد (٦٥) .

أما عن تنظيم الجيش ، فكان ينقسم الى أطلاب ، كل طلب يتكون من عدد يتراوح بين سبعين ومائتى جندي (٦٦) . وعند المسير الى

(٦٣) المصدر السابق — نفس الجزء والطبعة ، ص ٨٥ — ٨٦ .

(٦٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥ (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

(٦٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٧٦ ، المقرئى :

المواعظ ، ج ١ ص ٨٦ .

(٦٦) (الطنب بلغة الغز (الاتراك) هو الأمير المقدم الذى له علم

معهود ويوق مضروب وعدة من مائتى فارس الى مائة فارس الى سبعين

فارساً (المقرئى : المواعظ ، ج ١ ، ص ٨٦ .

انقتال ، توزع الاسلحة والزررد والنفقات على الجند ، على أن يستحضر كل جندي ما يلزمه من كميات المؤن . ويذكر العماد الكاتب أنه عندما خرج مع السلطان صلاح الدين من مصر لمحاربة الصليبيين بالشام سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) ، نودي بأن يأخذ العساكر معهم مؤونة تكفيهم عشرة أيام ، حيث أنه كان من غير المتوقع أن يحصلوا على مؤن في أرض العدو . لذلك أقيم سوق للعساكر ، وأقبل الجند على شراء ما يلزمهم بعد أن أعطاهم أمراؤهم رواتب الاقامات الاقطاعية المعتادة (٦٧) .

هذا عن الجيش ، أما عن الاسطول المصرى فكان في حالة سيئة عند قيام الدولة الايوبية ، بسبب الخلل الذى أصاب كافة أجهزة الدولة في أواخر العصر الفاطمى من ناحية ، فضلا عن فقدان جزيرتى قبرس وكريت — وكانتا بمثابة القواعد الامامية للاسطيل الاسلامية في شرق حوض البحر المتوسط — من ناحية أخرى . ثم كان وصول الصليبيين الى الشام في أواخر القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر لئميلاد — واستيلاؤهم على معظم الموانى الكبرى على سواحل بلاد الشام ، في عصر كانته تلك البلاد تمثل الجناح الشرقى لأية دولة قوية تقوم على أرض مصر . وقد لمس صلاح الدين بنفسه في الدور الاول من حياته بمصر ، كيف أدى ضعف الاسطول المصرى الى تمكين عمورى الاول — ملك بيت المقدس — من القيام بهجماته الجريئة التى أوصلته الى قلب البلاد ، في الوقت الذى اعتمد الصليبيون على القوى البحرية المسيخية في حوض البحر المتوسط — مثل الدولة البيزنطية والنورمان بصقلية — في طعن صلاح الدين ومهاجمته في عقر دولته .

لذلك أخذ صلاح الدين يهتم بالاسطول اهتماما بالغا . وقام ديوان الاسطول بالاشراف والانفاق عليه . وخصص لذلك الديوان موارد هامة ، منها متحصلات اقليم الفيوم وايزاد الحكاة ، فضلا

عن حصيلة النطرون^(٦٨) . وقم ديوان الاسطول بالانفاق على المشتغلين بالخدمة فيه ، فضلا عن النفقة على دور الصناعة — حيث كانت تصنع السفن — وهي ثلاثة في مصر (الفسطاط) والاسكندرية ودمياط^(٦٩) .

وبفضل هذا التشجيع ، غدا الإسطول الصلاحي منذ سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة ، منها ستون من الشوانى — وهي المراكب الضخمة المزودة بالابراج والقلاع — وتحمل الواحدة منها مائة وخمسين رجلا ، وهي تصلح في حالات الهجوم والدفاع^(٧٠) . وعشرون طرادا ، وهي سفن سريعة الحركة ، تحمل الخيل « وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا »^(٧١) وقسم سلاح الدين هذا الاسطول الى قسمين ، الاول يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطئ مصر والدفاع عنها ، والثانى يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانئهم بالشام^(٧٢) .

ولم يلبث أن قام هذا الاسطول بواجبه على أتم وجه ، فأقلق بالانصليبيين بالشام . وهاجم موانئهم الكبرى مثل عكا ، وقطع الطريق على السفن التى تحمل لهم الامدادات من غرب أوروبا . وعندما أقدم أرناط — صاحب حصن الكرك الصليبي — على انزال اسطول في البحر الاحمر — قرب أيلة — سنة ٥٧٨ هـ (١١٧٠ م) ، وشرع في مهاجمة الموانئ المصرية — مثل عيذاب — في طريقه لغزو الحجاز ، أصدر صلاح الدين تعليماته الى أخيه العادل في مصر ، فأعد أسطولا قويا في البحر الاحمر . وكانت السفن تصنع في دار الصناعة في مصر

(٦٨) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٧١ .
(٦٩) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٤٠ (تحقيق عزيز سوريل عطية) .
(٧٠) درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٨٣ وما بعدها .
(٧١) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ .
(٧٢) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٧٢ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٢ .

الفسطاط) ، وتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال الى شاطئ البحر الاحمر ، حيث يتم تجميعها وتركيبها . ثم خرج ذلك الاسطول تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ - متولى الاسطول بديار مصر عندئذ - « فظفر بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها » (٧٣) . وهكذا أثبت الاسطول المصرى وجوده فى البحرين المتوسط والاحمر . وازداد دور هذا الاسطول بروزا فى الاحداث التى أعقبت موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، اذ قام الاسطول بدور فعال فى مساعدة صلاح الدين فى الاستيلاء على بعض الموانى الهامة بالشام ، مثل عكا .

على أنه يبدو أن همم خلفاء صلاح الدين فترت عن الاهتمام بأمر الاسطول ، فضعف شأنه واضمحل أثره . وفى ذلك يقول المؤرخ المقرئى « فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، استمر الحال فى الاسطول قليلا . ثم قل الاهتمام به ، وصار لا يفكر فى أمره الا عند الحاجة اليه . فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا فى السلاسل نهارا ، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا . ولا يصرف لهم الا شئ قليل من الخبز ونحوه . وربما أقاموا الايام بغير شئ كما يفعل بالاسرى من العدو . فصارت خدمة الاسطول عارا يسب به الرجال . واذا قيل لرجل فى مصر : يا أسطولى ، غضب غضبا شديدا ، بعدما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله . والغزاة فى أعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم !! » (٧٤) .

ولم يكن ذلك الا فى أواخر أيام الدولة الايوبية ، بعد أن دهمت مصر حملتان صليبيتان - الحملة الخامسة سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) والحملة السابعة سنة ١٢٤٩ م (٦٤٦ هـ) عندما أدرك سلاطين بنى

(٧٣) سعيد مبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ (الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

(٧٤) المقرئى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ (بولاق) .

أيوب الاواخر أهمية الاسطول في حماية البلاد . وظهر ذلك في الوصية
، نسهر - اسي بركها الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه ، والتي
جاء فيها « فالاسطول أحد جناحي الاسلام ، فينبغي أن يكونوا شباعا ،
ورجال الاسطول اذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه ،
جاءوا من كل فج عميق ... » (٧٥) .

الفنون :

واصل التطور الفني تقدمه في العصر الايوبي ، على الرغم مما
أحاط بتلك الدولة من ظروف حربية جعلتها توجه طاقتها الكبرى نحو
الدفاع عن الوطن الاسلامي في الشرق الادنى وحمايته من الخطر
الصليبي .

ففي فن العمارة ازدهر في العصر الايوبي عنصران من عناصر
العمارة الاسلامية ، أولهما المدارس التي أخذت تنتشر انتشارا سريعا
لتنهض بدور بارز في الحياتين الثقافية والمذهبية ، وثانيهما تطور بناء
الاسوار والاستحكامات والقلاع وفق ظروف الحرب ضد الصليبيين
، والشام (٧٦) .

وقد سبق أن أشرنا الى أن صلاح الدين عندما أقام دولته في مصر
كان يخشى خطرا داخليا من جانب أتباع الفاطميين وشيعتهم ، وخطرا
خارجيا على البلاد من جانب الصليبيين . لذلك أمر صلاح الدين سنة
٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (الفسطاط
والقطائع والعسكر) . ويرجع الفضل الى الباحثة على بك بهجت في
الكشف عن جزء من هذا السور ، ثم واصل التنقيب من بعده الاستاذ
حسن الهوارى حتى تم كشف جزء من السور يبلغ طوله ٨٤١,٣٠ مترا .
وكان هذا السور هو ثالث الاسوار التي أحاطت بالقاهرة منذ انشائها

(٧٥) النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٨ ورقة ٩٢ (مخطوط) .

(٧٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٦٨ - ٦٩ .

حتى أيام صلاح الدين . اد بنى السور الاول جوهر الصقلى وبنى السور الثانى بدر الدين الجمالى . وكان هذان السوران الأولان من اللبن ، فى حين كان السور الثالث من الحجارة ، وقد أشرف على بنائه أبو سعيد قراقوش عبد الله الاسدى الملقب ببهاء الدين ، وهو مشيد القلعة أيضا (٧٧) .

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم ، وهى تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين ، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة ، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج . وفى وسط هذا الجدار باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجوانى . ويشكل الجزء الشمالى من القلعة الحصن نفسه ، فى حين كان الجزء الجنوبى يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من اصطبلات وغيرها .

ويغلب على الظن أن الجزء الشمالى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه ، فى حين أن الجزء الجنوبى الذى يضم الملحقات تم على عهد السلطان الكامل الايوبى (٧٨) .

وبفضل تشجيع صلاح الدين ، وما اتصف به قراقوش من مهارة وحزم ، سار العمل فى بناء قلعة الجبل بهمة كبيرة ، فجلبت أحجار البناء من منطقة أهرام الجيزة . وسخر فى نقلها وفى عملية البناء آلاف من أسرى الصليبيين الذين عملوا أيضا فى بناء سور القاهرة . وفى الجهة الجنوبية من القلعة ، نحت قراقوش بئرا فى الصخر ، أطلق عليه اسم بئر يوسف نسبة الى صلاح الدين يوسف . وقد عرف هذا البئر باسم انحازون ، ويتألف من طابقتين ، عمق الاول خمسون مترا والثانى

(٧٧) عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلع الخلافة معاصرة ، ص ٩٧ ، وما بعدها .

(٧٨) نظير حسان مسعداوى : التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

أربعون مترا • ولكل طابق من هذين الطابقين ساقية تدور بواسطة الدواب لرفع المياه • وكان ماء البئر عذبا في أول الامر ، حتى أراد تراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أفسدت ماء البئر ، الامر الذي جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل في امدادها بالماء (٧٩) •

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين في العديد من أنحاء البلاد ، أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر ، وقلعة فرعون في جزيرة فرعون في خليج العقبة • وكان الهدف من بناء هاتين القلعتين الحيلولة دون امتداد الخطر الصليبي الى اقليم البحر الاحمر ، وخاصة بعد أن قام أرناط صاحب الكرك بحملته الشهيرة التي استهدفت الحجاز سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) •

هذا عن العمائر الحربية في العصر الايوبي • أما العمائر المدنية ، فأهم ما بقى منها اليوم قبة الامام الشافعي التي أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ، وتمتاز بما فيها من نقوش وزخارف ، مع ملاحظة أن كثيرين من الامراء قاموا بتجديدها في العصور التالية • ومن مدارس العصر الايوبي توجد مدارس الصالحية ، التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، وقد تعرضت للخراب على مر السنين ، فلم يبق منها اليوم ، الا مدخلها وواجهة غنية بالنقوش والكتابات التاريخية (٨٠) •

هذا عن العمارة ، أما عن فن الحفر في العصر الايوبي ، فان الحفر على الخشب احتفظ بالاساليب الفنية التي كانت متبعة في العصر الفاطمي ، وان كانت الزخارف النباتية قد بدت أكثر اتقاناً ، كما حل خط النسخ محل الخط الكوفي • ومن روائع أمثلة الحفر على الخشب في العصر الايوبي ، تابوت الاميرة العادلية بضريح الامام الشافعي ، في حين أن تابوت هذا الامام نفسه يعتبر أعظم المنتجات الخشبية في

(٧٩) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ •

(٨٠) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٧٠ •

العصر الايوبى (٨١) . ويتألف غطاء هذا التابوت وجوانبه من حشوات ذات زخارف نباتية دقيقة ، مجمعة في أطباق نجمية واسداس سداسية . والتابوت غنى بالنقوش المكتوبة بالخط النسخ والخط الكوفى ، منها نقش باسم النجار الذى صنعه ، وهو عبيد النجار المعروف بابن معالى ، ونقش بتاريخ صناعته وهو سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) .

ومن أعظم التحف الخشبية كذلك ، التابوت الذى نقل من المشهد الحسينى بالقاهرة الى دار لآثار الاسلامية ، وهو مصنوع من خشب الساج الهندى ، وتنقسم جوانبه الى مناطق مستطيلة تحبسها اطارات ، عليها كتابات بخط النسخ الايوبى وبالخط الكوفى ، وجميع هذه الكتابات عبارة عن آيات من القرآن الكريم .

كذلك توجد فى دار الآثار الاسلامية (متحف الفن الاسلامى) بالقاهرة ثلاثة جوانب من تابوت خشبى جميل ، خاص بالامير حصن ابن ثعلب المتوفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) . أما الجانب الرابع من هذا التابوت فمحمفوظ فى متحف فكتوريا وألبرت بلندن (٨٢) .

أما النحت فى الحجر والجص فقد حافظ فى العصر الايوبى على الاساليب التى كانت سائدة فى العصر الفاطمى . ومن أبداع أمثلة الحفر فى الجص فى العصر الايوبى الجزء الاسفل من المنارة الايوبية فوق الباب الاخضر بالمشهد الحسينى بالقاهرة (٨٣) . أما النحت فى الحجر فمن أمثلته فى العصر الايوبى واجهة تربة أبى منصور اسماعيل ، وفيها كتابة بالنسخ على أرضية نباتية وافريز من زخارف هندسية ونباتية . وأما الحفر فى العاج زمن الايوبيين ، فقد اتبعت فيه نفس الاساليب التى طبقت أيام الفاطميين ، وان كانت الزخارف قد اقتصرت

(٨١) ديواند : الفنون الاسلامية ، ص ١٢٢ .

(٨٢) زكى محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية ، ص ١٢٣ - ١٢٥ ،

فنون الاسلام ، ص ٢٦٤ .

(٨٣) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، ج ١ ص ٨٥ .

على الاشكال النباتية والهندسية • ولم تصلنا أمثلة كبيرة من تحف
عاجية ترجع الى العصر الايوبى •

ويبدو أن صناعة الخزف أخذت تضمحل في مصر منذ نهاية القرن
السادس الهجرى ، وان كانت قد ازدهرت بعد ذلك في بلاد الشام في
القرنين التاليين • وقد استخدم الخزافون المصريون والشوام في العصر
الايوبى نفس الاشكال الزخرفية والاساليب الفنية التى عرفت في
العصر الفاطمى ، وهو الامر الذى يتضح فى الاوانى المدهونة بطلاء
واحد ، تقليدا للخزف الصينى • هذا فى حين أخذ يختفى الخزف ذو
البريق المعدنى من مصر (٨٤) •

وعلى العكس ، ازدهرت صناعة الزجاج فى العصر الايوبى ، حتى
أن الباحثين المتخصصين يتخذون نهاية القرن الثانى عشر للميلاد بداية
العصر الذهبى لهذه الصناعة فى العالم الاسلامى ، عندما بلغت أجمل
صورها فى تزيين التحف بالزخارف المذهبة والموهبة بالمينا • هذا مع
ملاحظة أن الفضل فى تقدم هذه الصناعة فى ذلك العصر ، انما يرجع
الى الصناع الشوام — وخاصة فى حلب ودمشق — وان كانت مصر
قد أسهمت بنصيب وافر فى انتاج الزجاج المطلقى ، مثلما أسهمت العراق
وفارس أيضا فى تلك الصناعة (٨٥) •

أما عن التحف المعدنية ، فمن المعروف أن كثيرا من أرباب هذه
الصناعة هاجروا من الموصل الى مصر والشام فى القرن السابع
الهجرى (الثالث عشر للميلاد) تحت تأثير عدم الاستقرار الذى ساد
بلاد المشرق الاسلامى • وقد اشتغل هؤلاء الفنانون لحساب الامراء
الايوبيين فى دمشق وحلب والقاهرة ، مطبقين الاساليب الفنية التى
نقلوها معهم من المشرق (٨٦) • ومن القطع المعدنية التى ترجع الى

(٨٤) ديپتد : الفنون الاسلامية ، ص ٢١٨ •

(٨٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٨ •

(٨٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٤٦ — ٥٥٠ •

العصر الايوبى ، بعض الاوانى التى تحمل أسماء سلاطين بنى أيوب
والتي تتميز بموضوعات زخرفية مسيحية ، مما يشير الى تسامح هؤلاء
السلاطين . ويوجد في متحف اللوفر اثناء ان من النحاس المكفت بالفضة ،
قوام زخرفتهما رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ، وعليهما كتابة تحمل
اسم السلطان الملك الناصر يوسف .

أما في المنسوجات ، فقد ورث العصر الايوبى عن العصر الفاطمى
أساليب صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة ، وان كانت أقمشة
العصر الايوبى أكثر بساطة من أقمشة العصر الفاطمى . كذلك يلاحظ
أن صناعة المنسوجات الكتانية أخذت تضمحل منذ العصر الايوبى
لترداد العناية بالمنسوجات الحريرية . وهناك مجموعة مطرزة بألوان
متعددة ، مصنوعة بغرزة متتابعة ، وتحمل كتابات نسخية وكوفية ،
من الراجح أنها ترجع الى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر
للميلاد (٨٧) .



وبعد ، فإنه يتضح من العرض الموجز السابق أن عجلة الفنون
لم تتوقف في العصر الايوبى ، وأن صليل السيوف في ذلك العصر لم
يعرقل تيار التقدم الحضارى . وفي الوقت الذى كان بنو أيوب
بخوضون أضخم معركة للجهاد عرفها المسلمون منذ قيام دولتهم
الكبرى في القرن السابع للميلاد ، اذا بالمدارس تشيد ، والمكتبات
تنشأ ، والحصون والقلاع تبنى ، والصناعات والحرف والفنون
تردهر ، لتسهم كلها في إقامة أعظم بناء حضارى عرفه العالم في
العصور الوسطى ، هو بناء الحضارة الاسلامية .

القسم الثاني

الدولة المالكية

الفصل الأول

قيام دولة المماليك البهيمية

رأينا في القسم السابق من هذا الكتاب كيف انقسمت الدولة الايوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، فصارت دمشق وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحمص وحماة ٥٥٥ وغيرها ، مراكز لوحداث سياسية يحكمها بعض أبناء البيت الايوبي الذين لقبوا بالملوك . وعلى رأس هؤلاء الملوك جميعا يوجد سلطان — هو صاحب مصر غالبا — المفروض أن تكون له الزعامة العليا ورئاسة الدولة ، حتى أنه كان يلقب أحيانا بلقب « سلطان الاسلام بمصر والشام وما معها » (١) .

كذلك رأينا كيف دب الشقاق بين ملوك بني أيوب ، وأدى هذا الشقاق الى نشوب حروب فيما بينهم وبين بعض ، فضلا عن استمرار الخلافات بين ملوك بني أيوب من ناحية وأبناء البيوت القديمة التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الاسلامي في الشرق الادنى من ناحية أخرى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار وكيفا وآمد وخرتبرت ، فضلا عن بني سكرمان في خلاط (٢) .

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمت العلاقات بين حكام المسلمين في الشرق الادنى — وخاصة في مصر والشام — حرص كل حاكم أو ملك على تكوين عصبية لنفسه ، يعتمد عليها في الاحتفاظ

(١) ابن ابيك : كنز الدرر وجامع الغرر — الجزء السابع المسمى « الدر المطلوب في اخبار ملوك بني أيوب » — ص ٣٦٢ .
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ،

بإمارته وفي صد عدوان حيرانه . ولم يجد أمراء المسلمين في ذلك العصر - سواء كانوا أيوسيين أو غير أيوسيين - وسيلة لتحقيق هدفهم الا عن طريق الاكثار من ساء المماليك - أو الرقيق الابيض - فاشترؤا منهم أعدادا كبيرة ، وعنو بتدريبيهم وتنشأتهم ليكونوا عدة لهم وسندا . وهكذا شهدت السنوات الاخيرة من القرن السادس والنصف الاول من القرن السابع للهجرة (القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) ازدياد نفوذ المماليك في شتى الامارات والدول الاسلامية في الشرق الادنى ، ومن جملتها مصر .

وسرعان ما غدا لأولئك المماليك كلمة مسموعة في الاحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة ، مما يشير الى ازدياد نفوذهم وسطوتهم . من ذلك ماترويه المصادر من أنه عندما توفي الملك العزيز عثمان سلطان مصر سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وتطلع عمه العادل سيف الدين - أخو صلاح الدين - للاستيلاء على مصر ، خشى الامراء الاسدية والصلاحية في مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فورا ، واستدعوا الملك الافضل من صرخد ، وسلموه مقاليد الامور في مصر في يناير سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) (٣) .

ومرة أخرى نسمع أن المماليك كانوا هم الذين دبروا مؤامرة لعزل السلطان الملك العادل - الصغير أو الثاني - ابن السلطان الملك التامل ، واحلال الصالح نجم الدين أيوب محله في السلطنة ، وذلك سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) (٤) .

وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور خطير في التاريخ ، هي فرقة المماليك البحرية . ويبدو أن الصالح نجم الدين

(٣) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق . ص ٢٩٥ .

أحس بفضل المماليك عليه في الوصول الى دست السلطنة من ناحية ، كما أحس بحاجته الى قوة من المماليك ينتمى أفرادها اليه ويرتبطون بالولاء له ، بعد أن لمس غدر الطوائف الاخرى ، من ناحية أخرى • وكان أن كون هذه الفرقة الجديدة من المماليك الاتراك ، « فاشترى من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من المماليك مثله من قبله ، حتى عاد أكثر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من غدر الاكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش » (٥) •

أما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية ، فمن المرجح أن ذلك يرجع الى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة في بحر النيل مركزا لهم (٦) • وكان معظم هؤلاء المماليك من الاتراك — مجلوبين من بلاد القفجاق شمالي البحر الاسود — ومن بلاد انقوتاز قرب بحر قزوين • وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أن الاتراك القفجاق عندئذ امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس ، فضلا عن الشجاعة النادرة • وبفضل هذه الصفات من جهة ، ونتيجة للظروف الخارجية والداخلية التي أحاطت بمصر في أواخر العصر الايوبي من جهة أخرى ، تمكن المماليك من الاستئثار بحكم مصر ، كما سنفصل بعد قليل • ذلك أن البحرية بالذات توصلوا الى السلطنة ، وظلوا يحكمون مصر والشام نحو قرن وثلاث (٦٤٨ — ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ — ١٣٨١ م) استطاعوا

(٥) ابن ابيك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ، ص ٢٧٠

(تخليق المؤلف) •

مهلا) جاء في لسان العرب : البحر الماء الكبير ، ملحا كان او عذبا • قال الازهرى : كل نهر لا ينقطع ماؤه — مثل دجلة والنيل وما اشبههما من الأنهار العذبة الكبار — فهو بحر •

قال تعالى : « وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه ،

وهذا ملح اجاج » (فاطر ١٢) •

وكثيرا ما يتردد اسم « بحر النيل » في المصادر المعاصرة •

(م ١٢ — الايوبيون والمماليك)

فيها. مواجهة المشاكل العديدة التي واجهت المسلمين في الشرق الأدنى عندئذ ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والتتار ، أو داخلية في صورة ثورات أو مؤامرات أو أزمات اقتصادية . وعندما زالت دولة الماليك البحرية حلت محلها دولة أخرى من الماليك أيضا ، هم الماليك الجراكسة أو البرجية (٧٨٤ — ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ — ١٥١٧ م) ، وبذلك تكون دولة سلاطين الماليك بمصر والشام قد استمرت أكثر من قرنين ونصف قرن ، أي حتى غزا السلطان سليم العثماني البلاد .

وسنرى أنه طوال تلك الحقبة ، ظل الماليك يمثلون ارسقراطية حاكمة ، بوصفهم القوة الحربية التي فرضت سيطرتها على البلاد والعباد ، ونهضت بمهمة الدفاع عنهم . وإذا كان الماليك في دولتهم ينسبون الى عنصر بعينه — الأتراك القفجاق أو الجراكسة — فإنه ليس معنى ذلك أن جميع الماليك في مصر والشام كانوا طوال ذلك العصر ينتمون الى هذا العنصر أو ذاك . ذلك أنه بدأ يظهر منذ عهد بيبرس أفراد من الماليك من أصل مغولى ، وهؤلاء ارتقى بعضهم في وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) كان مغولى الاصل . وفي ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر ظاهرة انتشار بعض العادات المغولية على عصر سلاطين الماليك ، مثل أكل لحوم الخيل في الحفلات والمناسبات^(٧) ، وصناعة بعض أنواع الخمور من لبن الخيل بالذات .

وعندما لمس تجار الرقيق أن سلاطين الماليك وامراءهم في مصر يقدرون بضاعتهم ويدفعون فيها الاموال الطائلة ، نشطوا في جلب الماليك . وقد أسهم في هذه التجارة أيضا بعض التجار الاوربيين

(٧) من المرجح أن ملوك الايوبيين باثروا ذبغ بعض رؤوس الخيل واكل لحومها على نطاق ضيق في الولايم ، ولكن هذه الظاهرة انتشرت وصارت من العادات المألوفة في عصر سلاطين الماليك .

— وخاصة من المدن الإيطالية — الذين نافسوا التجار الشرقيين في جلب الممالك إلى مصر والشام . وأدى ذلك إلى تنوع أصول الممالك تنوعا واضحا وبخاصة منذ القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر للميلاد ، فوجد منهم الاتراك والشراكسة والمغول والصقالبة والروم والاسبان والالمان . . . وغيرهم .

وقد انتسب هؤلاء الممالك غالبا إلى أسانذتهم ، أي سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار ، وأشرفوا على تربيتهم . فالممالك الناهرية بيبرس نسبوا إلى السلطان الظاهر بيبرس ، والممالك الاشرفية خليل نسبوا إلى السلطان الاشرف خليل ، وهكذا . وأحيانا كان ينسب الملوك إلى تاجره الذي جلبه ، كالممالك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان أحد كبار تجار الممالك ، وقد اشتهر بحسن بضاعته مما أدى إلى الانتساب إليه من باب الفخر . كذلك ربما نسب الملوك إلى قيمته التي اشترى بها ، إذا كانت كبيرة تستحق المباهاة لما لها من دلالة على عظم الصفات والمواهب التي يتحلى بها الملوك . مما أدى إلى ارتفاع ثمنه . ومن أمثلة ذلك قلاوون الالفى الذى اشترى بألف دينار (٨) .

هذه كلمة موجزة عن أصل الممالك الذين ظهروا على مسرح تاريخ الشرق الأدنى في فترة من أخطر فترات تاريخ العصور الوسطى . وبقي أن نعرف كيف تمكن هؤلاء الممالك من أن يحلوا محل سادتهم الايوبيين في حكم مصر والشام .

(٨) سعيد عبد الفتاح سنور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين

مقتل توران شاه وقيام شجر الدر في الحكم :

والبواقع أن انتصار المماليك البحرية على الصليبيين في المنصورة ثم في فارسكور (٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م) أدى الى ازدياد قوة شوكتهم ، واعتدادهم بأنفسهم ، لاعتقادهم بأنهم أصحاب الفضل في انقاذ البلاد والعباد من كابوس خطير . ومنذ أن انتصر المماليك البحرية على جيوش لويين التاسع ، أخذوا يرددون عبارة « نحن خلصنا مصر والشام بمسئوفنا من أيدي الفرنج »^(٩) .

وكان ذلك في الوقت الذي وصل الى مصر توران شاه ابن الصالح نجم الدين أيوب ، وصاحب الحق الشرعي في حكم البلاد ، كما سبق أن ذكرنا في القسم السابق . ومن الواضح أن المعظم توران شاه كان يريد أن يحسن بأهميته ومكانته ، ويباشر سلطاته على أوسع نطاق . لذلك وجد توران شاه في المماليك البحرية عقبة تعترض سلطانه ، مما أدى إلى سوء العلاقات بين الطرفين منذ بداية الامر .

ومما يوضح رغبة السلطان المعظم توران شاه في الاستئثار بالنفوذ والسلطان ما يشير اليه المقرئزي من أن توران شاه ما كاد يطمئن الى هزيمة الصليبيين في المنصورة وفارسكور ، حتى « أخذ في ابعاد رجال الدولة » فتخلص من كل من خشي منافستهم له من أبناء بيته ، ومنهم الملك المغيث عمر الايوبي الذي أخرجه توران شاه من قلعة الجبل الى الشوبك ، حيث اعتقل . كذلك أخرج الملك السعيد فخر الدين حسن الايوبي من مصر الى دمشق حيث اعتقل . أما كبار أمراء الدولة وموظفيها الذين اعتمد عليهم أبوه — مثل الامير حسام الدين نائب السلطنة — فقد عزلهم أيضا ، وأحل محلهم غيرهم^(١٠) .

(٩) ابن ابيك : كنز الدرر — الجزء الثامن ، المسمى « الدررة الزكية في اخبار الدولة التركية » . تحقيق هارمان — ص ٢٢ (القاهرة ١٩٧١) .
(١٠) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٨ .

بل ان توران شاه لم يحفظ الجميل لزوج أبيه شجر الدر: — التقي صانت له عرشه وملكه بعد وفاة أبيه — فأرسل اليها « يهددنا ويتوعدها » ، ويطلبها بما خلفه أبوه من مال وجواهر (١١) . وكان أن تخوفت شجر الدر من نوايا توران شاه « لما بدا منه من الهوج والخفة ، فكاتبته المماليك البحرية بما فعلته في حقه من تمهيد الدولة وضبط الامور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها » (١٢) .

ولم يكن المماليك في مصر في حاجة الى مزيد من التحريض ضد توران شاه . وتروى المصادر أن الفارس أقطاي الذي أرسلته شجر الدر لاستدعاء توران شاه من حصن كيفا ، كان قد حصل منه — بعد البشارة — على وعد بأن يؤمره . ولكن توران شاه عاد فنتكر لوعده ، فاستاء أقطاي ، وكتم الشر ، حتى حرك كتاب شجر الدر منه ساكنا . كذلك اثمد استياء المماليك من توران شاه عندما وجدوا أنه احتجب عنهم ، وانصرف الى الفساد ، وعبث بهم وبخطايا أبيه . وأخيرا أدرك البحرية سوء ما يضره لهم توران شاه عندما رأوه وهو سكران ذات ليلة يجمع الشموع بين يديه ، ويضرب رعوسها بالسيف واحدة بعد أخرى — حتى تنقطع — وهو يردد « هكذا أفعل بالبحرية » ، ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه . وهكذا « أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه ، وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد ما نفر قلبه منه ، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا ، وكانوا أطرافا أراذل ، فاجتمعت البحرية على قتله » (١٣) .

ولم يكد توران شاه يصل الى فارسكور ، ويمد السماط على العادة ،

(١١) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٨٢ (سنة ٦٤٨ هـ) .

(١٢) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٢٥٨ .

(١٣) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨١

حتى تقدم اليه واحد من البحرية — هو الامير بييرس البندقدارى —
وضربه بالسيف فأطار أصابع يده . وعندئذ أسرع توران شاه بالفرار
إلى برج خشبي كان قد نصب له في فارسكور ، وهو يصيح « من
جرجني ؟ » ، فقالوا له « الحشيشية » . ولكنه رد قائلاً « لا والله
الا البحرية . والله لا أبقيت منهم بقية !! »^(١٤) . وعندئذ أدرك
البحرية أنه لا بد لهم من الاسراع في العمل ، وقال بعضهم لبعض
« تمموه والا أبادكم » فبادروه بالهجوم على البرج . ولكن تورانشاه
احتوى بأعلا البرج ، وأغلق بابه ، والدم يسيل من يده . فأضرم البحرية
النار في البرج ، حتى اضطر تورانشاه الى الفرار منه ، وألقى بنفسه
في ماء النيل ، والبحرية تلاحقه بالنشاب حتى غرق ، فمات جريحاً
حريقاً غريقاً^(١٥) . . .

ويعتقد تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) انقرضت دولة بني
أيوب من أرض مصر ، بعد أن حكموها نحو من احدى وثمانين
سنة^(١٦) .

سلطنة شجر الدر :

على أن قتلة توران شاه وجدوا الامور غير مهياة تماماً لأن يتولى
أحدهم منصب السلطنة ، ولذلك أجمعوا على تولية شجر الدر ذلك
المنصب . ولا شك في أن شجر الدر تعتبر من ناحية الاصل والنشأة
أقرب الى المماليك ، ولذلك يعتبرها المقريزي « أول من ملك مصر من
ملوك الترك المماليك »^(١٧) . وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أن
شجر الدر كانت « خيرة دينة ، رئيسة ، عظيمة في النفوس » . بل

(١٤) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٦

(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٢٧١ (مخطوط) .

(١٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

(١٧) المصدر السابق — نفس الجزء والصفحة .

لقد وصفها بعضهم بأنها « كانت أحسن تدبيراً من زوجها الصالح
(نجم الدين أيوب) » . (١٨) .

ولكن قيام امرأة في حكم المسلمين « لم يقع قبلها ولا بعدها » .
وقد أحست شجر الدر نفسها بالهرج ، فكانت لا توقع باسمها على
المناسير ، وإنما جعل توقيعها « والدة خليل » . و خليل هذا ولد كانت
قد أنجبتة من الصالح أيوب ، وتوفى في حياة أبيه (١٩) . ونقش اسمها
على السكة (النقود) في صيغة « المستعمية الصالحة ، ملكة
المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل » . أما الخطباء في المساجد فكانوا
يقولون في الدعاء لها « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ،
عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعمية ، صاحبة الملك الصالح » .

ويفهم من هذا كله ، أن شجر الدر تخرجت من ذكر اسمها صراحة
في المناسبات الرسمية ، فضلاً عن أنها أرادت أن تضي على حكمها
صبغة شرعية ، فهي حيناً تتمسح بالخلافة العباسية ، وتحرص على
أن تلقب بالمستعمية إشارة إلى صلتها بالخليفة العباسي المستعصم (٢٠) .
وأحياناً تتمسك بلقب « أم خليل صاحبة الملك الصالح » إشارة إلى
صلتها بالبيت الأيوبي والملك الصالح نجم الدين أيوب بوجه
خاص (٢١) .

(١٨) القرملي : اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، ص ١٩٧ .

(١٩) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٧٤ (تحقيق المؤلف) .

(٢٠) Lane - Poole (S.) A Hist. of Egypt in the Middle
Ages, p. 255.

Ibid.

(٢١)

جلاء الفرنسيين عن مصر :

وكانت أولى المشاكل التي واجهت السلطنة شجر الدر أنها قامت في السلطنة ، والفرنسيون ما ازلوا رابضين على أرض مصر . حقيقة أن لويس التاسع كان أسيرا في المنصورة ، ولكن دمياط نفسها كانت في قبضة الفرنسيين تمثل قاعدة بحرية لهم ، يمكن أن يستغلها الغرب الأوربي في أنزال امدادات أو حملة جديدة تحاول تصحيح الاوضاع التي نجمت عن هزيمة الصليبيين في المنصورة وفارسكور . ولذلك كان على شجر الدر أن تبدأ بالتفكير في وسيلة لاسترداد دمياط أولا ، قبل الشروع في أى عمل آخر داخل البلاد أو خارجها .

وكان أن ندب الامير حسام الدين لمفاوضة لويس التاسع ، مما أدى الى مفاوضات طويلة بين الجانبين^(٢٢) . وبعد « محاورات ومراجعات » ، تم الاتفاق على أن يطلق المسلمون سراح لويس التاسع مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدما ، وأن يجلو الصليبيون عن دمياط . وبعد أن تم الاتفاق ، أرسل لويس التاسع الى الصليبيين بدمياط يأمرهم بتسليم المدينة للمسلمين . ولكنهم تمنعوا كثيرا ، حتى وافقوا أخيرا على ذلك . وفي الوقت نفسه ، قامت مرجريت زوجة لويس التاسع — وكانت بدمياط — بجمع نصف الفدية المتفق عليها . وعند ذلك تم الافراج عن الملك الفرنسى ، في حين ظل بقية الاسرى — وعددهم أكثر من اثنى عشر ألف أسير — في حوزة المسلمين لحين دفع باقى الفداء المتفق عليه^(٢٣) .

(٢٢) ابن واصل . مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٣٨٣ (مخطوط) .

(٢٣) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .

موقف بنى أيوب من السلطنة المملوكية :

جرت العادة منذ أن قام صلاح الدين بإعادة بناء الوحدة بين مصر والشام ، على أن تكون لسلطان مصر هيمنة على بقية الملوك والامراء في بلاد الشام . لذلك بادرت شجر الدر . — عقب سلطنتها — الى ارسال الخطيب أصيل الدين محمد لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطنة الجديدة^(٢٤) . ولكن لم يكن منتظرا من أمراء الايوبيين أن يرتضوا الخضوع لماليتهم ، لاسيما وأن بنى أيوب ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم مصر والشام جميعا ، بوصفهم أبناء البيت الايوبى .

وكان أن بدأت نار الثورة تشتعل فى الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة فى مصر ، فأبى ملوك بنى أيوب أن يعترفوا بما تم فى مصر من قيام المماليك فى حكم البلاد وعلان شجر الدر سلطنة . وكان المعظم توران شاه — وهو فى طريقه من كيفا الى مصر — قد عين الامير جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة فى دمشق ، فامتنع ذلك الامير عن الحلف لشجر الدر^(٢٥) . وكانت هناك عندئذ بدمشق فئة من المماليك أطلق عليهم اسم القيمرية^(٢٦) ، فامتنعوا أيضا عن الاعتراف بالولاء للنظام الجديد فى مصر . وهكذا اختلت الاوضاع فى بلاد الشام ، فاستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان الايوبى على مال مدينة غزة ثم اتجه الى الصببية فملكها^(٢٧) . وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٣٧٣ (مخطوط) .

(٢٥) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢٦) نسبة الى قلعة تير « وهى قلعة فى الجبال بين الموصل وخراسان ، ينسب اليها جماعة من اعيان الامراء بالموصل وخراسان ، وهم اكراد » — ياقوت : معجم البلدان .

(٢٧) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ص ١٨٢ ،

العسنى : عقد الجمان ج ١٨ ق ٢ ورقة ٣١٨ (مخطوط) .

الصالحى — نائب الكرك والشوبك — واتجه الى الشوبك حيث أخرج الملك المغيـث عمر الايوبى من الحبس ، « ومـلكه الكرك والشوبك وأعمالهما ، وحلف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه » (٢٨) .

ولم يلبث أن أخذ ملوك بنى أيوب يتكفلون بالشام للوقوف في وجه المماليك بمصر ، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للايوبيين . وكان أن كتب الامراء القيمرية من دمشق الى الناصر يوسف الايوبى صاحب حلب ، يعرفونه بالامتناع عن الحلف لشجر الدر ، ويطلبون منه الحضور الى دمشق لتسليمها اليه . وقد استجاب الناصر لتلك الدعوة ، وتسلم دمشق في سهولة ، فخلع على الامراء القيمرية ، وعلى جمال الدين ابن يغمور (٢٩) .

وأخيرا أدرك المماليك في مصر أن الامر ليس بالسهولة التى توقعوها ، وأن موقف الايوبيين في الشام يهدد بالقضاء على دولتهم انوليدة في مصر . وكان ذلك في الوقت الذى أخذ الخليفة العباسى المستعصم بالله يعيب على أهل مصر أنهم يخضعون لحكم امرأة ، فأرسل اليهم يقول « ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فاخبرونا حتى نسير اليكم رجلا » (٣٠) .

وكان أن أدرك المماليك في مصر « أن المرأة لا تقوم بسياسة المملكة » وأنه من المصلحة — لمواجهة كافة هذه المشاكل — أن تتزوج شجر الدر من الامير عز الدين أيبك — أتاكب العساكر — على أن تترك له شؤون الحكم وتتخلى عن السلطنة . وتمت هذه الخطوة في يوليو

(٢٨) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢٩) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨٥ (تحقيق المؤلف) ،
النويرى : نهية الأرب ، ج ٢٧ ورقة ٦٧ (إخطوط) .

(٣٠) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ — (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) « فخلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر »
وتنازلت عن الحكم لأبيك ، بعد أن ظلت في السلطنة ثمانين يوماً ،
أثبتت فيها « حسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها » (٣١) .

السلطان المعز أبيك التركمانى :

ولى المعز أبيك السلطنة في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ليجد نفسه
في مواجهة مشاكل خطيرة ، أهمها تهديد الأيوبيين بغزو مصر . وكان
أن لجأ المماليك في مصر الى العوبة لتخدير بنى أيوب ، فأتوا بطفل
صغير من أبناء البيت الأيوبي اسمه الأشرف موسى — عمره ست
سنوات — وأقاموه سلطاناً ليكون شريكاً للمعز أبيك في الحكم . وبذلك
صارت المراسيم تصدر باسم الملكين الشريكين — الأشرف والمعز —
« الا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير ، وجميع
الامور بيد المعز أبيك » (٣٢) .

غير أن هذه الخديعة لم تجز على الأيوبيين بالشام ، فجمعوا
قواهم بزعامة الناصر يوسف الأيوبي وزحفوا على مصر ، يريدون
محاوية المماليك والقضاء عليهم . وكانت قوة المماليك الرئيسية تتألف
من البحرية ، فدارت موقعة فاصلة بين الطرفين في ٢ فبراير سنة ١٢٥١ م
(٦٤٨ هـ) قرب العباسية بالشرقية ، هزم فيها الأيوبيون وفر الناصر
يوسف ورجاله عائدين الى الشام (٣٣) . ولا شك في أن هذه الموقعة
كن لها أثرها وأهميتها في تثبيت أقدام دولة المماليك الناشئة ، الامر

(٣١) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٣ (تحقيق هارمان) ،

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٧٣

(٣٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٦

(٣٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٣٧٢ (مخطوط) ،

ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٦ — ١٧ (تحقيق هارمان) .

الذي شجع المعز أيك بعد ذلك بشهر على ارسال جيش بقيادة فارس الدين أقطاي — زعيم البحرية — استولى على غزة •

وفي تلك المرحلة كان لويس التاسع زعيم الحملة الصليبية السابعة مقيما بالشام — عقب اطلاق سراحه من الاسر — حيث أخذ يرقب الموقف بين الايوبيين والماليك ، دون أن يجاهر بالانضمام الى جبهة معينة ، حتى يرى ما تسفر عنه الاحداث • فلما انجلى الموقف بانتصار الماليك وهزيمة الناصر يوسف ، بادر الماليك بتجديد اتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم مؤازرتهم للناصر يوسف والايوبيين • وفي سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) وافق الماليك في الاتفاقية الجديدة على أن يطلقوا سراح بقية أسرى الصليبيين في مصر ، وعلى اعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقى عليه من الفدية • بل أكثر من هذا وذاك ، تشير بعض المصادر الى أن الماليك في مصر وعدوا لويس التاسع باعطائه بيت المقدس اذا هو أيدهم ضد الصليبيين بالشام (٣٤) •

على أنه لم يقدر للعداء بين الماليك في مصر والايوبيين في الشام أن يطول ويستمر ، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعا في الشرق الادنى ، وتطلب منهم الوقوف صفا واحدا لمواجهة • ونعنى بهذا الخطر التتار الذين ابتلعوا أجزاء واسعة من المشرق الاسلامي ، واقتربوا من العراق ، مما جعل الخليفة العباسي المستعصم بالله يبادر بارسال رسوله الى الناصر يوسف الايوبي صاحب دمشق « يأمره بمصالحة الملك المعز (أيك) وأن يتفقا على حرب التتار » (٣٥) • ويبدو أن موجة الرعب التي أثارتها أخبار التتار ووحشيتهم جعلت الطرفين

(٣٤) العيني : عقد الجمان ، ج ١٨ ، ورقة ٣١٤ (مخطوط) ،
Grousset : Hist. des Croisades III, p. 502.

(٣٥) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ١١٣ ، القرظي :

السلوك ، ج ١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٥ •

بستجيبان في سهولة لدعوة الخليفة المستعصم ، فتم الصلح في ابريل سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) بين المماليك في مصر والايوبيين في الشام ، بشرط أن يكون للمماليك مصر حتى نهر الأردن ، وللأيوبيين ما وراء ذلك من بلاد الشام ، بمعنى أن تستولى سلطنة المماليك على غزة والقدس ونابلس « والساحل كله » فضلا عن مصر (٣٦) .

مقتل السلطان المعز أيك وشجر الدر :

ولم يكن موقف الأيوبيين العدائي بالشام هو المشكلة الوحيدة التي واجهت المعز أيك ، وإنما وجدت مشاكل أخرى داخلية أقلقته وهددت سلطانه في الفترة القصيرة التي ولى فيها الحكم . وجاءت أولى هذه المشاكل من ناحية المماليك البحرية الذين ازداد نفوذهم ازديادا خطيرا عقب انتصارهم على الصليبيين في المنصورة وفارسكور من ناحية ، ثم عقب انتصارهم على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسية من ناحية أخرى . ولا شك في أن هذه الانتصارات المتعاقبة أشعرت البحرية بقوتهم وقدرتهم فتمادوا في البنى والإفساد . ومن الثابت أن ازدياد نفوذ البحرية في ذلك الدور لم يهدد نفوذ أيك فحسب ، بل هدد أمن عامة الناس وسلامتهم . من ذلك ما يذكره المقرئ في حوادث سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) من أنه « كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ، ونهبوا الاموال ، وسبوا الحرير ، وبالغوا في الفساد ، حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم » (٣٧) .

وقد أدرك أيك مدى خطورة البحرية ، فأقطع زعيمهم الفارس أقطاي ثغر الاسكندرية ، ولكن ذلك لم يفلح في الحد من شرهم « فكثر

(٣٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٨٦ ، ابن أيك :

كنز الدر ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

(٣٧) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .

تمردهم ووطنيانهم» (٣٨) . ثم يعود المقرئ فيشير في حوادث سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) الى تفاقم خطر البحرية « وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين أقطاي — على المعز ، وكثر تعنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز (أيك) وهموا بقتله» (٣٩) . وعندما أحس أيك بنية البحرية ، ووجد أن زعيمهم أقطاي « طغى وتجبر ، وبغى وتكبر» (٤٠) ، استدرجه الى القلعة وقتله . وكان أن تجمع تحت أسوار القلعة نحو سبعمائة فارس من البحرية ، فالقى اليهم أيك برأس أقطاي . وكان أن خاف البحرية على أنفسهم ، وفروا الى الشام ، وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس البندقداري ، والامير سيف الدين قلاوون . وهناك دخلوا في خدمة بنى أيوب (٤١) .

أما المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت المعز أيك ، والتي أودت بحياته في نهاية الامر ، فكان مصدرها شجر الدر . ذلك أن هذه المرأة كانت من ذلك النوع من النساء الذي يهوى الحكم ويعشق السلطان . وقد سبق لشجر الدر أن تذوقت طعم الحكم عندما انفردت بمنصب السلطنة ثمانين يوما . مما جعل من الصعب عليها بعد ذلك أن تقبل الانزواء محرومة من كل نفوذ وجاه ، ويبدو أنها ندمت على أنها تنازلت عن الحكم لأبيك ، فأخذت تفكر في وسيلة أو أخرى للتخلص منه ، مثلما تخلصت من توران شاه من قبل . ويذكر المؤرخ ابن تغرى بردى أن شجر الدر سيطرت على زوجها المعز أيك سيطرة تامة ، بحيث صار في جميع أحواله « ليس له معها كلام» (٤٢) . ثم انها لم تكف بالاستبداد بأمور المملكة ، بل منعت أيك من الاجتماع بزوجته أم ابنه على « وألزمته بطلاقها » . وعندما استبد الضيق بأبيك ، أخذ

(٣٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٨٤ .

(٣٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٨٦ .

(٤٠) ابن أيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٥ .

(٤١) ابن الأندلس : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .

(٤٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .

يفكر في التخلص من شجر الدر بقتلها^(٤٣) ، في الوقت الذي اتصلت هي بالناصر يوسف الايوبى بالشام ، فبعثت اليه بهدية « وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز (أيبك) والتزوج به (بالناصر) وتمليكه مصر » . ولكن الناصر يوسف خشى أن يكون في الامر خدعة ، فلم يجيبها بشيء^(٤٤) .

وكانت أخبار مؤامرات شجر الدر تصل أولا بأول الى أيبك ، فرأى أن يحتاط لنفسه ، وقرر انزالها من القلعة . وهكذا أمسى الزوجان — أيبك وشجر الدر — يتربصان كل للآخر . وعندما بلغت الاشاعات مسامع شجر الدر بأن زوجها أيبك شارع في الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، « تخيلت منه أنه ربما عزم على ابعادها أو اعدامها ، لأنه سئم من هجرها واستطالتها ، فعاجلته وعزمت على انفك به ، واقامة غيره في الملك »^(٤٥) .

وكانت شجر الدر أسرع من أيبك في الحركة ، فحرضت جماعة من الخدم على قتله بالحمام . وأسهمت هي بنفسها في تنفيذ الجريمة : فأخذت « تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرع اليها الى أن مات » .

ولكن ممالك المعز أيبك — بزعامه كبيرهم قطز — لم يغفروا لشجر الدر فعلتها ، فقتلوا خنقا بعد قليل ، وألقوا بجثتها على باب القلعة من ناحية القرافة . وبذلك خلا المسرح من أيبك وشجر الدر جميعا (سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م)^(٤٦) .

(٤٣) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٥ .

(٤٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٢ .

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧٥ .

(٤٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

الفصل الثاني

قطز والتتار

سلطنة علي بن ابيك :

أحدث موت ابيك وشجر الدر فراغا ضخما في صفوف المماليك ، حيث أنه فتح الباب على مصراعيه أمام القوى المتنافسة على الحكم ، وبخاصة بين كبار أمراء المماليك . ومن المعروف أن المماليك لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الحكم ، وإنما كان شعارهم (الحكم للأقوى) . وكانت التمثيلية التي تتكرر عادة عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم ، هي أن يسرع الأمراء الى تنصيب ابن السلطان المتوفى ليحل في الظاهر محل ابيه ، وذلك حتى تهدأ الأمور وتستقر الاوضاع ، ويظهر بين صفوف الأمراء من يتفوق على منافسيه ، وعندئذ لا يصعب عليه خلع ذلك الابن واحلال نفسه محله في الحكم .

وعندما وجد أمراء المماليك أنفسهم — بعد مقتل ابيك — لا يستطيعون الاجماع على أحدهم ليتولى منصب السلطنة ، استقر رأيهم على اختيار علي بن ابيك ، فأعلن سلطانا عقب مقتل ابيه وقبل مقتل شجر الدر سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) . وقد لقب السلطان الجديد بالمنصور وكان في الخامسة عشر من عمره ، فأقيم الأمير سيف الدين قطز — أتابكا له ، ونائبا للسلطنة « وصار مدبر الدولة » (١) .

ويبدو أن أمراء البحرية — الذين كانوا بالشام — أدركوا عندئذ أن فرصتهم قد حانت للعودة الى مصر وتحقيق طموحاتهم ، فاتصلوا

(١) القرينى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٥ .

(٢ م — الأيوبيون والمماليك)

بالمك المغيـث عمر الايوبي — صاحب الكرك — وزينوا له غزو مصر (٢) .
وكان أن استجاب الملك المغيـث لتلك الدعوة ، واتجه الغزاة عن طريق
الشرقية قاصدين القاهرة ، ولكن قطز استطاع صدهم وأنزل بهم الهزيمة
عند الصالحية (٣) .

وفي الوقت الذي كان السلطان الصغير — المنصور نور الدين على
ابن أيبيك — يقضى وقته في اللعب وركوب الحمير بالقلعة ، اذا بالأخبار
تُصل الى مصر بأن التتار استولوا على بغداد سنة ١٢٥٨ م (صفر
٦٥٦ هـ) ، وأنهم « رموا السيف فيها » ، فقتلوا الخليفة المستعصم بالله
العباسي وأحرقوا المساجد والمدارس ، وسفكوا الدماء حتى جرت في
الطرق (٤) . ، وبدلاً من أن يتدبر الناصر يوسف الأيوبي ذلك الخطر
الذي صار على أبواب الشام ، اذا به يرسل ابنه الملك العزيز الى
هولاكو طالبا مساعدته في الاستيلاء على مصر من المماليك . وكان أن
استجاب هولاكو لتلك الدعوة ، وقرر ارسال قوة من عشرين ألف فارس
الى الشام . وعندما جاءت أخبار تهديد التتار لبلاد الشام ، عقد
مجلس بالقلعة للتشاور في الأمر ، فوجد الأمير سيف الدين قطز فرصته
قد حانت ، وأخذ ينكر على السلطان الصغير الملك المنصور على بن أيبيك
سلوكه ، وقال « لا بد من سلطان قاهر يقا تل هذا العدو ، والملك المنصور
صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة !! » . ولم يلبث أن انتهر قطز فرصة
خروج الأمراء للصيد (٦٥٧ هـ — ١٢٥٩ م) ، وقبض على المنصور
على وأخيه وأمهما . وبذلك انتهى حكم المنصور على بعد أن استمر
عامين وثمانية أشهر وثلاثة أيام (٥) .

(٢) كانت العلاقة قد ساءت بين البحرية والناصر يوسف الايوبي ،
فطردهم من دمشق ، وعندئذ « انتموا الى الملك المغيـث عمر » .
ابو القدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .
(٣) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٢ (تحقيق محمد
مصطفى زيادة) .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٠ .

(٥) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

سلطنة سيف الدين قطز :

ويبدو أن سيف الدين قطز تخوف من غضب الأمراء الذين أنكروا عليه ما فعله بالمنصور على ، لذلك اعتذر لهم بأنه ما عَزَل المنصور على الا تخوفا من التتار من ناحية ، ومن الملك الناصر يوسف الايوبي من ناحية أخرى ، « وأنى ما قصدت الا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم »^(٦) .

وهكذا أخذ قطز يسترضى الأمراء « حتي تمكن » ، وعندئذ أمسك بزمام الأمور بيد من حديد « فقبض على الأمراء من كل جهة مثل النساء ، وأودعهم الاعتقال »^(٧) . وعندما أطمئن الي أنه ثبت أقدامه في الحكم ، أخذ يعد العدة لمواجهة الخطر الأكبر الذي هدد الشام ومصر عندئذ ، وهو خطر التتار .

ذلك أن التتار زحفوا من العراق على الشام ، وانتقلوا في سرعة مذهلة من ديار بكر الى آمد يريدون حلب . ولم يوفق المسلمون في الدفاع عن حلب ، فدخلها التتار وقتلوا ونهبوا وسلبوا « وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم »^(٨) .

وكان أن روعت تلك الحوادث المتلاحقة المسلمين ، وعندئذ أفاق الناصر يوسف لحقيقة الخطر التتري ، فأرسل الي قريبه المغيث عمر صاحب الكرك ، والمظفر قطز صاحب مصر ، يطلب منهما النجدة السريعة . على أنه يبدو أن كثيرين خافوا عاقبة مقاومة التتار ، ونادوا

(٦) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٧ — ١٨ . هذا ، ومن الثابت أن قطز كان مملوكا للسلطان الملك المعز ابيك التركماني ، وأنه لم يكن من فرقة المماليك البحرية التي انشأها الصالح نجم الدين أيوب (نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧ ، حاشية ٣) .

(٧) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٩ (تحقيق هارمان) .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٦ .

بأنه لا فائدة من تلك المقاومة بعد، أن غدا « التتار ملاك الدنيا من مطلع الشمس الى حدود الفرات »^(٩) . من ذلك أن أحد الأمراء — هو الأمير زين الدين الحافظي — أخذ يعظم شأن هولاء ، ويشير بأنه لا يقناتل ، وبأن الأوفق الدخول في طاعته . ولكن الأمير بييرس البنذقدارنى صاح به ، وضربه وسببه وقال « أنتم سبب هلاك المسلمين !! »^(١٠) .

ولم يرض الأمير ركن الدين بييرس — ومن معه من البحرية — عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام ، فساروا الى غزة . ومن هناك أرسل بييرس الى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر التتار . وفي الحال استجاب قطز للدعوة ، وأرسل الى بييرس يطلب منه القدوم الى القاهرة ، حيث استقبله بدار الوزارة ، وأقطعته قليوب وأعمالها^(١١) .

موقعة عين جالوت :

اضطربت أحوال الشام نتيجة للغزو التتارى . ذلك أنه لم يمض على استيلاء هولاء على حلب ستة عشر يوما حتى شرع في الزحف على دمشق « فهرب كثير من الدماشقة بعدما باعوا حواصلهم ، وخرجوا على وجوههم جافلين ، متفرقين في البلاد والجبال الى الحصون والى ديار مصر »^(١٢) . وكان أن دخل التتار دمشق ونهبوها ، ثم ساروا الى بعلبك ، واتجهت طائفة منهم الى غزة ، وخرّبوا بانياس « وأسعروا البلاد حرباً وملاوها قتلاً ونهباً »^(١٣) .

ولم يلبث أن تسلم قطز رسالة من هولاء يهدده فيها ويطلب منه

(٩) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٥
(١٠) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٦ .
(١١) ابن واصل : منج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ (مخطوط) .
(١٢) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٤ .
(١٣) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٦ .

الاستسلام ويقول « يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطه على من حل به غضبه . . . فأتعظوا بغيركم . . فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكاه . . . » (١٤) . ولكن قطز لم يجبن أمام ذلك التهديد ، فضرب مشورا — أى عقد مجلس مشورة يضم كبار الأمراء — واستقر الرأي على ضرب رقاب رسل هولاكو والاستعداد لملاقاة التتار . وفعلا قطعت رؤوس الرسل وعلقت على باب زويلة ، فكانت أول ما علق على ذلك الباب من رؤوس التتار . وكان عددها نيفا وأربعين رأسا (١٥) .

ولما وجد قطز أن بعض الأمراء مترددون في الخروج لمحاربة التتار ، صاح فيهم « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ؟ ! أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختار ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » (١٦) .

وفي الوقت الذى أخذ قطز يعد العدة للقاء التتار ، أوفد بيبرس على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبار العدو . وكان التتار قد وصلوا الى غزة ، فلما اقترب منها بيبرس ، انسحبوا منها ، فاحتلها المماليك . وبعد قليل وصل قطز على رأس بقية الجيش . ولم يشأ قطز أن يضيع الوقت فزحف مباشرة في اتجاه بحيرة طبرية . ويبدو أن وصول ذلك الجيش الكبير من مصر الى الشام أزعج الصليبيين في عكا ، فخرجوا الى السلطان قطز ، وعرضوا عليه المساعدة . ولكنه

(١٤) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٦٣ .

(١٥) هذا ما ذكره ابن أبيك في كنز الدرر ، ج ٨ ص ٤٨ . أما المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٩ . فيقول ان رسل التتار كانوا اربعة « وسط واحد بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووسط آخر بظاهر باب زويلة ، ووسط الثالث بظاهر باب النصر ، ووسط الرابع بلريدانية ، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة » .

(١٦) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٨ .

شكرهم ، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وهددهم إذا هم اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين ، منذرا إياهم بأنه في هذه الحالة سيغوذ إليهم ويفقاتلهم قبل أن يقاتل التتار (١٧) .

وفي تلك الأثناء كان هولاء قد عاد إلى حاضرة التتار في آسيا ، وترك أحد أمراءه — واسمه كيتغا — لينوب عنه في الشام . وعندما علم كيتغا بوصول قطز على رأس الجيش المصرى إلى الشام ، قرأ رأيه على منازلة المسلمين ، فاتجه صوب عين جالوت قرب بيسان ، في فلسطين . وفي موقعة عين جالوت التي دارت بين المسلمين والتتار سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، تفوق التتار في أول الأمر ، ولكن قطز ثبت في القتال . ويقال أن قطز ألقي خوفه عن رأسه على الأرض ، وصاح « وإسلاماه » ، ثم حمل على التتار حملة صادقة زرعهم بها ، فقتل كيتغا وكثير من رجاله ، ومن نجا من التتار ولى الأدبار ، « وركب المسلمون اكتافهم أسرا وقتلا » (١٨) .

ولا شك في أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة في التاريخ . ومهما يقال من أن التتار كانوا بوصولهم إلى عين جالوت قد بلغوا نهاية الشوط في حركتهم التوسعية في اتجاه بلاد الشام ومصر ، ومن أنه كان لا بد وأن تنتهى تلك الحركة إلى التوقف عند نقطة معينة . فإن الذى يعنينا في هذه الدراسة هو أن موقعة عين جالوت أنقذت الشام ومصر من خطر التتار ، وجعلت دولة تتار فارس تقف عند نهر الفرات . وإذا كان التتار قد استمروا بعد ذلك يهددون الشام ، فإن ذلك التهديد — بعد عين جالوت — لم يتخذ شكل غزوات كاسحة ، مثلما كان الحال من قبل ، وإنما اتخذ شكل اغارات منقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تلوح لهم مقدمة الجيوش الإسلامية الآتية من مصر .

(١٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(١٨) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩ — ٥٠ .

أما عن الموقف في بلاد الشام عقب عين جالوت ، فيتلخص في قيام السلطان قطز بحركة تطهير سريعة في البلاد ، فاسترد دمشق من التتار ، في حين قام الأمير ركن بيبرس بمطاردة التتار حتى حلب (١٩) .

نهاية قطز :

وفي الفترة القصيرة التي قضاها قطز ببلاد الشام بعد عين جالوت ، تمكن من أن يبسط سيطرة دولة المماليك على الشام ، وأن يعيد الحياة الى مجراها الطبيعي في تلك البلاد . واذا كان قطز قد سمح لبعض أمراء بنى أيوب بأن يعودوا الى ولاياتهم في حمص وحماة ، فإن هؤلاء اعترفوا بالتبعية لسلطنة المماليك في مصر ، وتمهدوا بدفع الجزية للسلطان قطز ، والدعاء له على المنابر .

أما في مصر ، فقد كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع ، فدقت البشائر بالقلعة ، وأقيمت الزينات بالقاهرة ، وأخذت جماهير الناس يستعدون لاستقبال بطل عين جالوت عند عودته . ولكن شاعت الظروف ألا يعود قطز مرة أخرى الى القاهرة ، وأن يقتل غدرا وهو في طريق عودته اليها . ذلك أن السلطان قطز كان قد وعد الأمير ركن بيبرس باعطائه ولاية حلب تقديرا لجهوده وبلائه في محاربة التتار . ولكن ما كاد يتم طرد التتار من الشام ، وتسترد حلب من التتار ، حتى تنكر قطز لوعوده ، وفوض نيابة السلطنة بحلب الى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (٢٠) . ومنذ ذلك الوقت دبت الوحشة بين قطز وبيبرس « فاحترس كل منهما من الآخر ، وعمل في القبض عليه » . ولا شك في أن قطز أظهر قصر نظر وعدم مرونة بهذا التصرف ، لأنه لم يدرك ما حققه الأمير ركن الدين بيبرس من مكانة وأهمية من خلال المارك التي خاضها ضد التتار . ولو كان قطز على شيء من الحكمة لألقى حلب للأمير بيبرس وألهاه بها عن منافسته في

(١٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨١ — ٨٢ .

(٢٠) أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

مصر ، وبذلك كان في استطاعة قطز أن يباشر سلطانه في مصر دوز
أو حاقده .

وهكذا اتجه موكب المحاربين الى القاهرة ، يضم قطز
وقد أضر كلاهما سوءا للآخر . ويقال ان بيبرس حدث ج
الأمراء في قتل السلطان قطز ، فأقروه على رأيه « وساروا معه
الفرصة » . وعندما اقترب الجمع من الصالحية ، انصرف
الصيد — صيد الارانب — فثارت أرنب وجمحت ، وعندئذ
أن يحترز على نفسه ، وتعقب الأرنب حتى ابتعد عن رفاقه . وعند
المتأمرون ، حتى لم يبق معه غيرهم ، فتقدم بيبرس حتى اذ
السلطان ليطلب منه طلبا^(٢١) . وعندما أجابه قطز الى طلب
برغبته في تقبيل يد السلطان اعترافا بفضله . وما كاد قطز
حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة ، في ح
عليه بقية المتأمرين بسيوفهم حتى أجهزوا عليه^(٢٢) . وعلى ما
انتهت حياة بطل عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

(٢١) ذكرت بعض المصادر ان بيبرس طلب من السلطان
سبى التار ، فأنعم بها عليه (المقرئى : السلوك) ، ج ١ ص ٣٥
وذكرت مصادر أخرى ان بيبرس شفع عند السلطان في
فأجابه (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة) ، ج ٧ ، ص ٨٣ — ٤
(٢٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ .

الفصل الثالث

الظاهر بيبرس وتأسيس دولة البحرية

سلطنة بيبرس :

من الأمور المألوفة في عرف المماليك أن يحل القاتل في سهولة محل القتيل في دست السلطنة ، ما دام القاتل قد أظهر من الشجاعة والقوة ما حقق له التفوق على زملائه من الأمراء . وبعبارة أخرى فان شعارهم كان « من قتل ملكا أصبح هو الملك » (١) .

وقد تردد في المصادر المعاصرة أنه بينما كان قطز لا يزال ملقى على الأرض لم يدفن ولم تجف دماؤه بعد ، تقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب وبايع الأمير بيبرس بالسلطنة ، ثم تبعه بقية الأمراء ، وذلك قرب الصالحية (٢) . ويروي المقرئى أن الأمراء الذين قتلوا قطز اتجهوا بعد ذلك الى الدهليز السلطاني بالصالحية - وأيديهم مخصبة بالدماء - فلقبهم هناك الأمير أقطاي المستعرب وسألهم : « من قتله منكم ؟ » فقال بيبرس : « أنا قتلته » ، فرد عليه أقطاي « يا خوندا ! اجلس في مرتبة السلطنة مكانه ! » . وبعد أن بايع أقطاي وبقية الأمراء بيبرس بالسلطنة ، قال له أقطاي « لا تتم السلطنة الا بدخولك قلعة الجبل » ، فركب بيبرس وصحبته الأمراء قاصدين القاهرة (٣) .

(١) عبد العزيز بن عبد الله الخويطر : الملك الظاهر بيبرس ،

ص ٣٠ .

(٢) ابن شاعر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ، ورقة ١٨٦

(مخطوط) .

(٣) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ (تحقيق

محمد مصطفى زيادة) .

وكانت القاهرة قد تزينت لاستقبال السلطان المظفر قطز ، والناس في فرح وسرور بالغ لما حدث من انكسار القطار ونجاة مصر من شرهم ، فاذا بالنادى يطوف شوارع القاهرة وهو يصيح « ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لمسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس » . ولا يخفى علينا ما أصاب الناس من غم عند سماع هذا الخبر ، لأن بشرى الانتصار على التتار في عين جالوت جاءتهم مقرونة باسم قطز . هذا الى أن الناس لم ينسوا عندئذ ظلم البحرية وعسفهم ، « فخافوا من عودة دولة المماليك البحرية ، وسوء مملكتهم وجورهم »^(٤) .

أما بيبرس فقد قصد القلعة حيث استقبله نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدير ، وكان قد خرج للقاء قطز ، ولكن بيبرس أخبره بما تم ، فلم يجد نائب السلطنة وغيره من الأمراء غضاضة في أن يحلفوا للسلطان الجديد (٦٥٨ هـ — أكتوبر ١٢٦٠ م) . وهكذا استقر بيبرس في القلعة « وجلس في ايوان ملكه ، وحلف الناس على اختلاف طبقاتهم ، فما بقي أحد الا حلف ، واستقام الأمر بغير منازع ، فأمر ونهى ، وبذل الاموال ، وأمر وأمر ، وولى وعزل »^(٥) .

وفي تلك المرحلة الاولى من سلطنته ، أخذ بيبرس يتقرب من الخاصة والعامة ، فخفف عن الاهالى عبء الضرائب ، وألغى الاموال التي كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة التتار ، كما عفا « عن بالحبوس من أصحاب الجرائم ، وأفرج عنهم »^(٦) .

وقد تلقب بيبرس في أول الأمر بلقب « القاهر » ، ولكن الوزير زين الدين بن يعقوب أشار عليه بأن يغير لقب « القاهر » الى

(٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٧ .

(٥) محيى الدين بن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٧٠ (تحقيق عبد العزيز الخويطر) .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ،

ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٦٣ .

« الظاهر » ، لأن اللقب الاول « ما تلقب به أحد فأفلاح » . فوافق بييرس على ذلك ، وغدا لقبه « السلطان الملك الظاهر ركن الدين بييرس البندقدارى »^(٧) . وأرسل الى الملوك والامراء في الشام واليمن وسائر الاقطار ليعترفوا بسلطنته .

على أن الأمور لم تتم لبييرس في سهولة تامة ، إذ امتنع بعض الامراء عن الاعتراف له بالولاء ، مما هدد سلطانه في ذلك الدور الأول من حكمه . وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قطز فد ولاءه على دمشق فلما علم بمقتل قطبز ثار وأعلن نفسه سلطانا ، كما طلب من أصحاب حمص وحماه الدخول في طاعته ، ولكنها امتنعا^(٨) . ولم يتوان بييرس في القضاء على هذه الثورة التي هددت سلطانه بالشام ، فأرسل حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار ، نجحت في القبض على الأمير علم الدين سنجر واحضاره الى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (يناير ١٢٦١ م)^(٩) . وقد ولي الظاهر بييرس الأمير علاء الدين البندقدار على دمشق وكلفه بالقبض على بعض الامراء الذين كان بييرس متخوفا منهم . وكان أن فر أحد أولئك الأمراء — وهو شمس الدين آقوش البرلى — الى حلب ، واستولى عليها بمساعدة أعوانه ، ثم اعترم السير الى مصر لغزوها . ولكن السلطان الظاهر بييرس أرسل حملة قضت على جيش البرلى ، وفر البرلى نفسه ، حتى قبض عليه بييرس فيما بعد ، بعد أن استنسلم في القاهرة عام ٦٦٠ هـ (أكتوبر ١٢٦٢ م)^(١٠) .

ومع ذلك ، فقد ظل بييرس يخشى قيام ثورة في الشام ، وبخاصة من جانب بنى أيوب . ويبدو أن بييرس كان متخوفا من المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك ، فتحايل عليه حتى استحضره لمقابلته في بيسان ،

-
- (٧) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ .
 - (٨) سعيد عاشور : الظاهر بييرس ، ص ٢٦ وما بعدها .
 - (٩) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٤ — ٤٥١ .
 - (١٠) عبد العزيز الخويطر : الملك الظاهر بييرس ، ص ٣٣ .

وعندئذ قبض عليه رغم الأمان المعطى له ، واعتقله بالقلعة ، حتى قتل بعد ذلك (١١) .

ولم تكن جميع الثورات التي واجهت بييرس في مستهل حكمه في بلاد الشام ، وإنما قامت ثورة في القاهرة استهدفت إعادة الدولة الفاطمية . وقد استولى الثوار على ما في دكاكين السيوفيين من أسلحة ، وشقوا القاهرة وهم يصيحون « يا آل علي » . ولكن جند بييرس أحاطوا بالثوار وقضوا على حركتهم في سهولة ، وبذلك خمدت الفتنة (١٢) .

إحياء الخلافة العباسية :

ويبدو أن هذه الثورات التي اعترضت طريق بييرس في بداية حكمه جعلته يشعر بأنه في حاجة إلى دعامة كبرى يسند إليها سلطانه ، بعد أن نظر إليه كثير من المعاصرين من زاوية أنه قاتل السلطان قطز — قاهر التتار — ومغتصب العرش منه (١٣) . هذا إلى أنه لا يخفى علينا أن المماليك بوجه عام شعروا منذ اللحظة الأولى التي استأثروا فيها بحكم البلاد أنهم انتزعوا الملك من سادتهم بنى أيوب ، بدليل تحاييلهم على مشاعر الناس بمحاولة إشراك بعض أبناء البيت الأيوبي معهم في الحكم ، كما سبق أن أشرنا . فإذا أضفنا إلى ذلك تجريح المعاصرين للمماليك بسبب أصلهم غير الحر ، أدركنا في النهاية العوامل الخفية وراء تحمس السلطان الظاهر بييرس لإحياء الخلافة العباسية في مصر ، حتى يتخذ منها سندا يسند إليه حكمه بوجه خاص ، وحكم المماليك بوجه عام .

(١١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(١٢) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(١٣) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بييرس في مصر ،

ص ٥٠ وما بعدها .

والواقع أن سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي القتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خلق موقفا غريبا في العالم الاسلامى ، لم يألفه المسلمون منذ وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام . وحسبنا أن بعض المؤرخين المعاصرين يستهلون حولياتهم في تلك الفترة بعبارة « لم يكن في هذه السنة خليفة فيذكر » أو « لم يكن للمسلمين خليفة فيذكر. في هذه السنة »^(١٤) . وفي وسط ذلك الفراغ الكبير الذى أحس به المسلمون ، حاول بعض الحكام في الدولة الاسلامية احياء الخلافة لبلده ، ليدعم مركزه ويكتسب تشريفا من ناحية ، ويجعل بلاطه قبلة بقية حكام العالم الاسلامى من ناحية أخرى . ولكن السلطان الظاهر بيبرس كان أسرع من هؤلاء جميعا ، فلم يكد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسى الى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه الى مصر فورا ، مع اتخاذ كافة الاحتياطات لضمان سلامته وراحته^(١٥) .

أما ذلك الأمير ، فكان أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسى ، وقد وصل فعلا الى مصر ، فاستقبله بيبرس بالحفاوة والاكرام . ثم عقد السلطان مجلسا بالقلعة ، دعا القضاة والعلماء والأمراء ليشهدوا على صحة نسب ذلك الامام . وبعد اثبات صحة الشهادة ، بايع السلطان الظاهر بيبرس الخليفة الجديد — الذى اقب بالمستنصر بالله — وتبعه القضاة والعلماء وسائر الناس . ومن ناحية أخرى قام الخليفة بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة ، وتم ذلك في حفل كبير اقيم بعد أيام . وبذلك تحقق لبيبرس ما أراد ، وصار يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية العليا في العالم الاسلامى ، وهى الخلافة^(١٦) .

ولكن يبدو أن بعض الناس تشككوا في صحة نسب الخليفة

(١٤) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٨ ، ٤٥ ، ٦٧ (تحقيق هارمان ، القاهرة ، ١٩٧١) .

(١٥) النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٨ ، ص ١٨ (مخطوط) .

(١٦) محبى الدين بن عبدالظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك

الظاهر ، ص ١٠٠ (تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦) .

المستتصر بالله ، وذلك على الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الظاهر بيبرس ، وعلى الرغم من شهادة الشهود • ويبدو هذا التشكك واضحا في الطريقة التي أشار بها بعض المؤرخين الى الخليفة الجديد ، وهي طريقة لا تخلو من الغمز الواضح • من ذلك ما يقوله المؤرخ أبو الفدا في حوادث سنة ٦٥٩ هـ « وفي هذه السنة قدم الى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر • • • وكانت العمامة تلقب الخليفة المذكور بالزراييني • وبرز الملك الظاهر والخليفة الاسود المذكور في رمضان من هذه السنة ، وتوجها الى دمشق • • • » (١٧) • أما مفضل بن أبي الفضائل ، فقد أطلق على الخليفة الجديد اسم «المستتصر بالله الأسود» (١٨) • ومن الواضح أن هذا الاسلوب لا يخلو من غمز لا يتفق مع مكانة الخلافة •

أما السلطان الظاهر بيبرس ، فحسبه أن الخليفة المستتصر بالله قلده « البلاد الاسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفار » ، وبذلك أضفى على نفسه وعلى حكمه صبغة شرعية • ولكن يبدو أن السلطان عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكا في الملك • ذلك أن السكة — النقود — صارت تضرب باسم السلطان والخليفة ، كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان (١٩) • ولعله لم يرغب عن بيبرس أنه اذا حدث صدام في المستقبل بينه وبين الخليفة ، فإن الرأي العام في العالم الاسلامي سيقف الى جانب الخلافة بوصفها السلطة الشرعية الاولى في حكم المسلمين منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام •

(١٧) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ • جاء في اللغة أن الزرب والزربية ، حظيرة الغنم ، والزراييني الوسائد •
(١٨) مفضل بن أبي الفضائل : النهج الحديد ، ص ١٠٥ •
(١٩) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٠٠ — ١٠١ •
! تحقيق عبد العزيز الخويطر ،

لذلك أخذ بييرس يفكر في التخلص بسرعة من الخليفة المستنصر ، بعد أن قضى وطره من الخلافة ، وحصل منها على ما كان يأمل فيه من تفويض بالسلطنة . وكان أن ادعى بييرس أنه يرغب في إعادة الخليفة الى قاعدة العباسيين في بغداد . لذلك خرج السلطان الظاهر مع الخليفة المستنصر الى دمشق ، وهناك ترك بييرس الخليفة يخترق الصحراء ، ومعه جماعة من العربان والتركمان قاصدا العراق (٢٠) . ويرى البعض أنه لو كان بييرس جادا في استرداد بغداد من التتار ، وإعادة الخلافة العباسية الى قاعدتها الاولى ، لسار بنفسه صحبة الخليفة المستنصر الى العراق ، ولأعد للأمر عدته ، وجمع جيشا كبيرا يقوى على منازلة التتار . ولكن بييرس — وهو خير من يعرف قوة التتار وخبرها — ترك الخليفة يذهب لمحاربتهم في بضع مئات من الرجال ، مما أدى الى مقتل الخليفة ومعظم رجاله على أيدي التتار قرب هيت (٢١) ، في حين هرب من كان معه من العربان والتركمان (٢٢) . ولم يعثر « للخليفة المستنصر على خبر ، ولا علم أى أرض أخذته ، فمنهم من ادعى أنه لم يزل يقاتل حتى قتل في المعركة ، ومنهم من قال خرج ونجا مجروحا فمات . وجملة الحال أنه عدم ، والله أعلم » (٢٣) .

والواقع ان أحكام الباحثين والمؤرخين تضاربت حول موقف الظاهر بييرس من تلك الواقعة . فمن قائل انه حزن على موت الخليفة المستنصر وأبدى أسفه على ما أنفقه من أموال في الاعداد لتلك الحملة . ويرى هذا الفريق أن السلطان أعد لتلك الحملة « وأنفق أموالا كثيرة ، واشترى مائة مملوك كبارا وصغارا . . وأعطى كلا منهم ثلاثة رؤس

(٢٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٢١٨ ، ابن شاذان الكلبى : عيون التواريخ ، ج ٢٠ ورقة ٤٣٠ (مخطوط) .

(٢٢) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٨٢ (تحقيق هارمان) .

(٢٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٨٢ — ٨٤ .

من الخيل وجملا لعدته ، ورتب سائر ما يحتاج اليه الخليفة » (٢٤) .
ويؤكد أصحاب هذا الرأي أن بييرس كان جسادا في نصرته
للخليفة ، وأنه لو كان يستهدف الخلاص من المستنصر فإنه لم يكن ليمجز
« عن التفكير في حل أفضل من ارسال الخليفة ليلقى حتفه .. دون أن
يعرض سمعة المسلمين للخطر ... ولما سارع بتنصيب خليفة عباسي
آخر عند الوهلة الاولى التي سمع فيها عن وجوده ... » (٢٥) .

أما الرأي الآخر فيدين بييرس ويتهمه بالرغبة في التخلص من
المستنصر — كما سبق أن أوضحنا — ويستند هذا الرأي الى ما يردده
بعض المؤرخين — مثل المقریزی — من أن بييرس « لم يبعث مع الخليفة
سوى ثلثمائة فارس » ، وهذه قوة يتعذر استطاعتها الصمود في وجه
القتار. (٢٦) .

ونستطيع نحن أن نوفق بين الرأيين فنقول ان نوايا بييرس تجاه
الخليفة المستنصر كانت في أول الامر طيبة ، وأنه كان جادا في احياء
الخلافة العباسية ، وأنه حتى اللحظة الاخيرة — وهو مع الخليفة
بدمشق — كان « قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس
حتى يستقر ببغداد » حسبما يذكر المقریزی . ولكن حدث أن « خلا
أحدهم بالسلطان ، وأثار عليه ألا يفعل (فان الخليفة اذا استقر أمره
ببغداد نازعك وأخرجك من مصر) . فرجع اليه الوسواس ولم يبعث
مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس » (٢٧) .

فمخاوف بييرس من الخليفة المستنصر لم تظهر الا عندما

(٢٤) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨ (تحقيق محمد
مصطفى زيادة) .

(٢٥) عبد العزيز الخويطر : الظاهر بييرس ، ص ٢٨ — ٢٩
١٩٧٦ م) .

(٢٦) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٢ .

(٢٧) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

وسوس بعض الوشاة في قلبه وذلك في اللحظة الاخيرة قبل خروج الخليفة المستنصر الى العراق . وعندئذ أدرك بييرس خطورة احياء الخلافة في بغداد ، ورأى من الأوفق أن تظل تلك الخلافة تحت اشرافه في القاهرة .

ومن هذا المنطلق قام بييرس باستدعاء أمير آخر من بنى العباس ليحل محل الخليفة المستنصر القليل . وكان هذا الامير الجديد هو أبو العباس أحمد الذي لقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه السلطان بالخلافة ، كما حصل بييرس على تقليد منه بالسلطنة سنة ٦٢٢ هـ (١٢٦٣ م) (٢٨) . وفي تلك المرة لم يحاول السلطان بييرس ارسال الخليفة الى بغداد ، وانما أبقاه في القاهرة تحت مراقبته ، بحيث لم يترك له فرصة للظهور واعلاء نفوذه على حساب السلطنة . كذلك استحضر بييرس بعض أفراد آخرين من بنى العباس ، للتلويح بهم في وجه الخليفة الحاكم ، اذا حدثته نفسه بالخروج عن الدائرة التي رسمها له السلطان (٢٩) .

وقد حاكى بقية سلاطين المماليك في مصر الظاهر بييرس في الحد من نفوذ الخلفاء العباسيين بالقاهرة ، فصار الوضع طوال العصر المماليكى أن يفوض الخليفة الأمور العامة الى السلطان ، ويكتب له عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر . وفيما عدا ذلك ينفرد السلطان بكافة شؤون الحكم ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والامراء لتهنئتهم بالشهور والاعیاد (٣٠) . وقد عبر

(٢٨) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٨ .

(٢٩) النويرى : نهية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٢٦ (مخطوط) .

(٣٠) يذكر القلقشندى (صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٢٧٦) ما نصه « لما بلغ الظاهر الامام الحاكم بأمر الله . . . منعه من التصرف والدخول والخروج . . . والذي استقر عليه حل الخلفاء بالدير المصرية ان الخليفة يفوض الامور العامة الى السلطان ويكتب له عنه عهد بالسلطنة . . . ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل واقطاع الاقطاعات حتى للخليفة نفسه » .

(م ١٤ — الايوبيون والمماليك)

المقرئزى تعبيرا صادقا عن الخلافة العباسية في وضعها الجديد — بعد احيائها بالقاهرة — فقال ان الخلافة عندئذ « ليس فيها أمر ولا نهى ، وإنما حظه أن يقال له أمير المؤمنين »^(٣١) .

بيبرس والصليبيون :

على أن إحياء الخلافة العباسية بمصر ، وتمتع سلاطين المماليك بتقليد منها بالسلطنة ، كان لا يكفى وحده لتبرير اغتصاب المماليك حقوق بنى أيوب في السلطنة . وقد أحس المماليك منذ البداية أنهم مُجرخون ، وأن الأهالي قاواوا عن السلطان أيك انه « مملوك وقد مسه الرق » ، ووصفوا المماليك بأنهم « عبيد خوارج »^(٣٢) .

ولا يخفى علينا أن المماليك وجدوا سندا ومبررا لانتزاعهم الحكم في نجاحهم في انزال الهزيمة بلويس التاسع وجيشه في المنصورة وفارسكور ، الأمر الذى تطلب من سلاطين المماليك جهدا متواصلا لصد الأخطار التى هددت المسلمين عندئذ في الشرق الأدنى ، وذلك لتبرير بقائهم في الحكم . وكان أكبر خطرين يهددان المسلمين في الشرق الأدنى عند قيام دولة سلاطين المماليك هما الخطر الصليبي وخطر التتار . وفي مواجهة كل من هذين الخطرين ، أبدى بيبرس ، ومن خلفه من سلاطين المماليك بطولة نادرة وشجاعة كبيرة .

وتبدو مهارة بيبرس السياسية في أنه حرص أثناء حروبه ضد الصليبيين والتتار . على محالفة بعض القوى الخارجية المعادية لكل من هذين الخصمين ، فحالف الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وعقد معه حلفا دفاعيا (سنة ٦٦٠ هـ — ١٢٦٢ م) لعلمه أن الامبراطورية

(٣١) المقرئزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٤٢١ (بولاق) .

(٣٢) المقرئزى : البيان والاعراب ، ص ٩ . ، كتاب السلوك ، ج ١ ،

البيزنطية كانت دائما العدو اللدود للصليبيين بالشام^(٣٣) ، كذلك حالف بييرس تثار القفجاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين ، وهم الذين اعتنقوا الاسلام ، واشتدت العداوة بينهم وبين تثار فارس الوثنيين^(٣٤) .

وهكذا خاض بييرس المعركة ضد الاعداء ، والى جانبه حلفاء يشدون أزره ، ان لم يطمع في مساعدتهم ، فإنه على الأقل يطمئن الى حيادهم ليأمن خطرهم .

أما عن حروب بييرس ضد الصليبيين فكانت طويلة عنيفة ، امتازت دائما برجحان كفة بييرس وانتصاره على خصومه . ذلك أنه لم تمر سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي ٦٥٩ هـ ، ٦٦٩ هـ (١٢٦١ — ١٢٧١ م) دون أن يوجه بييرس حملة صغيرة أو كبيرة ضد الصليبيين بالشام . وفي كل مرة كان بييرس يحرز نصرا على الصليبيين ويستولى منهم على بعض المعاقل والمدن ، وقد يعقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات ، ولكنه لا يلبث أن يعاود هجومه عليهم بعد قليل^(٣٥) .

وقد بدأت الحرب بين بييرس والصليبيين سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) ، عندما هاجمت جيوشه الناصرة ، كما هاجم بييرس على رأس قواته مدينة عكا ، ولكنه لم يفلح في الاستيلاء عليها^(٣٦) . على ان الحرب الشاملة التي شنّها بييرس على الصليبيين لم تبدأ الا عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) ، وفيها استولى بييرس على قيسارية ويافا وعثايت

(٣٣) بييرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ ، ص ٩٢ — ٩٣ (تحقيق زبيدة عطا) ، ابن واصل : مخرج الكروب ، ج ٢ ورقة ٤٠٢ ب (مخطوط) ،

(٣٤) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٥ ، ابن ابيك :

كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

Wiet : L'Egypte Arabe p. 432.

(٣٥)

(٣٦) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ١٥٨ وما بعدها

(تحقيق عبد العزيز الخويطر) .

وأرسوف . وفي العام التالي استولى بييرس على صفد ، ثم على هونين وتبنين ومدينة الرملة (٣٧) .

ولم يغفر بييرس لملكة أرمينية الصغرى في قيليقية ، أو لامارتى أنطاكية وطرابلس الصليبيتين ، تحالفها مع التتار ضد المسلمين ، فأخذ يمهّد سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) للقيام بعمل حربي ضد هذه القوى المسيحية ، وأرسل جيشا تحت قيادة الأمير قلاون استولى على بعض القلاع الواقعة شمالي طرابلس لتحقيق ذلك الغرض (٣٨) . وفي صيف سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) ، وجه السلطان بييرس حملة كبرى ضد أرمينية الصغرى أثناء غياب ملكها هيثوم الاول في زيارة لتتار فارس ، وتجح المماليك في انزال هزيمة كبرى بالأرمن قرب دربساك (٣٩) .
(٢٤ أغسطس) .

وقد دمرت جيوش بييرس في تلك الغزوة مدن أرمينية الصغرى ، وبخاصة أذنه وطرسوس والمصيصة ، كما أشعلوا النار في عاصمتها سيس ، وقتل أحد أبناء الملك هيثوم الاول في الحرب ، في حين أسر الابن الثاني . وبعد ذلك عاد المماليك الى الشام محملين بالغنائم ، ومعهم آلاف الأسرى من الأرمن (٤٠) .

وأخيرا ، توج بييرس جهوده ضد الصليبيين بالاستيلاء على

(٣٧) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٤ هـ (مخطوط) ،
المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .

(٣٨) Stevenson : The Crusaders in the East; p. 339.

(٣٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١٠ — ٩١١
(الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

(٤٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٠ ،
المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥٥٢ ، سعيد عاشور : سلطنة
المماليك وملكة أرمينية الصغرى ، بحث نشر في كتاب : بحوث ودراسات
في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٢٥ وما بعدها (بيروت ١٩٧٢) .

أنطاكية في مايو سنة ١٢٦٨ (١٤ رمضان سنة ٦٦٦ هـ) . وكانت خسارة الصليبيين بضياع أنطاكية من أيديهم ضخمة ، لأنها كانت كبرى أمارتهم بالشام ، وثانى امارة أقاموها في الشرق بعد الرها . لذلك جاء سقوطها ايذانا بانتهاء البناء الصليبي بالشام ، بحيث لم يبق للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبرى سوى طرابلس وعكا^(٤١) .

ثم ان حركة الجهاد التي قام بها بيبرس ضد القوى المسيحية في الشرق الأدنى لم تقتصر على أرمنية الصغرى والصليبيين بالشام ، وانما امتدت الى جزيرة قبرس . وكانت هذه الجزيرة منذ أواخر القرن الثاني عشر للميلاد تخضع لحكم بيت لوزجنان - الذي يمثل أسرة صليبية - مما مكنتها من القيام بدور بارز في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى . ولم يستطع السلطان الظاهر بيبرس أن يغفر ملك قبرس تهديده لسفن المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط ، أو مساعدته للصليبيين ضد المسلمين بالشام ، فأرسل حملة بحرية سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) لغزو قبرس^(٤٢) . ولكن سفن الاسطول الاسلامي تعرضت لعاصفة شديدة قرب سواحل قبرس ، فتحطم بعضها ، وعاد البعض الآخر دون أن يحقق هدفا^(٤٣) .

وهكذا شن بيبرس على الصليبيين حربا لا هوادة فيها ، فاستولى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) على صافيتا وحصن الاكراد وحصن عكار والقرين . وأخذ يستعد لمهاجمة طرابلس ذاتها لولا وصول الأمير ادوارد الانجليزى الى الشام ، ومعه بضع مئات من المحاربين ، مما جعل بيبرس يخشى أن يكون ذلك مقدمة لحملة صليبية كبيرة^(٤٤) .

(٤١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٠٧ وما بعدها
(تحقيق عبد العزيز الخويطر) ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(٤٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٤٣) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٤٤) Stevenson : The Crusaders in the East; p. 343.

وجدير بالذكر أن حرص بيبرس على تقليص أظافر الصليبيين بالشام دفعه الى استئصال شأفة الباطنية الحشيشية . وكانت هذه الطائفة قد قامت بدور خطير في المعركة الصليبية ، وأسهمت بدور ملحوظ في انحلال بلاد الشام في ذلك العصر . ثم انهم لم يكتفوا باغتيال كثير من زعماء حركة الجهاد الاسلامي ، وانما حالفوا الصليبيين ودفعوا لهم الأموال رمزا للتبعية . لذلك عمل بيبرس على القضاء على الباطنية في بلاد الشام قضاء مبرما ، فعزل مقدمهم نجم الدين الشنغراني ، واستولى على حصونهم حصنا بعد آخر حتى سقطت جميعا في يده ، وبذلك أراح البلاد والعباد من شرهم (٤٥) .

بيبرس وتتار فارس :

وفي الوقت الذي قام بيبرس بمحاربة الصليبيين وانتزاع مدنهم وقلاعهم بالشام ، حارب أيضا تتار فارس ، ودفع خطرهم عن بلاد الشام ، ولم يسمح لهم مطلقا بالتقدم غربى الفرات .

والملاحظ عند دراسة حروب بيبرس أنه يصعب في كثير من الحالات الفصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين ، بسبب ما كان هناك من تحالف قوى بين التتار والصليبيين ضد المسلمين في مصر والشام . لذلك كثيرا ما كان يحدث أن يحارب بيبرس التتار والصليبيين في وقت واحد ، أو يخرج لمحاربة أحدهما فيحارب الآخر .

والواقع أن العداء بين المماليك والتتار لم ينقطع منذ موقعة عين جالوت اذ ظل تتار فارس يتحينون الفرصة للثأر ، ويغيرون بين حين وآخر على أطراف دولة المماليك الشمالية . واذا كان هولاءكو بيخان تتار فارس — قد توفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) فان ابنه وخليفته أبقاوا واصل سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من ناحية ، وسياسته الودية تجاه الصليبيين في الشام وأرمينية الصغرى من ناحية أخرى .

(٤٥) عبد العزيز الخويطر : الظاهر بيبرس ، ص ١٢١ — ١٢٧ .

ولكن بيبرس وقف دائما بالمرصاد لتتار فارس ، وحال بيتهم وبين . ما يشتهون . من ذلك أن بيبرس لم يكذب يسمع سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) باغارة التتار على البيرة — وهي قلعة هامة على الفرات — حتى أرسل حملة سريعة لردهم ، ففر التتار هاربين ، تاركين خلفهم أموالهم وعددهم (٤٦) .

ومن الواضح أن موجة التتار الكاسحة كانت قد انكسرت جدتها عندئذ ، وذلك بعد أن صار تتار فارس في حالة من الاجهاد والاضطراب لا تمكنهم من القيام بمحاولة كبرى لغزو الشام في النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع الهجري) . لذلك لجأ أبنا إلى طلب الصلح من بيبرس ، واستخدم في طلبه مزيجا من الترغيب والتهديد ، إذ أرسل يقول للسلطان « فانت لو صعدت الى السماء أو هبطت الى الأرض ما تخلصت منا فالصلحة أن تجعل بيننا صلحا » (٤٧) . ولكن بيبرس أدرك جيدا أن الصلح مع التتار أمر لا يرضى عنه مسلم ، بعد أن دمرُوا بغداد ، وقتلوا الخليفة العباسي ، وفتلوا مع المسلمين في المشرق ما لا يتفق وأبسط المبادئ الانسانية . لذلك رفض بيبرس طلب أبنا للصلح ، وأعلن أنه لن يكف عن القتار حتى يسترد جميع البلاد التي اغتصبوها من المسلمين (٤٨) .

ولما يئس أبنا من الصلح ، أرسل رجاله للاغارة على بلاد الشام سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، فهاجموا الساجور ، ولكنهم ارتدوا خائبين ، وفروا فاكسين على أعقابهم عندما رأوا الجيوش التي أرسلها السلطان لصددهم . ثم عاد التتار مرة أخرى لهاجمة عينتاب وعمق الحارم سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) ، ولكن غارتهم كانت محدودة الأثر والأهمية .

(٤٦) ابن ابيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٠٧ (تحقيق هرلمن) .

(٤٧) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧٤ (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

(٤٨) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ، ورقة ٥٤٩ (مخطوط) .

وفي ذلك الدور ، حاول الامير ادوارد الانجليزي أن يستغل التتار في مهاجمة المسلمين بالشام ، فأرسل سفارة الى أبغا لهذا الغرض ، ولكن أبغا لم يقدم للصليبيين أكثر من بضعة وعود ، بل انه أرسل الرسل الى السلطان بيبرس مجددا الكلام في موضوع الصلح . وفي تلك المرة أحسن بيبرس استقبال رسل التتار في دمشق ، وأرسل معهم بعض الهدايا الى أبغا . ومع ذلك لم يوافق بيبرس على مبدأ الصلح مع التتار ، مما جعلهم يجددون هجماتهم على البيرة سنة ٦٧٠ هـ — ٦٧١ هـ (١٢٧٢ — ١٢٧٣ م) (٤٩) .

وعندما أيقن بيبرس أن التتار تحالفوا مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ضده ، أعد حملة كبرى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٦ م) لغزو سلاجقة الروم . وفي موقعة أبلستين حلت الهزيمة ساحقة بالتتار وحلفائهم السلاجقة ، وفر معين الدين سليمان البرواناه — زعيم السلاجقة — بعد أن قتل عدد ضخم من رجاله ، فضلا عن قتل من التتار (٥٠) . ثم دخل بيبرس قيصرية ، ودعى له على منابرها ، وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة ، وذلك قبل أن ينصرف عائدا الى بلاد الشام . ويقال أن أبغا استشاط غضبا عندما سمع بما فعله بيبرس برجاله في أبلستين ، وأسرع الى هناك سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) حيث شاهد الآلاف من رجاله صرعى في حين لم ير قتيلا من السلاجقة . لذلك أمر بقتل مائتي ألف من السلاجقة المسلمين ، كما قتل البرواناه نفسه (٥١) . ثم كان أن شغل أبغا بالاضطرابات داخل دولته ، مما صرفه عن القيام بعمل آخر ضد المماليك .

(٤٩) ابن عبد الظاهر : الروض ' ' ' ، ص ٤٠٤ (تحقيق عبد العزيز الخويطر) ، القرينى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠٢ .
(٥٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٢٥ وما بعدها (تحقيق زبيدة محمد عطا) .
(٥١) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ . ج ٢ ، ص ٦٢ — ٦٣ ، نقله الى العربية محمد صائق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٧٥ هـ .

أبناء بيبرس :

لم يلبث أن توفي الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) بعد أن قام بنشاط ضخم في دعم دولة سلاطين المماليك وارساء قواعدها والدفاع عنها ضد أعدائها ، وبخاصة الصليبيين والتتار . والواقع أن الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك ، لأن الفترة الطويلة نسبيا التي قضاها في الحكم ، مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التي أضفت على دولة المماليك الناشئة قدرا من الاستقرار والهيبة كانت في أمس الحاجة اليهما .

ثم ان حروب بيبرس الطويلة ضد التتار والصليبيين لم تصرفه عن تأمين حدود مصر الجنوبية ، فأرسل حملة كبيرة الى مملكة النوبة المسيحية سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م) ، نجحت في اخضاعها واجبار ملكها على دفع الجزية^(٥٢) . هذا بالاضافة الى ما قام به بيبرس من تثبيت نفوذه في بلاد الحجاز ، وما قام به في مصر من تحصين الثغور والعناية بالأسطول ، وما استحدثه من وظائف ونظم ادارية . . . بحيث يمكن القول بأن دولة سلاطين المماليك اتخذت في عهد بيبرس طابعها الخاص المميز الذي ظلت عليه حتى أوائل القرن العاشر الهجري، السادس عشر للميلاد^(٥٣) .

وكان بيبرس — بوصفه أحد المماليك — لا يحترم مبدأ الوراثة في الحكم . ومع ذلك فقد غلبت عليه غريزة الأبوة ، فأراد أن يتحدى طبيعة المماليك ونظامهم ، وأن يورث العرش لابنه البكر السعيد بركة . وقد ظن بيبرس أن ولاية ابنه عهد السلطنة في حياته ، وجعل الأمراء بقسمون يمين الطاعة لذلك الابن ، كفيل بأن يضمن استقرار الأمور

(٥٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السدث ، ص ٢٣٤ — ٢٣٨ .

(٥٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٤١

وما بعدها ، الظاهر بيبرس : ص ١٢٨ وما بعدها .

للابن بعد وفاة الأب . وفعلا أقسم الامراء يمين الطاعة للملك السعيد بركة سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) ، وجعله بييرس نائبا عنه في مصر أثناء انشغاله بعد ذلك بمحاربة الصليبيين والتتار . وفي سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) أقام بييرس احتفالا كبيرا قرىء فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء والأمراء^(٥٤) . ومع ذلك ، فان بييرس لم يطمئن تماما الى ما سيفعله الامراء بابنه ، فحرص — وهو على فراش الموت — على أن يوصي الملك السعيد بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء « فهؤلاء الامراء الاكابر يرونك بعين الصبى . فمن بلتغ عنك ما يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه في وقت ، ولا تعتقله ، ولا تستشر أحدا في هذا ، وانفل ما أمرتك به ، والا ضاعت مصلحتك »^(٥٥) .

وما كادت تمضى على وفاة بييرس فترة قصيرة حتى تحقق ظنه . ذلك أن اكابر الامراء تظاهروا في غمرة الأسى التي صحبت وفاة السلطان باحترامهم العهد ، ونودى بالملك السعيد بركة سلطانا . ولكن أمراء المماليك الذين لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الحكم ، أخذوا ينظرون الى الملك السعيد « بعين الصبى » ، فسببوا له المتاعب الجمة في مصر والشام جميعا .

ولم يلبث أن اتهم الامراء السلطان الملك السعيد بركة بدس السم للأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة . وهكذا « اضطربت أمور الملك السعيد » وتماقب بعض الامراء في نيابة السلطنة . وكلما ولى أحدهم ذلك المنصب لجأت بطانة السلطان الى تخويفه منه ، فيبعده^(٥٦) .

(٥٤) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٨ — ٥١٥ ،
النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ١٦٠ (مخطوط) .
(٥٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ورقة ٢٤٠ (مخطوط) .
(٥٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٣ — ٦٤٤
(تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

ويذكر المقرئى أن الملك السعيد قرب اليه صغار الامراء ، فنفرت منه قلوب كبار الامراء ، « فانهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك السعيد يضع من أقدارهم ، ويقدم عليهم المماليك الأصاغر » (٥٧) .

وفي سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) خرج السلطان بركة الى دمشق ، فظن أمراء دمشق أنه يريد بهم سوءا وفروا. من وجهه . وعبثا حاول السلطان أن يسترضيهم ليعودوا ، ولكنهم قالوا : « لا سبيل الى مراجعته ، وقد انصدعت القلوب وجرت بهذه الخطوب ا » (٥٨) . وعندما علم السلطان السعيد بركة أن هؤلاء الامراء ينوون السير الى مصر لخلعه ، أسرع بالعودة ، ولم يستطع دخول القلعة الا فى صعوبة بالغة . على أن الامراء بادروا بحصاره فى القلعة وشددوا عليه الحصار ، وقطعوا الماء عن القلعة وطمعوا فيه وحاصروه ثلاثة أيام . وهكذا حتى ساء موقفه ، فاضطر الى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والامراء سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) (٥٩) .

ولم يعد للسعيد بركة مقام فى مصر بعد خله من السلطنة ، فخرج الى الكرك حيث توفى بعد قليل ، قبل أن ينقضى عامان على قيامه فى منصب السلطنة . وقد عرضت السلطنة — بعد عزل الملك السعيد بركة — على أقوى أمراء البحرية وهو الامير قلاون الألفى ، ولكنه كان يدرك أن الامور لم تتضح عندئذ نضجا كافيا ، فتظاهر بالزهد ، وقال : « أنا لم أخلع الملك السعيد شرها الى السلطنة وحرصا على المملكة ، ولكن حفظا للنظام . . . والأولى ألا يخرج الامر من

(٥٧) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٦٤٥ .

(٥٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٥٢ وما بعدها (تحقيق زبيدة محمد عطا) .

(٥٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٥ (تحقيق

محمد مصطفى) ، المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٥٥ .

درية الملك الظاهر»^(٦٠) . وهكذا اختير الابن الثانى لببيرس — وهو الامير بدر الدين سلامش — سلطانا سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) ، فى حين غدا الامير قلاون أتابكا للسلطان الجديد ، أى وصيا عليه . وبهذه الطريقة حقق قلاون هدفه ، لأن السلطان كان فى السابعة من عمره ، فاستغل قلاون وصايته للاستئثار بالسلطة ، والتخلص من المماليك الظاهرية .

وعندما اطمأن قلاون تماما الى أن الامور غدت مهياة لاعتلائه منصب السلطنة ، أعلن أنه « لا فائدة من بقاء ذلك الصبى الصغير ، لانتشار السمعة فى البلاد ، وامتهان الحرمة فى أنفس الحواضر والبلاد » .

وهكذا تم عزل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) ، قبل أن تمر على قيامه فى السلطنة ثلاثة أشهر ، وحل محله الامير سيف الدين قلاون الصالحى^(٦١) .

(٦٠) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥٦ ، ببيرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٥٣ (تحقيق زبيدة محمد عطا) .
(٦١) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشتر ، ج ٤ ، ص ١٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٨٧ — ٢٨٩ ، ابن اياسر : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١١٤ .

الفصل الرابع

بيت قلاون

يتمتع بيت قلاون بأهمية خاصة في تاريخ دولة سلاطين المماليك . فمع أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة الملك – كما سبق أن أشرنا – الا أن بيت قلاون شذ عن هذه القاعدة ، واستطاع أن يحتفظ بمنصب السلطنة في ذرية المنصور سيف الدين قلاون مدة طويلة أربت على قرن (٦٧٨ – ٧٨٤ هـ / ١٢٧٩ – ١٣٨٢ م) ، مما يعتبر حالة فريدة في تاريخ دولة سلاطين المماليك .

هذا الى أن العصر الذي حكم فيه بيت قلاون يمثل عصر الازدهار في الدولة المماليكية ، اذ نضجت في ذلك العصر كافة خصائص تلك الدولة ، واكتملت معالمها ، وازدهرت حضارتها ، وذلك بعد أن انتهى الدور التأسيسي الذي نهض به السلطان الظاهر بيبرس ، وبعد أن أثبت المماليك قدرتهم على الحكم ، وعلى مواجهة الاخطار الكبرى التي هددت مصر والشام في ذلك العصر .

وليس هناك شك في أن الفضل يرجع الى السلطان المنصور قلاون في ارساء هبة بيته في النفوس ، وفي احاطة اسمه واسم أسرته بهالة المجد والعظمة ، مما جعل المعاصرين يتمسكون بأبنائه وأحفاده من بعده ، ويرون في بيت قلاون رمزا للقوة والعظمة والاستقرار والنهضة في الداخل ، والأمن والسلام في الخارج .

الأمير سيف الدين قلاون الصالحى :

وكان الامير سيف الدين قلاون أحد المماليك البحرية الصالحية . وهو قبجاقي الجنس ، اشتراه الامير علاء الدين آقسنقر الساقى

العادلى - أحد مماليك العادل أبى بكر الايوبى - بألف دينار ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لمتوسط أسعار المماليك فى ذلك الوقت ، مما يشير الى ما تميز به ذلك المملوك من مواهب وصفات رفعت من قيمته ، « وغالى فى قيمته لحسنه وصورته فعرف بالألفى »^(١) ولما مات الامير علاء الدين ، انتقل قلاون الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فصار لقبه « الألفى العلائى الصالحى النجمى » .

وسرعان ما أخذ قلاون يرتقى بسرعة حتى وصل الى درجة الامارة وغدا من أبرز أمراء طائفة البحرية . وقد لمع اسمه فى الاحداث التى صحبت قيام دولة سلاطين المماليك ، حتى فر من مصر بصحبة البحرية عقب مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي ، وذلك فى عهد السلطان أيك . ثم عاد قلاون الى مصر عندما حركب أحداث التتار روابط الاتحاد بين البحرية وقطر . وهكذا حتى كانت سلطنة الظاهر بيبرس فبرز الامير قلاون فى صورة أقوى أمراء الدولة ، وقويت مكانته عند السلطان بيبرس واعتمد عليه فى كثير من المهام الحربية والسلمية^(٢) .

على أن مجتمع المماليك قام الى حد كبير على أساس الشك والتحاسد ، لأن المماليك اعتبروا أنفسهم زملاء متساويين ، لا فضل للأمير على آخر ، فالكل كانوا رقيقا فى يوم من الايام ، جلبوا من بلادهم ، ونشأوا نشأة واحدة . لذلك يبدو أن قلاون أحس بشعور الغيرة عندما وجد أحد زملائه - وهو بيبرس - يلى منصب السلطنة ، وان كان قلاون لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور لقوة بيبرس ودهائه . وفى ذلك يقول المقريزى عن كبار الامراء انهم « كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك »^(٣) . ولا بد أن

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج ٣ ، ورقة ٣٧ (مخطوط) .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ (بولاق) .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٥ (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

يكون بييرس — وهو الرجل الذكي المشبع بروح الممالك — قد أحس بوزن الأمير قلاون وعظم مكانته ، مما كان يهدد تطلعات بييرس بخصوص حفظ منصب السلطنة من بعده لابنه الملك السعيد بركة . لذلك لجأ بييرس الى حيلة قوية ظن أنها تضمن بقاء العرش من بعده لابنائيه ، وهى أنه زوج ابنه الملك السعيد بركة من غازية خاتون — ابنة الأمير قلاون — سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) ، وبذلك ظن أن قلاون لن يطمع في انتزاع الملك من زوج ابنته^(٤) .

ولكن أطماع أمراء الممالك في منصب السلطنة كانت أقوى بكثير من روابط المصاهرة ، فلم يكذب بييرس يموت ، حتى أخذ قلاون يخطط لتحقيق أطماعه في الحكم ، وان كان حريصا على عدم الكشف عن نواياه . ولم يكن قلاون في تخطيطه هذا غادرا أو مغتصبا أو معتديا على حقوق زوج ابنته . وانما كان — وفقا للعقليات المالكية — مطالبا بحق مشروع طال السكوت عنه . ويكفى أنه رضى بالظاهر بييرس — وهو زميله — سلطانا ، فلا مبرر بعد ذلك للخضوع للأبناء الظاهر وهم في نظره صبيان صغار ، لم يكونوا ممالكا في يوم من الايام .

وكان قلاون على قدر من الذكاء وبعد النظر ، جعله ينفذ أطماعه بطريقة تدريجية بطيئة . ذلك أنه لم يعترض سبيل الملك السعيد بركة عندما ولى السلطنة بعد أبيه ، وانما تركه يمضى في حياته الخاصة ، مسرفا في اللهو ، دون أن يحاول نصحه أو اصلاحه . وعندما اشتد حصار الأمراء على السلطان بركة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) ، وأرسل الأخير الى حميه الأمير قلاون يطلب مساعدته ، نصح قلاون زوج ابنته بالتخلي عن السلطنة^(٥) . وكان في وسع قلاون أن يعتلى دست السلطنة بعد عزل الملك السعيد بركة مباشرة . ولكنه أمعن في التظاهر بالزهد ، فأقر بأن يتولى الحكم أخو بركة : وهو الأمير بدر الدين

(٤) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٩ .

سلامش ابن الظاهر بيبرس ، في حين قنع الامير سيف الدين قلاون بأن يكون أتابك العساكر في عهد السلطان الجديد^(٦) .

وهكذا أخذ قلاون — وهو أكبر أمراء الدولة وأقواهم — يتصرف في حكمة بالغة — دون أن يستثير حقد بقية الامراء . ومن الواضح أن قلاون كان الحاكم الفعلى للبلاد بعد وفاة بيبرس ، وبخاصة في عهد سلامش الذي كان طفلا لم يتجاوز السابعة من عمره ، مما جعل الكلمة الاولى والاخيرة في شئون الحكم للأتابك سيف الدين قلاون . وحسب الامير قلاون في ذلك الدور أن النقود كانت تسك وعلى أحد وجهيها اسم سلامش ، وعلى الوجه الآخر اسم قلاون ، كما ذكر اسم قلاون جنبا الى جنب مع اسم العادل سلامش في خطبة الجمعة^(٧) .

ولم يضع الامير قلاون تلك المدة القصيرة التي قضها في الوصاية على السلطان الصغير سدى ، وانما أخذ يمكن لنفسه في شتى أرجاء الدولة وأجهزتها ، فقبض على نسبة كبيرة من الممالك الظاهرية — وهم ممالك الظاهر بيبرس المخلصين له ولأبنائه — وعزل كثيرا من الولاة والنواب الذين كان الظاهر بيبرس وابنه السعيد بركة قد عينوهم بالولايات ، وأحل محلهم جماعة من أنصاره . كذلك تخلص قلاون من بعض الامراء المنافسين له — أو الذين توهم منافستهم له في منصب السلطنة . وأرسل الامير شمس الدين سنقر الى دمشق ليكون نائبا السلطنة بالشام . أما زملاؤه من الممالك البحرية ، فقد أحسن اليهم ، وأغدق عليهم الاقطاعات ليستميلهم الى جانبه^(٨) .

(٦) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ (بولاق) .
(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج ٣ ، ورقة ٣٧ (مخطوط) ،
ابن شلكر الكلبى : غوات الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ (تحقيق احسان عباس) .
(٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٥٦ (تحقيق زبيدة عطا) .

وأخيرا تأكد قلاون من أن جميع الامور باتت معدة ليتولى منصب السلطنة ، فدعا الامراء وتحدث معهم في صغر سن سلامش ، وقال لهم « قد علمتم أن الملكة لا تقوم الا برجل كامل » . فاستقر الرأي على خلع سلامش وتولية الامير سيف الدين قلاون منصب السلطنة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) . وهكذا لم يبق سلامش في دست السلطنة أكثر من ثلاثة شهور ، أرسل بعدها — مع أخيه خضر — الى قلعة الكرك ، منفي أبناء السلاطين المعزولين في عصر سلاطين المماليك^(٩) .

سلطنة المنه . ٩١٦ . ٦١١١١ . ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) .

أجمع المؤرخون على وصف السلطان قلاون بأطيب الصفات وأنقاها ، فبيبرس الدوادار قال عنه أنه « كان حلينا ، غفيفا في سفك الدماء ، مقتصدا في العقاب ، كارها للأذى »^(١٠) وابن فضل الله العمري وصفه بأنه « كان رجلا مهيبا شجاعا »^(١١) . أما ابن أبيك الدواداري فقد وصفه بأنه « كان ملكا جليلا جميلا كبيرا أثرا رحيفا حلينا رؤوفا شفوفا لا عسوفا ، تام الخلق حسن الخلق ، وافر الكمال ، بديع الجمال ، حسن الهيئة في الرحال ، تام القامة ، عظيم الهامة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، وافر الهيئة ، عظيم الشأن ، كثير الاحسان ... »^(١٢) . وقال أبو الفدا « لما تولى السلطان الملك

(٩) القرينى : كتب السلوك ، ج ١ ص ٦٥٨ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١١٤ (تحقيق محمد مصطفى) ، Wiet : L'Egypte Arabe, p. 54.

(١٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ١ ص ١٥٦ (تحقيق زبيدة عطا) .

(١١) ابن فضل الله العمري : مسلك الابصار ، ج ١٦ ورقة ٦٥٠ (مخطوط) .

(١٢) ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر — الجزء الثاني المعروف باسم « الدررة الزكية في اخباز الدولة التركية » . ص ٢٠٢ — ٢٠٣ (تحقيق هارمان) .

(م ١٥ — الأيوبيون والمماليك)

المنصور ، أقام منار العدل ، وأحسن سياسة الملك ، وقام بتدبير المملكة أحسن قيام^(١٣) . وفي ضوء هذه المشاعر الطيبة ، يمكننا أن نفسر بقاء الحكم في بيت قلاون مدة طويلة .

ولم يكد قلاون يعتلى العرش حتى أخذ يتقرب الى الناس بالافعال الطيبة . واذا كان بعض المؤرخين قد أخذ عليه حبه لجمع المال^(١٤) ، فان الاموال التي جمعها قلاون استخدمها في اقامة العديد من المنشآت الحيوية التي خلدت اسمه ، والتي أشهرها المدرسة والبيمارستان ، وهي مؤسسات « لم يسبقه الى ذلك فيها أحد قديما ولا حديثا ، شرقا ولا غربا »^(١٥) . هذا عدا القلاع التي جدها بالشام ، والحروب التي قام بها ضد الصليبيين والتتار ، مما استفذ أموالا طائلة .

ولم يسلم السلطان المنصور قلاون من الثورات الداخلية التي تعرض لها معظم سلاطين المماليك في مستهل حكمهم ، « فلم يبلغ ريقه » — على قول المؤرخ ابن تغرى بردى — حتى خرج عليه الامير شمس الدين سنقر الاثقر نائب الشام . ويبدو أن الامير سنقر عز عليه أن يتولى الامير قلاون منصب السلطنة متخطيا اياه — وهو زميله — فدعا أهل الشام الى الخروج عن طاعة قلاون ، بل ان سنقر الاثقر نادى بنفسه سلطانا ، وتلقب بالملك الكامل . ولكن الامير سنقر لم يجد استجابة من أهل الشام ، وامتنع أهل دمشق عن تأييده ، في الوقت الذي بادر قلاون بارسال جيش قوى أنزل به الهزيمة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) . وعندئذ فر سنقر الى المشرق ، وحاول أن يتصل بالتتار ويزين لهم غزو بلاد الشام .

(١٣) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ١ ص ١٣ .

(١٤) المقرئى : كتب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٧٦ وما بعدها .

(١٥) مفصل ابن ابي الفضل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

تحقيق بلوشيه Blochet .

وفي العام التالي تآمر بعض الامراء الظاهرية — من مماليك
الظاهر بيبرس — ضد السلطان قلاون ، واتصلوا بالصليبيين سرا ،
ولكن قلاون كشف المؤامرة ، وعاقب المتآمرين بالاعدام والسجن .

ويبدو أن احساس قلاون بموقف المماليك الظاهرية منه ، جعله
يفكر جديا في انشاء عصبية لنفسه من المماليك ، يعتمد عليها في مواجهة
ما يصادفه من اخطار داخلية وخارجية . لذلك أكثر السلطان قلاون
من شراء المماليك ، حتى تراوح عدد مماليكه بين سبعة آلاف واثنا عشر
آلف مملوك ، معظمهم من عنصر الجركس ، وكون منهم فرقة جديدة ،
واختار أن يرببهم في أبراج القلعة ، ولذا عرفوا بالمماليك البرجية^(١٦) .

وبعد أن تخلص السلطان قلاون من الاخطار الداخلية التي
واجهته ، بدأ ينصرف نحو التتار والصليبيين الذين ما فتئوا يهددون
بلاد الشام بين فينة وأخرى . وكان الامير سنقر الاشقر قد استولى
على عدة قلاع بالشام ، أهمها قلعة صهيون ، ومن هناك أرسل يستنجد
بالتتار والصليبيين جميعا . ضد خصمه السلطان قلاون^(١٧) ورأى تتار
فارس فرصة سانحة في تلك الاحداث الداخلية التي تعرضت لها دولة
سلاطين المماليك ، فأرسل أبغا في سنة ٦٧٩ هـ (سبتمبر سنة ١٢٨٠ م)
قوة احتلت بعض القلاع في شمال الشام . ثم تقدم التتار صوب
حلب فاقتحموها وأحرقوا مساجدها ومدارسها ، وقتلوا كثيرا من أهلها .
غير أنه يبدو أن غزوة التتار للشام في تلك السنة كانت من قبيل الغزوات
الاستكشافية ، بدليل أنهم أسرعوا بالانسحاب الى ما وراء نهر الفرات

(١٦) ابن دقاق : الجوهر الثمين ، ص ٢٠٦ — ٢٠٨ (تحقيق

المؤلف) .

(١٧) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١٢ (حوادث

سنة ٦٧٩ هـ) .

عندما علموا بأن السلطان قلاون قد وصل الى غزة في طريقه اليهم ليضربهم (١٨) .

ومع ذلك ، فان غزو التتار للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) نبه قلاون الى الخطر الذي يحيق به نتيجة لتحالف أعدائه الثلاثة وهم التتار والصليبيون وسنقر الاشقر . فالتتار هاجموا بلاد الشام عندئذ بناء على استغاثة الامير سنقر . وفي الوقت نفسه استغل الصليبيون فرصة اغارة التتار ، وحاولوا استرداد حصن الاكراد سنة ٦٧٩ هـ (اكتوبر سنة ١٢٨٠ م) ، وان كانت محاولتهم هي الاخرى قد باءت بالفشل (١٩) .

لذلك اتبع قلاون سياسة استهدفت التفرقة بين خصومه ، وعدم تمكينهم من الاتحاد ضده ، حتى يتمكن من منازلة كل منهم على حدة . واختار قلاون أن ينفذ ضربه الرئيسية بالتتار ، فعقد صلحا سنة ٦٨٠ هـ (مايو سنة ١٢٨١ م) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية في بلاد الشام ، ممثلة في الداوية والاسبتارية وبوهيموند السابع أمير طرابلس . أما سنقر الاشقر — خصم قلاون العنيد — فقد عفا عنه السلطان فيما بعد ، سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) ، وأجزل له العطاء ، وعينه حاكما على اقليم أنطاكية (٢٠) . هذا في الوقت الذي وقف الصليبيون في عكا موقف الحياد بين السلطان قلاون وخصومه ، بل يرجع الفضل اليهم في تنبيه قلاون الى المؤامرة التي دبرها الظاهرية ضده .

وكان أن خرج أبنا بنفسه الى الشام على رأس جيش كبير من التتار سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) . وقد حالف التتار في غزوتهم هذه

(١٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٩ ،
Wiet : L'Égypte Arabe p. 445

(١٩) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 282.

(٢٠) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٣٧٠ (مخطوط) .

ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى . وانقسم جيش التتار الى شعبتين ، فاتجه أبنا الى الرحبة ، في حين أرسل أخاه منكوتر على رأس جيش كبير الى جهة حمص^(٢١) . وفي موقعة حمص التي دارت بين السلطان قلاون والتتار سنة ٦٨٠ هـ (٣٠ أكتوبر ١٢٨١ م) حلت الهزيمة ساحقة بالتتار ، وولوا الادبار الى شرقى الفرات ، بعد أن « هلك منهم خلق كثير »^(٢٢) .

وما دام السلطان قلاون قد أحرز هذا النصر ، فانه لم يبق أمامه الا أن ينتهز الفرصة لينزل ضربة بالصلبيين ، على الرغم من أنه كان قد عقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات ، لم تنتقض منها سوى أربع سنوات فقط . وفعلا هاجم قلاون في سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) الاستبارية في حصن المرقب - وهو من أخطر الحصون الصليبية ببلاد الشام ، ونجح في الاستيلاء عليه ، مما سبب للصلبيين خسارة فادحة^(٢٣) .

وفي الوقت الذي كان المماليك يتأهبون للاجهاز نهائيا على الكيان الصليبي بالشام ، لم ينتبه الصليبيون الى حقيقة الخطر الذي يتهددهم ، واستمروا غارقين في منازعاتهم الداخلية ، وهي المنازعات التي ميزت تاريخ الصليبيين بالشام في النصف الاخير من القرن الثالث عشر للميلاد^(٢٤) . وقد انتهز السلطان قلاون فرصة انشغال الصليبيين بتلك المنازعات ، وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦ هـ (ابريل ١٢٨٧ م) ، وهي آخر مدينة تبقت للصلبيين من امارة أنطاكية .

(٢١) ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ج ١ ، ص ٦٢ (تحقيق محمد محمد أمين) .

(٢٢) رشيد الدين الهذاني : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٢٣) المقرئزي : كلب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢٨ ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٤ هـ ، ابن عبد الظاهر : تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٧٧ وما بعدها (تحقيق مراد كابل) .

(٢٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٢٥ (الطبعة الرابعة ١٩٨٦) .

وشاء سوء حظ الاميرة عندئذ ان سميت بوهيموند السابع أمير
طرابلس ذون وريث ، فقام في امارته نزاع داخلي حول الحكم ،
واستجد فريق من المتنازعين بالسلطان قلاون (٢٥) .

وكان أن أسرع قلاون الى افتراض الفرصة « فتجهز لأخذ
طرابلس » ، وخرج من مصر على رأس جيشه في فبراير سنة ١٢٨٩ م .
وكان جيش السلطان المنصور قلاون كبيرا — يزيد على أربعين ألف
فارس ومائة ألف من المشاة — ، فلم تستطع طرابلس مقاومة الحصار
الذي فرضه عليها السلطان ، وسقطت في قبضته سنة ٦٨٨ هـ (ابريل
سنة ١٢٨٩) (٢٦) .

ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التي أخلاها الصليبيون
قرب طرابلس — مثل بيروت وجبله — ، وبذلك لم يبق للصليبيين من
ملكهم العريض في بلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثيث (٢٧) .
ومن الواضح أن عكا كانت أعظم هذه المدن وأمنها ، فضلا عن كونها
المركز الجديد لملكة بيت المقدس الصليبية بعد استيلاء صلاح الدين على
بيت المقدس . ومع ذلك فإن المنصور قلاون اتجه بعد استيلائه على
طرابلس الى دمشق ، حيث وافق على تجديد الهدنة مع الصليبيين لمدة
عشر سنوات (٢٨) .

وبينما الصليبيون في الشام يخطبون ود السلطان قلاون ، ويرجون
أن تبقى لهم البقية الباقية من ممتلكاتهم بالشام ، اذا ببعض الجموع
الصليبية تفقد من ايطاليا سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) لتفقد الجو بين
المسلمين والصليبيين . ذلك أن أولئك الصليبيين الجدد وصلوا الى عكا

(٢٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٢٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٤٦ — ٧٤٧ .

(٢٧) Grousset : Op. cit., III, p. 145.

(٢٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢١ (١٩٨٦) .

وهم يفيضون حماسة ، وفي الوقت نفسه ينقصهم النظام والخبرة وضبط النفس . وكانوا أن بدأوا فور وصولهم بالعدوان على المسلمين خارج أسوار عكا ، مما أنذر بتجدد الحرب بين المسلمين والصليبيين . ويقال ان السلطان قلاون استشاط غضبا عندما رأى بعض ملابس ضحايا المسلمين مزرجة بالدماء ، وأقسم على أن ينتقم لهم من الصليبيين . وفي الوقت الذي أخذ قلاون يستعد في مصر والشام للقيام بعمل حربي كبير ضد الصليبيين في عكا ، اذا بالسلطان يموت فجأة سنة ٦٨٩ هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ م) . وكانت وفاته بمسجد التبر خارج القاهرة — قرب المطرية — « وقد برز اليه عازما على فتح عكا » (٢٩) .

السلطان الأشرف خليل والاستيلاء على عكا :

لم يتعظ السلطان المنصور قلاون بما حدث لأبناء بييرس بعد وفاته ، لاسيما وأنه كان هو نفسه مسئولاً عن خلع ابني الظاهر بييرس واحدا بعد آخر من دست السلطنة . وكان أن غلبت غريزة الابوة على المنصور قلاون وهو في الحكم فأراد أن يعهد بالسلطنة من بعده لابنه الاكبر . بل ان المنصور قلاون تمادى فلم يكتف بتولية ابنه الاكبر ولاية عهد السلطنة في حياته ، وانما أراد أن يقيم ذلك الابن — وهو علاء الدين على — سلطانا في حياته ، وفعلا تمت هذه الخطوة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، فأقيم حفل بالقلمة قرىء فيه تقليد علاء الدين على بن قلاون بحضور الامراء والكبراء ، ولقب السلطان الجديد بلقب « الملك الصالح » (٣٠) .

(٢٩) ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ج ١ ، ص ١٣٥ (تحقيق محمد محمد أمين) .
(٣٠) بييرس الدوادر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ ، ص ١٦٧ — ١٧٠ (تحقيق زبيدة عطا) . ابن عبد الظاهر : تشریف الأيمل والعصور ، ص ٢٠٠ (تحقيق مراد كامل) .

ولكن شاعت الظروف أن يموت الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) بعد أن قضى ثمان سنوات سلطانا في حياة أبيه ، وزاد من حزن قلاوون على ابنه علاء الدين ، أن الابن الثانى — وهو خليل — كان مكروها من الامراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمسك بأصول الدين ، بل لقد اتهمه البعض بأنه هو الذى دس السم لأخيه علاء الدين^(٢١) . ومن الثابت تاريخيا أن ولاية العهد للامير خليل كتبت فعلا في حياة أبيه ، ولكن السلطان قلاوون لم يوقعها ، وسواء كان عدم التوقيع راجعا الى عدم ارتياح قلاوون لأن يخلفه ابنه خليل في حكم المسلمين — كما ذكر بعض المؤرخين — أو الى انشغال قلاوون بأمر الصليبيين حتى دهمه الموت فجأة ، فالهم هو أن السلطان المنصور قلاوون توفي دون أن يعتمد ولاية العهد لابنه خليل^(٢٢) .

ومع ذلك ، فان ما قام به السلطان قلاوون في حياته من اعلان ابنه علاء الدين سلطانا في حياته بموافقة الامراء ، وما أعقب ذلك من كتابة ولاية العهد لابنه الثانى خليل — بعد وفاة علاء الدين على — كل ذلك جعل خليلا لا يصادف صعوبة في المناداة به سلطانا عقب وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) ، لاسيما وأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود الحملة التى كان السلطان قلاوون قد أعدها للنار من الصليبيين في عكا . وهكذا أقسم الامراء الايمان للسلطان الجديد — الذى لقب بالاشرف — سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) . وبدأ السلطان الاشرف خليل يتأهب للخروج على رأس الحملة الى الشام .

على أن الامور لم تتم للسلطان الجديد في يسر وسهولة ، دون أن

(٢١) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩٢ — ٧٩٣ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .
(٢٢) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٦٨٣ ، ٨٥٠ ، ابن بردى تغرى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٢٠ ، القلقشندى : صبح الأمشى ، ج ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٢ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ (مخطوط) .

بتعرض للمنافسة التقليدية التي تعرض لها معظم سلاطين المماليك من جانب كبار الامراء . ذلك أن الامير حسام الدين طرنتاي — نائب السلطنة — عز عليه ألا يعتمد السلطان الاشرف خليل عليه مثلما كان بفعل والده . وكان السلطان خليل يحمل له في قلبه كراهية قديمة ، ولذلك دبر الامير طرنتاي مؤامرة للتخلص من الاشرف خليل . وفي الوقت الذي تفاعل الصليبيون في عكا بسبب الاحداث الجارية في داخل دولة المماليك ، من وفاة السلطان المنصور قلاوون وتآمر الامير طرنتاي ضد السلطان الجديد ، اذا بالسلطان الاشرف خليل يكشف عن المؤامرة بسرعة ، فقبض على حسام الدين طرنتاي وقتله بعد أن صادر ممتلكاته ، كما أعطى اقطاعه للامير بدر الدين بيدرا الذي أصبح نائب السلطنة (٣٣) .

وعندما علم الصليبيون في عكا أن السلطان الاشرف خليل تغلب على الصعاب التي واجهته ، وأنه بصدد الخروج لمحاربتهم ، حاولوا استرضاءه وثنيه عن عزمه ، فأرسلوا اليه سفارة « يسألون العفو » ، ولكن السلطان « لم يقبل منهم ما اعتذروا به » (٣٤) . وكان أن اجتمعت الجيوش الاسلامية من مصر وبلاد الشام أمام عكا سنة ٦٩٠ هـ (أوائل ابريل سنة ١٢٩١ م) ، وشرع المسلمون في حصار المدينة ورميها بالمجانيق رميا متواصلا . وقد بذل الصليبيون جهدا مستميتا في الدفاع عن عكا ، ولكن جهودهم ذهبت مع الريح ، فاقتمح المسلمون المدينة بالسيف في ١٨ مايو سنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) ، « وقتلوا وغنموا شيئا يفوق الحصر من كثرته » . أما الصليبيون فقد فر منهم كثيرون

(٣٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥

(تحقيق زبيدة عطا) .

(٣٤) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٢ .

في السفن الى عرض البحر ، حيث غرقت بعض السفن بسبب كثرة من حملته من الفارين (٣٥) .

ولاشك في أن استيلاء المسلمين على عكا كان بمثابة الضربة الكبرى الختامية التي حلت بالصليبيين بالشام ، بحيث لم يبق للصليبيين بعد ذلك مقام في تلك البلاد . ولم يصادف المسلمون صعوبة بعد ذلك في الاستيلاء على ما تبقى في أيدي الصليبيين من مراكز قليلة ، مثل صور وصيدا وأنطربوس وعثليث (٣٦) ، بحيث كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون هو بطل آخر صفحات الحروب الصليبية بأرض الشام .

على أن نجاح الأشرف خليل في طرد آخر البقايا الصليبية من الشام لم يشفع له لدى كبار الأمراء ، الذين ازداد حنقهم عليه لاستخفافه بهم . ويبدو أن نجاح الأشرف خليل في الاستيلاء على عكا جعله يتمادى في كبريائه وتعاضمه على كبار أمراء المماليك الذين ضاقوا به ذرعا ، وأخذوا يفكرون في التخلص منه . وقد تزعم حركة التآمر على الأشرف خليل الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة الذي ساءت العلاقة بشكل خطير بينه وبين السلطان . ذلك أن الوزير نمس اليدن بن السلعوس أخذ يوغر صدر السلطان خليل ضد بيدرا ، وأوهمه أن مقتنيات بيدرا ازدادت وتضخمت بشكل يهدد السلطان نفسه . وكان أن قام الأشرف خليل باستدعاء بيدرا بحضور الأمراء « وأغظ له في الكلام ... وتوعده بأشد الوعيد ، وتهده أتم التهديد » (٣٧) .

(٣٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٦ — ٧ ،
ابو الفدا : المختصر ، سنة ٦٩٠ هـ ، ابن حبيب : تفكرة النبيه ،
ج ١ ، ص ١٣٧ (تحقيق محمد أمين) .
(٣٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٣٥ — ٩٣٦
(الطبعة الرابعة) .
(٣٧) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨٢ — ٧٨٣ ،
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٧٥ .

ولم يلبث أن أحس السلطان الأشرف خليل بتغير بيدرا عليه
« حتى خاف أن يسطو في ذلك الوقت عليه ، أو يمد اليد بالأذى إليه » .
لذلك حاول السلطان أن يسترضيه — بعد فوات الاوان — ، وأرسل
إليه مائة ألف دينار ليطيب خاطره بها^(٣٨) . ولكن بيدرا كان قد أحكم
خطته فعلا بالاشتراك مع بعض كبار الامراء — مثل حسام الدين
لاجين ، وشمس الدين قراسنقر ، وسيف الدين بهادر — وجميعهم
كانوا حانقين على السلطان لما نالهم من أذى على يديه . وعند خروج
الأشرف خليل للصيد سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) تبعه الامراء المتآمرون .
ولم يلبث أن ضربه بيدرا بالسيف ، ثم تبعه بقية الامراء حتى أجهزوا
عليه^(٣٩) .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

تكررت عقب مقتل الأشرف خليل نفس التمثيلية التي أعقبت مقتل
السلطان قطز ، اذ اجتمع المتآمرون ، وقر رأيهم على أن يلي بطل
المؤامرة عرش السلطنة . وكان أن حلف الامراء يمين الولاء للامير
بيدرا وقبلوا له الارض ، ولقبوه بالملك الاوحد^(٤٠) . ولم يبق بعد ذلك
سوى أن يتآدر السلطان الجديد وشركاؤه مسرح الجريمة عند تروجه
بإقليم البحيرة في طريقهم الى القاهرة ، ليحتل بيدرا دست السلطنة
بالقلعة . ولكن المماليك الأشرفية — وهم مماليك الأشرف خليل بزعامه
زين الدين كتبغا المنصوري — لم يتركوه يصل الى القاهرة سليما ،

(٣٨) مفضل بن أبى الفضائل : كني النهج السديد ، ج ٢ ،
ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(٣٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦
(تحقيق زبيدة عطا) .

(٤٠) وقيل الملك الأمجد ، وقيل الملك القاهر ، وقيل الملك الرحيم .
انظر : أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣٠ . ابن اياس : بدائع
الزهور ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .
ويقول ابن أبيك (كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٨) : « ولقبوه الملك القاهر ،
قلت : لا ، بل هو الملك العاهر لا القاهر ! » .

اذ ما كادوا يسمعون بمقتل أستاذهم حتى أسرعوا في تعقب بيدرا ،
وأنزلوا به الهزيمة ، ثم قتلوه وهو لا يزال في البحيرة (٤١) .

وهكذا خلا المسرح من الاشراف خليل وبدر الدين بيدرا جميعا ،
وظهر بطل جديد — هو سيف الدين كتبغا — الذى سار صحبة رجاله
الى القاهرة لينادى بنفسه سلطانا فى القلعة . ولكن الامير علم الدين
سنجر الشجاعى — الذى كان الاشراف خليل قد أنابه عنه فى قلعة الجبل
قبل خروجه للصيد — حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة ، حتى انتهت
المفاوضات بين الطرفين باختيار الملك الناصر محمد بن قلاون
سلطانا (٤٢) ، فى حين ولى الامير زين الدين كتبغا المنصورى نيابة
السلطنة ، وتلقب بالملك الاوحد (٤٣) .

وكان الناصر محمد بن قلاون طفلا صغيرا فى التاسعة من عمره
عندما ولى السلطنة لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) . ومن الواضح
أن اختيار الامراء له لم يكن ناجما عن احترام شخصيته ، أو رعاية
لأحقيته فى الحكم بوصفه ابن السلطان المنصور قلاون . وانما اختاره
الامراء وفقا لسياستهم التقليدية وحسما للموقف بينهم وبين بعض ،
حتى تظهر شخصية قوية بين صفوفهم تستطيع الاطاحة بذلك الطفل
واحتلال مكانه فى الحكم . فعلا قضى الناصر محمد سنة فى الحكم
كان شبه محجور عليه بالقلعة ، فى حين استبدت بأمور الدولة الامير
علم الدين سنجر الشجاعى ، ثم الامير كتبغا المنصورى . وعندما أدرك
كتبغا ازدياد نفوذ الشجاعى بدرجة تهدد مكانته ، تخلص منه
بالتقتل (٤٤) .

(٤١) المقرئى . كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩٢ .

(٤٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤١ ،

مفضل بن أبى الفصائل : كتاب النهج السديد ، ص ٥٧٥ .

(٤٣) ابن حبيب : تذكرة النبىه ، ج ١ ، ص ١٦٦ (تحقيق محمد

محمد أمين) .

(٤٤) المقرئى . كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩٧ — ٨٠١ (تحقيق

وقد لجأ كتبنا إلى العفو عن بعض الامراء الذين شاركوا في قتل
الاشرف خليل — مثل الامير حسام الدين لاجين والامير قراسنقر —
فأثار ذلك المماليك الاشرافية . وكان أن اتخذ حسام الدين لاجين تلك
الثورة ذريعة ليزين للامير كتبنا عزل الناصر محمد واطلاق نفسه
سلطانا بدله ، « فمتى كبر الناصر محمد لا يبقيك البتة . . . والمصلحة
خلمه وسلطنتك » (٤٥) .

وهكذا جمع الامير كتبنا الامراء ، وتشدق بنفس الاسطورة
التقديمية التي سبق أن ردها قطز وقلان ، فقال لهم : « لقد فسدت
الاحوال ، لكون السلطان صغير السن ، وطمع المماليك في حق الرعية ،
ومن الرأي أن نولى سلطانا كبيرا يقمع المماليك عن هذه الافعال » (٤٦) .
وعلى هذا الوجه تم عزل الناصر محمد الصغير من السلطنة سنة
٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) وحل محله كتبنا .

السلطان العادل كتبنا :

كان السلطان العادل كتبنا الذي تولى السلطنة سنة ٦٩٤ هـ
(١٢٩٤ م) تترى الاصل ، ويقال انه من أسرى موقعة حمص
(سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨١ م) . وقد تشاءم الناس من كتبنا عندما ولى
السلطنة ، لأن قيامه في الحكم جاء مصحوبا بانخفاض النيل واشتداد
المجاعة وارتفاع الاسعار وانتشار الوباء (٤٧) . ويذكر المقرئ أن
جميع الناس بالقاهرة ترددت على ألسنتهم عبارة واحدة يوم ركوب
كتبنا بشعار السلطنة ، هي « يا نهار الشوم ا ان هذا نحس ا » (٤٨) .

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٤٦) ابن ايلس : بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ، ص ٢٨٦ (تحقيق

محمد مصطفى) .

(٤٧) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٨١٣ — ٨١٤ (تحقيق

محمد مصطفى زيادة) .

(٤٨) المصدر السابق — نفس الجزء — ص ٨٠٧ .

وزاد من كراهية الناس لكتبتنا وحكمه أنه وقد على مصر في عهده جماعة من بنى جنسه من التتار ، عرفوا باسم العويراتية أو الأويراتية ، فرحب بهم كتبتنا ، وبالنخ في اكرامهم ، رغم أن معظمهم كانوا وثنيين ، وإن كانوا قد أعلنوا انهم « يرغبون في دين الاسلام » . وكافت أعدادهم كبيرة ، إذ قاربوا « عشرة آلاف بيت بحريمهم وأولادهم ومواشيهم » ، فأدى ترحيب كتبتنا بهم الى استثارة شعور الاهالى ، والى نقتتهم على السلطان العادل كتبتنا وحكمه (٤٩) .

وعلى الرغم من أن السلطان كتبتنا عفا عن الامير حسام الدين لاجين الذى شارك في قتل الاشرف خليل ، كما عين ذلك الامير نائبا للسلطنة ، الا أن لاجين لم يلبث أن طمع في السلطنة ، مستغلا عواهل الكراهية التى أخذت تتجمع ضد كتبتنا . ويردد بعض المؤرخين أن أمراء الشام غضبوا على كتبتنا لأنه عزل الامير عز الدين أيبك الحموى — نائب السلطنة بالشام — وولى أحد مماليكه بدله . فضلا عن أن كتبتنا — عندما زار دمشق لأول مرة بعد سلطنته سنة ٦٩٤ هـ — لم يوزع على الأمراء ما جرت به عادة السلاطين السابقين من منق وانعامات (٥٠) .

وكان أن دبر الامير حسام الدين لاجين مؤامرة لقتل كتبتنا أثناء عودته من الشام الى مصر ، واختير موضع قرب طبرية لتفويض المؤامرة . غير أن كتبتنا تمكن من الفرار ، وعاد الى دمشق ، في حين أعلن حسام الدين لاجين نفسه سلطانا ، وبإيعامه الأمراء ، وأتى الى القاهرة حيث دخل القلعة ، وتلقب بالسلطان المنصور (٥١) .

(٤٩) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٨ ، ص ٢٦١ (تحقيق هارمان) .

(٥٠) مفضل بن ابى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ج ٢ ، ص ٥٩٢ — ٥٩٤ .

(٥١) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٨٢٢ — ٨٢٣ .

السلطان المنصور لاجين :

اعتلى السلطان المنصور حسام الدين لاجين دست السلطنة سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، في حين وجد كتبنا نفسه مغلوبا على أمره ، فقبل ما عرضه عليه لاجين من التنازل عن الحكم ، والاقامة في صرخد ، من أعمال دمشق (٥٢) .

على أن كتبنا لم يكن العقبة الوحيدة التي واجهت السلطان لاجين في بداية حكمه ، وانما هناك الناصر محمد بن قلاوون الذي كان لا يزال مقيما في القلعة على مقربة من أهل القاهرة الذين نظروا اليه دائما على أنه صاحب حق شرعي في السلطنة . لذلك تحايل السلطان المنصور لاجين على ابعاد الناصر محمد الى قلعة الكرك سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) ، بعد أن أوهمه أنه سيعيده الى عرشه عندما يبلغ سن الرشد ، وأنه يقوم بالوصاية على العرش بدله لصغر سنه (٥٣) .

كذلك يبدو أن لاجين نظر بعين القلق الى مقام الخلافة العباسية الى جواره بقلعة الجبل ، فنقل الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي الى مناظر الكباش بجوار الجامع الطولوني (٥٤) .

وكان الأمراء قد اشترطوا على لاجين — عند مبايعته سلطانا — ألا يجابى ممالিকে على حسابهم ، وألا ينفرد برأى ، « وألا تخول مملوكك منكوتر في التحكم والتدبير ، فتضل » . وعندئذ تعهد لهم

(٥٢) وقد ظل كتبنا مقيما في صرخد حتى انعم عليه الناصر محمد — في سلطنته الثانية — بحياة واعمالها ، فظل بها الى ان توفي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) انظر :

أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ، ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٦٧ .

(٥٣) النويرى : نهلية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٣١٥ (مخطوط) .

(٥٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٩٥ (تحقيق محمد

محمد أمين) .

لاجين بكل ذلك ، وقال لهم « أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسي عنكم ،
ولست موليا عليكم من مماليتي أحدا »^(٥٥) . ولكن سرعان ما نسي
لاجين وعوده بعد أن استتبت له الأمور ، فعزل شمس الدين قراسنقر
— الذى كان قد عينه أولا نائبا للسلطنة — وعين بدله فى منصبه
مملوكه منكوتر « وفوض اليه الأمور كلها » ، مما جاء بداية للمتاعب
التي واجهت السلطان لاجين .

ذلك أن منكوتر لم يلبث أن استثار الأمراء بتضييقه عليهم ،
وتشككه فيهم ، واقصائهم عن مناصب الدولة ، واحلال غيرهم من
ممالك السلطان لاجين محلهم . بل ان منكوتر تسلط على السلطان
لاجين تسلطا غريبا « فاستحوذ على عقل مخدومه ، واستولى
عليه وحجبه عن الخاصة والعامة » . ويبدو أن منكوتر أعد نفسه
لأن يخلف لاجين فى منصب السلطنة ، لاسيما وأن الاخير لم يكن له
ولد يحرم على أن يوليه عهد السلطنة ، الأمر الذى أثار حنق الأمراء ،
وجعلهم يفكرون فى التخلص من لاجين « لا لذنوب سبق منه لأحد ، الا
لأجل نائبه منكوتر فقط »^(٥٦) . ولم يلبث أن انتهى الأمر بقتل
لاجين — وهو جالس بالقلعة يلعب الشطرنج سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) ،
ثم قتل منكوتر بعده بقليل^(٥٧) .

(٥٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكر ، ج ٩ ، ص ٢٩٥ (تحقيق
زبيدة عطا) ،

مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ .

(٥٦) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٣٧٦ (تحقيق هارمان) ،
النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٢١٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل
الصافي ، ج ٣ ، ورقة ٦٧ (مخطوط) .

(٥٧) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٦١٤ ،
ابن أيبك : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ (تحقيق محمد
مصطفى) .

سلطنة الناصر محمد الثانية :

لم توجد بين أمراء المماليك — عقب مقتل لاجين ومنكوتر شخمية كبرى تستطيع أن تسيطر على الموقف وتستأثر بالسلطنة ، فاضطر كبار الأمراء — وسط ذلك الفراغ — الى التفكير في الناصر محمد بن قلاوون ، الذي كان يقضى أيامه في الكرك ، والذي ظل دائما يبدو في صورة صاحب الحق الشرعى في السلطنة . وكان أن استحضر الناصر محمد الى مصر ليتولى منصب السلطنة للمرة الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ — ١٣٠٨ م) ، فاستقبل في القاهرة استقبالا حماسيا رائعا من المماليك وعامة الناس سواء ، وتقاتل الناس بمقدمه ، وأقاموا الزينيات في طريقه حتى صعد الى القلعة . وهناك في القلعة جددت له البيعة ، وأخذ يباشر سلطانه ، فعين الأمير سيف الدين سار نائبا للسلطنة ، والأمير ركن الدين بييرس الجاشنكير استادارا . كما فرق الخلع على أعيان الدولة ، ووزع على ممالك أبيه العطايا والهدايا (٥٨) .

وكان أخطر ما تعرضت له دولة سلاطين المماليك في ذلك الدور ، تجدد هجمات التتار على بلاد الشام . ذلك أن جيوش غازان أوغلت في بلاد الشام سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) وأنزلت الهزيمة بالمماليك عند مجمع المروج ، بين حمص وحماة . ويبدو أن مقاومة المماليك في الشام انهارت بعد تلك الهزيمة ، فدخل غازان دمشق وعاث رجاله فيها فسادا . على أن غازان اكتفى بذلك ، وعاد الى بلاده بعد أن عين نائبا عنه في دمشق . وكان ذلك في الوقت الذى خرج من مصر جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر محمد سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) . ولم يستجب المماليك لطلب غازان مهادنتهم ، وإنما

(٥٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١١٥ — ١١٦ .
(م ١٦ — الأيوبيون والمماليك)

دخلوا دمشق^(٥٩) ، الأمر الذي استثار غازان فخرج من بلاده شرقى الفرات سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) قاصدا غزو الشام من جديد . وفي موقعة مرج الصفر التي دارت قرب دمشق في تلك السنة ، حلت الهزيمة قاسية بالتناثر ، الأمر الذي جعل الناس يتقاطلون بالناصر محمد رغم صغر سنه ، ويستقبلونه استقبالا حافلا في دمشق والقاهرة^(٦٠) .

ومع ذلك ، فان السلطان الناصر محمد كان لا يستطيع باى حال الوقوف في وجه كبار أمراء المماليك الذين اشتدت ضراوتهم ، ومرنوا التلاعب بكبار السلاطين ، فما بالنابصى صغير كان لا يزال عندئذ في الرابعة عشر من عمره . لذلك كانت سلطنة الناصر محمد الثانية اسمية ، بعد أن ضيق الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير الخناق عليها ، وحالا بينه وبين الاتصال بالناس أو التصرف في أمواله^(٦١) : بل لقد بلغ الأمر بالسلطان الناصر محمد عندئذ أنه كان اذا اشتهى لونا معيناً من الطعام أرسل التماسا برغبته الى الأمير سلار . ويروى المؤرخون أنه حدث أن أرسل الناصر محمد الى الأمير سلار، يبلغه أنه يشتهى تناول بعض الحلوى والأوز ، فرد الأمير سلار على حامل الطلب صائحا « وايش يعمل السلطان بالأوز ؟ هو الأكل عشرون مرة بالنهار. ؟ ! »^(٦٢) .

وأخيرا ضاق السلطان الناصر محمد بذلك الحجر المفروض

(٥٩) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ورقة ٣٣١ ،
بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٣١٥ — ٣١٦ (تحقيق
زبيدة عطسا) .

(٦٠) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٩٣٨ (تحقيق محمد
بضطنى زيادة) .

(٦١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٥٤ .
(٦٢) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٧٠٢ هـ ،
ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٨ ، ص ١٧٥ ، ٢٧٥ .

عليه ، فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار لمساعدته في التخلص من
الأميرين سلار وبييرس الجاشنكير . ولكن هذين الأميرين علما
بالمؤامرة ، فحاصرا القلعة للقبض على الناصر محمد ومنعه من
الهروب ، مما أثار اشتباكا بين المالك السلطانية وأتباع الأميرين .
وجدير بالذكر أن الرأي العام بالقاهرة كان يعطف على السلطان
الناصر محمد الصغير عطفًا لا حدود له ، فلم يكذ العامة يعرفون بما
حدث من محاصرة الناصر محمد بالقلعة ، حتى تجمعوا أخذوا يرددون
« يا ناصر يا منصور ! .. الله يخون من يخون ابن قلاون ! » (٦٣) .
ولأول مرة نسمع عن تغلب ارادة الشعب في عصر سلاطين المماليك ،
فوجد بييرس الجاشنكير وسلار نفسيهما في مأزق إزاء مناصرة الرأي
العام للسلطان الصغير ، فاضطرا الى الانحناء أمام العاصفة ، وجددا
الولاء للناصر محمد بعد أن نفى عن نفسه أية نوايا سيئة تجاههما ،
وأعلن أن أحدا من الأمراء لم يحرضه ضد هما (٦٤) .

ولكن اذا كانت العاصفة قد هدأت ، فان هدوءها كان في الظاهر ،
لأن سلار وبييرس ظلا يضمران الكراهية للناصر محمد ، في حين أن
الناصر نفسه كان غير مرتاح الى وضعه ، ويخشى على نفسه عاقبة
غدر هذين الأميرين . وأخيرا ضاق السلطان الصغير بحياته التي
تضاها حبيس القلعة ، وأدرك تعذر التغلب على سلار وبييرس بعد
أن « تجاوزا الحد في الانفراد بالأموال والأمر والنهي » (٦٥) . لذلك فكر
الناصر محمد في الهروب من السلطنة ، فتظاهر برغبته في أداء فريضة
الحج ، وخرج من مصر قاصدا الحجاز عن طريق الكرك . ولكنه
ما كاد يصل الى الكرك سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، حتى كتب عن
نواياه ، فدعا من يرافقه من الأمراء والمماليك ، وأخبرهم أنه اختار

(٦٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٧٣ .

(٦٤) ابن ايلس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤١٩ — ٤٢٠ .

(تحقيق محمد مصطفى) .

(٦٥) ابو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

الحياة في الكرك حراً ، وأنه راغب في التحرر من السلطنة وقيودها .
ثم أرسل السلطان الناصر محمد الى كبار الأمراء بمصر يخبرهم
بقراره (٦٦) .

وكان أن ارتبك الأمراء في مصر عندما وصلتهم رسالة الناصر
محمد ، لأنهم لم يكونوا مستعدين لمواجهة مثل ذلك الموقف ، فأرسلوا
اليه يطلبون منه العودة الى مصر ، والا حرهوه من السلطنة ومن
الاقامة في الكرك . ولكن الناصر محمد أصر على رأيه ، ورد عليهم
قائلاً « دعوتى أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم الى أن يفرج الله
تعالى اما بالموت واما بغيره . . . » . وعند عرض الأمراء على
سلار منصب السلطنة ، ولكنه تخوف من أن يحل به ما حل بكتبغا
ولاجين ، لا سيما وأن أحوال الدولة كانت مرتبكة عندئذ ، ولا تبشر
بخير . لذلك اعتذر سلار عن قبول المنصب ، وأشار الى زميله
بييرس الجاشنكير ، وقال : « والله يا أمراء ، أنا ما أصلح للملك ،
ولا يصلح له إلا أخى هذا ! » وكان أن بايع الأمراء بييرس الجاشنكير
بالسلطنة (٦٧) .

السلطان المظفر بييرس الجاشنكير :

تولى بييرس الجاشنكير منصب السلطنة سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م)
وبادر فور اعتقاله دست السلطنة باصدار تقليد بمنح الناصر محمد
الكرك . على أنه اذا كان لسلطان بييرس (الثانى) قد ظن أن الأمور
ستهدأ بعد ذلك ، فإن آماله لم تلبث أن انهارت بسرعة . ذلك أن
الناصر محمد ظل يتمتع دائماً بشعبية كبيرة في مصر والشام ، بحيث
لم يستطع الناس أن ينسوه بسهولة .

(٦٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٦٧) القرينى : كلب السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٦ (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

وقد عين السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير الأمير سلار نائبا له . ولكن شاعت الظروف أن يأتي قيام بيبرس الجاشنكير في الحكم مصحوبا بانخفاض النيل وارتفاع الاسعار . « فحصل لأرباب المعاش البوار ، وانقطعت بواخر التجار . » (٦٨) وقد فسر الناس ذلك بسوء ظالم السلطان الجديد ، فساروا يطوفون شوارع القاهرة وهم يرددون « سلاننا ركين (تصغير ركن الدين بيبرس) ، ونائبنا دقيق (يقصدون الأمير سلار ، وكان مجردا بذقنه شعيرات قليلة) ، يجينا الماء مئين ٢٢ جيبوا لنا الأعرج (يقصدون الناصر محمد وكان به عرجا خفيفا) ، يجي الماء ويدحرج !! » (٦٩) .

ثم إن كثيرين من أمراء الشام رفضوا الاعتراف بالسلطان المظفر بيبرس ، وبخاصة فواب حلب وحماء وطرابلس ، الذين أبوا التراجع عن موقفهم وأعلنوا ولاءهم لبيت قلاون . بل لقد بلغ الأمر بهؤلاء الأمراء الثلاثة أنهم اجتمعوا وأرسلوا الى الناصر محمد بالكرك يستأذنونه في القدوم عليه بالكرك لمناصرته ، « فاما أن نأخذ له الملك ، وإما أن نموت على خيولنا » (٧٠) .

أما الناصر محمد نفسه ، فكان كلما تقدم به الوقت ازداد نضجا ، وتيقبه الى حقوقه في الحكم والى سلطانه المسلوب . وبعبارة أخرى ، فان الناصر محمد صار في سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م) غير ما كان عليه سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) ، اذ فعلت فيه هذه السنوات الخمس عشرة - منذ عزله أول مرة - الكثير : فصقلته ، وأكسبته قدرا كبيرا من التجربة ، وبخاصة في معاملة الأمراء .

(٦٨) ابن ابيك : كنز الدرر وجمع الدرر ، الجزء التاسع المسمى « الدر الناضر في سيرة الملك الناصر » ، ص ١٦٢ (تحقيق روبر) .

(٦٩) المتريزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٧٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٢٧ .

وكان المظفر بيبرس قد علم بما دار من اتصالات بين الإنصار
محمد وأمرأء الشام ، فأرسل إلى الناصر يهدده ويقول له : « إذا
أنت لم تخرج عن مكاتبك للأمرأء وألا نقلتني من الكرك إلى
القسطنطينية ، كما فعل الأشراف خليل مع أولاد الملك الظاهر بيبرس
الغيدقاري » (٧١) . بل لقد بلغ الأمر بالسلطان بيبرس الجاشنكير
أن أرسل إلى الناصر محمد بالكرك ، يطلب منه ما لديه من خيل
وماليك (٧٢) . وعندئذ غضب الناصر محمد غضبا شديدا ، وصاح :
« أنا جلّيت ملك مصر والشام لبيبرس ، وما يكفيه حتى ضاقت عينه
على فرس عندي أو مملوك لي ٤١ » . وفي الحال أرسل الناصر محمد
إلى حلفائه من أمرأء الشام يقول لهم « أنتم مماليك أبي وربيتموني ،
فأما أن تزعموه عني ، وإلا أسير إلى بلاد التتار » (٧٣) .

وسرعان ما أخذ الناصر محمد ينظم صفوفه لاسترداد سلطنته
المفقودة ، فترك كثيرا من الأمرأء جانب بيبرس الجاشنكير وهربوا
إليه . ويذكر ابن حبيب أنه حدث في سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) أن
« سار جماعة من الأمرأء والمماليك السلطانية من الديار المصرية ،
مفارقين طاعة السلطان الملك المظفر بيبرس ، ووصلوا إلى السلطان
الناصر محمد بالكرك ، وأعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبته .
ووصلت إليه المكاتبات من البلاد الشامية » (٧٤) .

وعندما زار الناصر محمد دمشق ، استقبله أهلها بحفاوة بالغة ،

(٧١) ابن آياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٦ (تحقيق
محمد مصطفى) .

(٧٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ج ٣ ،
ص ٤٦٦ (تحقيق نبيل محمد عبد العزيز) .

(٧٣) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٦٠ .

(٧٤) ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢ ، ص ١٧ (تحقيق محمد
محمد أمين) .

وأقيمت الخطبة باسمه يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) .
أما المظفر بيبرس فقد ساء موقفه وانفض عنه معظم رجاله ، فحاول
أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسى فى
القاهرة — وهو أبو ربيعة سليمان الملقب بالمستكنى — ، ولكن كل
ذلك لم يجد نفعا أمام التقاف الناس حول الناصر محمد وحبهم له .
هذا الى أن الخليفة العباسى فى القاهرة كان لا حول له ولا قوة ، حتى
أنه عندما قرأ أحد أمراء المماليك العهد الذى منحه الخليفة سليمان
للسلطان المظفر بيبرس ، ووجده يستهل بقوله تعالى « انه من سليمان
وانه بيسم الله الرحمن الرحيم » . رد الأمير على القوم قائلا
« وسليمان الريح !! » (٧٥) .

وأخيرا اعترم الناصر محمد — ومن حوله انصاره — الانتقال
الى مصر . وعندئذ وجد بيبرس الجاشنكير نفسه وحيدا ، لا أحد
يتعاطف معه ، ولا جيش يسنده . وكان أن دعا الأمراء لمشاورتهم فى
الأمر ، فأشار عليه بعضهم بالنزول عن العرش واستسماج الناصر
محمد ليعفو عنه . ولم يكن بوسع بيبرس الجاشنكير أن يفعل غير
ذلك ، « فخلع نفسه من السلطنة » (٧٦) ، وغادر القلعة ليلا قاصدا
أطفيح ، ومن خلفه العامة يطاردونه حتى أوسعوه سبا ، وأوشكوا على
الفتك به لولا « أنه أشغلهم بشيء من الفضة نثرها لهم ، والا كان
قتل لا محالة » (٧٧) .

وعلى هذا الوجه انتهت سلطنة بيبرس الجاشنكير .

(٧٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٦٢ .

(٧٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٤٧١ (تحقيق

نبيل محمد عبد العزيز) .

(٧٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٠ (تحقيق

محمد مصطفى) .

سلطنة الناصر محمد الثالثة: (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م)

ما كاد الملك المظفر بيبرس الجاشنكير يغادر القلعة هاربا في مساء يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان ، حتى أصبح الحراس بقلعة الجبل يوم الاربعاء سابع عشرة « يصيحون باسم الملك الناصر » . وفي يوم الجمعة تاسع عشرة « خطب على منابر القاهرة ومصر باسم الملك الناصر ، وأسقط اسم الملك المظفر » (٧٨) .

أما السلطان الملك الناصر محمد ، فإنه خرج من دمشق في الثانية من نهار يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان ، وهي الساعة التي خلع فيها الملك المظفر بيبرس نفسه من الملك . واتجه الناصر محمد الى مصر مارا بغزة ، يرافقه رجاله واتباعه ومؤيدوه . وكان المؤرخ أبو الفدا يرافق السلطان في رحلته هذه ، فوصف كيف أنه بوصول الناصر مجملد الى غزة ، قدم اليه عسكر مصر وأمرأؤها من المقدمين ، بحيث « كان يلتقى مولانا السلطان في كل يوم وهو سائر طلب بعد طلب من الأمراء والماليك والأجناد ، يقبلون الارض ، ويسيرون صحبة الركاب الشريف » (٧٩) وهكذا حتى دخل القلعة مساء أول أيام عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) . « وأصبح السلطان يوم الخميس جالسا على تخت الملك وسرير السلطنة ، وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للهناء » (٨٠) .

وكان الناصر محمد عندما ولي السلطنة للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) في الخامسة والعشرين من عمره ، أي في سن تمكنه من مباشرة شؤون الحكم بنفسه . وكان أن بدأ بمعاوية الأمراء الذين سبق

(٧٨) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٧١ | تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٧٩) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٥٧ .

(٨٠) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

لهم أن استخفوا به وآذوه ، فقبض على بييرس الجاشنكير عند غزاة وهو يحاول الفرار ، وأعدمه بعد أن عذبه وذكره بمواقفه منه (٨١) أما سلار ، فقد ألقى به في السجن حتى مات (٨٢) وهكذا تنبه الناصر محمد في تلك المرة الى مطامع الأمراء ، فصار كلما سمع بتآمر أمير ، أو شك في تصرفاته ، تخلص منه في الحال ، وأقصاه عن الوظائف العامة . وصارت سياسته تجاه كبار رجال الدولة بوجه عام ، هي أن يقرب الواحد منهم ، حتى إذا أحس أن نفوذه تخطى الحد الذي ينبغي أن يقف عنده ، تخلص منه في الحال (٨٣) . يذكر المقرئزي أن السلطان الناصر محمد « كان إذا كبر أحد من أمرائه قبض عليه ، وسلبه نعمته ، وأقام بدله صغيرا من مماليكه ، الى أن يكبر ، فيمسكه ، ويقيم غيره ، لبأن بذلك شرهم » (٨٤) .

وقد دام حكم الناصر محمد في تلك المرة الثالثة احدى وثلاثين سنة ، وهي مدة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك . ويمثل ذلك العصر بالذات أعظم حلقات تاريخ عصر المماليك ازدهارا ، وأكثرها رقيا واستقرارا . ذلك أن نفوذ الناصر محمد امتد من المغرب غربا حتى الشام والحجاز شرقا ، ومن النوبة جنوبا حتى آسيا الصغرى شمالا . وقد أرسل الناصر محمد حملة الى النوبة سنة ٧٠٤ هـ (١٠٣٤ — ١٣٠٥ م) في سلطنته الثانية ، ثم أرسل اليها حملتين سنة ٧١٥ هـ ، سنة ٧١٦ هـ (١٣١٥ م ، ١٣١٦ م) في سلطنته الثالثة . وتمكنت هذه الحملات من اقامة أول ملك مسلم من أهل النوبة حاكما على تلك البلاد ، واسمه عبد الله برشنبو . واذا كانت أحوال مملكة النوبة

(٨١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٥ ،
المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٠ — ٨١ .

(٨٢) ابن ايباس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٦ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٨٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٥٢ .

(٨٤) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ (بولاق) .

لم تستقر بعد ذلك ، مما تطلب من السلطان الناصر محمد ارسال حملة جديدة اليها سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) ، الا أنه يلاحظ أن بلاد النوبة أخذت منذ ذلك الوقت تفقد طابعها المسيحى تدريجيا ، لتتخذ مسحة اسلامية عربية^(٨٥) .

أما في الداخل ، فقد كان عهد الناصر محمد عهد رخاء واستقرار ومعران ، فاقام الناصر محمد كثيرا من المنشآت ، مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها^(٨٦) . ومن منشآته الشهيرة المدرسة الناصرية ، والمسجد الذى شيده بالقلمة ، والخانقاة التى أقامها فى سرياقوس . هذا فضلا عن المؤسسات التى جددتها ، مثل البيمارستان المنصورى الذى كان والده قد شيده سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) . وقد وصف المقرئى السلطان الناصر محمد بأنه « كان محبا للعمارة . . . بلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة »^(٨٧) . أما ابن أيبك فقد ذكر قائمة طويلة باسماء الجوامع التى أقيمت فى مصر والقاهرة — فضلا عن الممالك الشامية — فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون^(٨٨) .

وهكذا قضى السلطان الناصر محمد فترة حكمه الطويل فى الإصلاح والانشاء والتعمير ، الأمر الذى جعل المؤرخين والرحالة المعاصرين يشيدون بسيرته وعظمته^(٨٩) .

-
- (٨٥) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ١٦١ — ١٦٢ ،
مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة ، ص ٩٦ وما بعدها .
(٨٦) عدد المؤرخ ابن تغرى بردى (النجوم ، ج ٩ ، ص ١٧٨
وما بعدها) منشآت الناصر محمد ، وفكر اد للاحته بالتفصيل .
(٨٧) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .
(٨٨) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢٨٨ وما بعدها .
(٨٩) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج ٣ ، ورقة ٢٥٠ (مخطوط) ،
رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣١ ، الشجاعى : تاريخ الملك الناصر ، ص
٣١ ، ٩٥ (تحقيق شيفر) .

أولاد الناصر محمد وأحفاده :

. تمتع بيت قلاون بحب الناس وإخلاصهم ، وحظى الناصر محمد بن قلاون بشعبية كبيرة عبرت عن نفسها في تمسك رعاياه به وإخلاصهم له .

وتد يكون السبب في ذلك أن الناس في عصر سلاطين المماليك سئموا الاضطرابات والفتن ، والمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم ، فلا يكاد ينتشر خبر بمرخص سلطان أو وفاته أو مقتله ، حتى تغلق الحوانيت ، ويختزن الناس الطعام ، ويتأهبون لفكرة عصية يتزعزع فيها الأمن ، وتندرب الأوقات ، وتضطرب كافة مظاهر الحياة . وكان أن سئم الناس في عصر سلاطين المماليك تلك الأوضاع ، وآرادوا أن يهتئوا بقسط من الاستقرار والهدوء ، يباشرون في ظلة حياتهم العادية ، دون أن تقلقهم أزمة أو تهددهم فتنة . فوجدوا غايتهم في عهد المنصور قلاون وعهد ابنه الناصر محمد . وفي ذلك يقول ابن أبيك « اعتبرت منذ أول الزمان الى آخر وقت ، فلم أجد زمانا أكثر خيرا وأمنيا وخصبا ، واقامة منار الاسلام في سائر الممالك الاسلامية من زمان مولانا السلطان (الناصر محمد) ... » (٩٠) .

وهذه المكانة الكبيرة التي تمتع بها بيت قلاون ، هي التي جعلت الناس يتمسكون بسلالة الناصر محمد بعد وفاته سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، فظل أولاده وأحفاده يحكمون الدولة حتى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، أي على مدى أربعين عاما ، على الرغم من أنه كان بين هؤلاء الأبناء والأحفاد من لا يستحق الملك ، لضعفه ، أو سوء سيرته ، أو صغر سنه . ومع ذلك ، فإن الهيبة التي صارت لبيت قلاون في نفوس الناس جعلتهم يتمسكون بكل من ينتمي الى هذا البيت . ومن أمثلة ذلك ، أنه ما كاد ينادى بسلطنة الملك المنصور أبي بكر -

(٩٠) ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢٨٤ (تحقيق روبر) .

بعد وفاة أبيه السلطان الناصر محمد بن قلاوون — ، حتى « اطمانت الناس ، وذهب ما كان عندهم من الخوف واليأس ، لما كانوا يظنون أن يجرى من الفتن عند موت السلطان » (٩١) .

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يحس دائما بشعور القلق نحو مستقبل السلطنة بعد وفاته ، ويخشى أن يتعرض أبناؤه لما تعرض هو له في مستهل حياته من تلاعب كبار أمراء المماليك بمصالحه وحقوقه . لذلك عهد الناصر محمد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣١ م) إلى ابنه الأمير ناصر الدين آتوك بالسلطنة ، وأقر الأمراء تلك الخطوة . وكان أن وزعت الخلع على كبار رجال الدولة ، وركب الأمير آتوك بشعار السلطنة . غير أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن غير رأيه فجأة ، وألغى ما أحدثه بالنسبة لآتوك من ولاية العهد ، « ورسم أن يلبس آتوك شعار الأمراء ، ولا يطلق عليه اسم السلطنة » (٩٢) . وتقف المصادر المعاصرة وقفة صمت ازاء هذا التحول المفاجيء في سياسة الناصر محمد تجاه مسألة ولاية العهد . ولا نستطيع أن نفسر نحن ذلك الا في ضوء عدم رضا الناصر محمد عن ولده آتوك ، أو أنه رأى أن يرجيء هذا الأمر حتى يكبر ابنه ويتجاوز مرحلة الطفولة ، لأنه لم يكن قد تجاوز عندئذ التاسعة من عمره .

ومهما يكن من أمر ، فان آتوك توفي سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، بينما كان السلطان الناصر محمد يعاني من مرض الموت . وكان أن جمع السلطان كبار الأمراء حوله وأعرب لهم عن رأيه في أن يخلفه في الحكم ابنه المنصور سيف الدين أبو بكر ، فأقر الأمراء ذلك ، وتمعدوا

(٩١) الشجاعي (شمس الدين) : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، ص ١٢٤ (تحقيق بريارة شيفر) .
(٩٢) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ . (تحقيق محمد محمد امين) .

بتتفيذ رغبة السلطان^(٩٣) وبعد ذلك بقليل لفظ السلطان الناصر أنفاسه
الآخيرة سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، وسط مظاهر الآسى والحزن البالغ .
وقد وصفه ابن حبيب بأنه « كان ملكاً جليلاً مهيباً ، ذكياً ، عارفاً ،
خبيراً بسياسة الملك ، عالى الهمة ، حسن الرأى والتدبير . . . »^(٩٤) .

والواقع ان وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاون جاءت ايذاناً
بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء التى تمتعت بها دولة سلاطين المماليك
فى عهد هذا السلطان . واذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا
من البقاء فى الحكم أربعين سنة بعد وفاة السلطان الناصر نفسه سنة
٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، فان ذلك لا يرجع الى موهبة خاصة تميز بها
أحدهم ، بقدر ما يرجع الى هنية بيت قلاون نفسه ومكانته فى قلوب
المعاصرين ، وهى الهنية التى غرسها المنصور قلاون ، والتى ازدادت
رسوخاً فى عهد ابنه الناصر محمد . وبعبارة أخرى ، فان أبناء الناصر
محمد وأحفاده عانوا على السمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة
الواسعة التى غرسها الناصر محمد بالذات فى قلوب معاصريه^(٩٥) .

وليست هناك أهمية خاصة لأحد أبناء الناصر محمد أو أحفاده
تجعلنا نتكلم عن كل واحد منهم على حدة . وانما تكفى الاشارة الى
أنه فى العشرين سنة الأولى التى أعقبت وفاة الناصر محمد (٧٤١ -
٧٦٢ هـ / ١٣٤١ - ١٣٦١ م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ،
وفى العشرين سنة التالية (٧٦٢ - ٧٨٤ هـ / ١٣٦١ - ١٣٨٢ م)
تعاقب فى ذلك المنصب أربعة من أحفاده . وحسبنا أن نعلم أن بعض

(٩٣) تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٢٢ ،

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٩ ، ص ١٦٤ .

(٩٤) ابن حبيب : تفكرة النبى ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ (تحقيق محمد

محمد أمين) .

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 499.

(٩٥)

هؤلاء الأبناء والأحفاد نودى به سلطانا وعمره عام واحد — مثل الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد — ، كما أن بعضهم لم يبق في الحكم الا شهرين وبضعة أيام ، مثل الناصر شهاب الدين أحمد ابن الناصر محمد . ولعل هذه الأمثلة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ما عانتها الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى ، تركت أثرها واضحا في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وزاد من أحوال البلاد سوءا في ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم الوباء الاسود سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، أى في عهد أولاد السلطان الناصر محمد ، فمات كثير من الناس ، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر ، حتى كادت تتوقف تماما ، « وتوقفت الاحوال بالقاهرة ومصر » (٩٦) .

ولم يكن من المستطاع وقف استغلال الأمراء لصغر سن السلاطين ، مما أدى الى منافسات ومنازعات فيما بينهم وبين بعض من جهة ، والى تحكهم بعضهم واستبدادهم بشئون الدولة من جهة أخرى (٩٧) . وعند دراستنا لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده ، تبدو لنا ظاهرة واضحة ، هي أن كل سلطان من بنى قلاون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبار أمراء المماليك ، بحيث طغت شخصية هؤلاء الامراء الكبار على السلاطين ، وغدت أسماء الامراء — دون السلاطين — هي مدار الأحداث المعاصرة ، وموضع اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين . ومن هؤلاء الأمراء ، لمس في عصر أبناء الناصر محمد الأمير قوصون ، ويلبغا اليحاوى ، وآقسنقر السلارى ، وأرغون

(٩٦) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٠ — ٧٧٤ .

(٩٧) سعيد عشور : العصر المماليكى في بحر والشام ، ص ١٢١

وما بعدها .

العلائى ، وشيخو ، وطاز ، وصرغتمش . أما عهد أحفاد الناصر محمد ، فقد ظهرت فيه أسماء قشتمر المنصوري ، ويلبغا الخاصكى ، وبرقوق . .

ويعنيها عن أمر هؤلاء الأعراء ، أن بعضهم كان من المماليك البرجية أو الجراكسة ، الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة ، مما أدى الى تمكثهم من انتراع الحكم سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، كما سنرى فى الفصل الآتى .

الدملة الصليبية على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) :

هذا عن الأحوال الداخلية لحولة سلاطين المماليك فى عصر أبناء انناصر محمد وأحفاده . أما فى الخارج ، فان اضطراب أحوال مصر الداخلية ، وعدم وجود رجل قوى مهيب الجانب على رأس دولة المماليك ، أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التى كانت قد بلغت أوجها على عهد السلطان الناصر محمد . ولم يلبث أن استخف الاعداء بدولة سلاطين المماليك ، وطمع الطامعون فى أراضيها ، بل لقد تجرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) .

ومن المعروف أن الحروب الصليبية فى الشرق لم تنته باستيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أو بطرد آخر البقاييا الصليبية من الشام ، وانما استمرت تلك الحروب — فى صورة أو أخرى — حتى نهاية القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد . وفى ذلك الدور الأخير من أدوار الحروب الصليبية ، اتخذ ملوك قبرس من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الاسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط ، فضلا عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانى الاسلامية ، وبخاصة موانى دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام^(١٨) وساعد ملوك قبرس فى تنفيذ ذلك

(١٨) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٢ — ٥٣ .

المخطط ، أن كثيرا من البقايا الصليبية التي طردت من بلاد الشام في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، اتخذت من جزيرة قبرس بالذات مستقرا ومقاما ، مما هيا لآل لوزجنان قوة ضاربة ، مرتت على محاربة المسلمين ، وتتوق للانتقام مما حل بالصليبيين على أيديهم ببلاد الشام^(٩٩) .

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرس سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) الملك بطرس الأول لوزجنان ، الذي اشتهر بقوة شخصيته ، وتطرفه في الحماسة الدينية . وقد أراد هذا الملك أن يجعل من نفسه بطس المسيحية في صراعها ضد المسلمين ، ولذلك فكر في القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية . وعندما أدرك أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج الى استعدادات ضخمة وأموال كثيرة ، ورجال عديدين ، قام برحلة طويلة في غرب أوربا (٧٦٣ - ٧٦٦ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٦٥ م) للحصول على أكبر قدر ممكن من مساعدات البابوية وملوك الغرب الأوربي^(١٠٠) .

وأخيرا جمع بطرس لوزجنان قواته في جزيرة رودس ، حيث تم الاتفاق على اختيار الاسكندرية بالذات هدفا للهجوم الصليبي ، وذلك للقضاء على دولة سلاطين المماليك التي تسببت في طرد الصليبيين من الشام من ناحية ، والاستفادة من استراتيجيتها تلك المدينة ومكانتها التجارية من ناحية أخرى . ولا يبد أن يكون الصليبيون والغرب الأوربي قد سمعوا بأخبار الفوضى التي غرقت فيها دولة سلاطين المماليك في عصر أحفاد الناصر محمد ، وكيف كانت المدن والموانئ خالية من وسائل الدفاع^(١٠١) .

Schlumberger : Prise de Saint Jean d'Acre, p. 35. (٩٩)

Machaut : La Prise de L'Alexandrie, p. p. 21 - 42 (١٠٠)

(١٠١) النويرى الاسكندراني : الامام بالاعلام ، فيما جرت به الاحكام ، والامور المتضية ، في واقعة الاسكندرية ، ج ٢ ، ص ٩٢ وما بعدها (تحقيق عزيز سوريال عطية ، ١٩٦٩) .

ويعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت الى مصر عن طريق التجار ، قبل وقوع الهجوم مبهمة بطويلة ، الا أنه « لم يكن من الدولة اهتمام » على حد تعبير المقریزی (١٠٣) . وكان سلطان دولة المماليك في ذلك الوقت هو الأشرف شعبان — حفيد الناصر محمد — وهو عندئذ طفل صغير في الحادية عشر من عمره . أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير يلغاب الخاصكي الذي اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه ، حتى أنه عندما سمع بنية ملك قبرس في مهاجمة الاسكندرية ، قال : « ان القبرسي أقل وأذل من أن يأتي الى الاسكندرية » (١٠٣) .

ولكن هذه الكبرياء لم تجد شيئاً في صد المعتدين الذين تزلوا على ساطئ الاسكندرية صباح الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م (٢٣ من شهر المحرم سنة ٧٦٧ هـ) وهاجموا المدينة فور نزولهم . ولم تغلخ الاستعدادات السريعة التي اتخذت لصد الخطر الصليبي ، فالتحم الصليبيون الاسكندرية ، وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر (١٠٤) . وهكذا سقطت الاسكندرية في قبضة الصليبيين ، فقضوا فيها ستة أيام ، تعتبر من أهلك الايام في تاريخ الثغر . ذلك أن الصليبيين انتشروا في شوارع المدينة وأزقتها ودروبها ، ينتقمون من أهلها المسلمين ، « فاستلموا الناس بالسيف ، ونهبوا الحوانيت والدور ، وأحرقوا الخانات والقصور ، وخرّبوا المساجد والزوايا ، واعتدوا على النساء والبنات » (١٠٥) .

-
- (١٠٢) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٥ (تحقيق المؤلف) .
(١٠٣) النويري الاسكندراني : الالم ، ج ٢ ، ص ١١١ (تحقيق عزيز سوريال عطية) .
(١٠٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٦٣ — ٦٤ .
(١٠٥) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٥ (تحقيق المؤلف) ،
النويري الاسكندراني ، الالم : ج ٢ ، ص ١٤٨ وما بعدها (تحقيق عزيز سوريال عطية) .

(م ١٧ — الأيوبيون والمماليك)

وكان قائد الحملة — الملك بطرس لوزجنان — يرى ضرورة الاحتفاظ
بالاسكندرية والبقاء فيها ، والدفاع عنها لاتخاذها نقطة ارتكاز لغزو
مصر بأجمعها . ولكن بعض رجاله أقنعوه بخطورة تلك المحاولة ،
فاضطر الصليبيون الى الجلاء يوم الخميس ١٦ أكتوبر ١٣٦٥ م
(٢٨ من المحرم ٧٦٧ هـ) بعد أن حملوا في سفنهم آلاف الاسرى ،
فضلا عن المنهوبات والبضائع .

وأخيرا وصل يلبنغا الخاصكى على رأس جيشه الى الاسكندرية ،
وكان وصوله عند رحيل الغزاة ، فشاهد ما حل بالمدينة من دمار
وخراب ، وأمر بدفن جثث القتلى ، وترميم ما خرب وأحرق^(١٠٦) .

وإذا كانت دولة سلاطين المماليك تمر عندئذ بدور من الانحلال
والفوضى مما لم يمكنها من الثأر من جزيرة قبرس وملوكها ، الا أن
المسلمين لم ينسوا ما حل بالاسكندرية على أيدي الصليبيين سنة
٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، ولم تهدأ نفوسهم الا عندما انتقموا لانفسهم ،
وكان ذلك في عصر دولة المماليك البرجية ، كما سنرى في الفصل
الآتى .

(١٠٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٧ (تحقيق المؤلف) ،
وانظر للمؤلف أيضا كتاب : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٦٨ — ٦٩ .

الفصل الخامس

دولة المماليك الجراكسة

نشأة فرقة المماليك الجراكسة :

أراد السلطان المنصور قلاوون أن ينشأ فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد مناقسيه من كبار الأمراء ، وتكون سندا لاولاده وذريته في الاحتفاظ بالعرش . وكان المنصور قلاوون يقول « كل الملوك عملوا شيئا يذكر به ما بين مال وعقار . وأنا عمرت أسوارا ، وعملت حصونا مانعة لى ولولادى وللمسلمين ، وهم المماليك ! »^(١) .

وقد رأى قلاوون أن تكون فرقتة الجديدة من جنس غير الأجناس التى انتمى اليها مماليك عصره : فأعرض عن شراء الأتراك والنتار والترکمان ، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون الى بلاد الكرج (جورجيا) ، وهى البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود .

وساعد قلاوون في تحقيق رغبته ، كثرة الجركس في أسواق الرقيق في النصف الأخير من القرن السابع الهجرى - الثالث عشر للميلاد - بسبب تعرض بلادهم لغزوات التتار ، حتى غدت ميدانا للصراع بين تتار فارس وتتار القفجاق . يذكر القرىزى أن طوائف الجراكسة كانوا « ملك سراى كالرعية ، فان داروه وهاذوه كف عنهم ، والا غزاهم وحصرهم . وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق ، وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم رقيقا الى الأقطار »^(٢) .

(١) القرىزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٢ (بولاق) .

(٢) القرىزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٤١ (بولاق) .

ويبدو أن كثرة الجركس في أسواق الرقيق في ذلك العصر أدت إلى انخفاض أثمانهم ، على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة ، وقوة البدن والشجاعة ، حتى أن متوسط ثمن المملوك الجركسى بلغ مائة وخمسة عشر دينارا ، في حين كان متوسط ثمن المملوك التركي مائة وخمسين دينارا^(٣) . ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان المنصور قلاون أكثر من شراء المماليك الجركس ، وإن كان لم يسرف في تمييزهم على غيرهم .

يذكر ابن تغرى بردى أنه « كان من محاسن الملك المنصور قلاون أنه لا يميل إلى جنس بعينه ، بل كان ميله لمن يتخيل فيه النجابة كائنا من كان » . وفي الوقت نفسه كان حازما في تربية مماليكه « ولو لم يكن من محاسنه الا تربية مماليكه وكف شرهم عن الناس لكفاه ذلك عند الله تعالى »^(٤) . وقد بلغ عدد المماليك البرجية في عهد المنصور قلاون أكثر من ثلاثة آلاف مملوك ، عنى بتربيتهم في أبراج القلعة ، مما جعل اسم البرجية يلتصق بهم في التاريخ^(٥) .

وقد حرص أبناء المنصور قلاون وأحفاده على اتباع سياسته في الاكثار من شراء المماليك ، حتى أن الأشرف خليل بن قلاون اشترى أثناء حكمه القصير ألفى مملوك . ومن جهة أخرى فإن المماليك البرجية سرعان ما حققوا الغرض منهم ، فكانوا بمثابة الدعامة التي استند

ويذكر أبو الفدا — وهو معاصر — أن سراى ، أو صراى ، كانت عاصمة أو كرسى مملكة تتر القفجاق « وعنى فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك » .

(تقويم البلدان ، ص ٢١٦ — ٢١٧) .

Heyd : Hist. du Commerce au Levant au Moyen Age, T. 2. (٣)
p. 529.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٥) يذكر ابن تغرى بردى عن المنصور قلاون أنه « جمع من المماليك خلقا عظيما لم يجمعهم احد قبله ، فبلغت عدتهم اثني عشر ألفا ، وصار منهم الامراء الكبار والنواب » (النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٢٧) .

اليها بيت قلاون ، والقوة التي دافعت عن مصالح سلالة . وقيد سبق أن أشرنا الى ثورة المماليك الأشرفية — من البرجية — ضد قتل استاذهم الأشرف خليل ، بحيث لم تهدأ ثأرتهم الا بعد أن انتقموا لمقتله ، وقتلوا بيدرا وشركاءه ممن شاركوا في قتل استاذهم . وبفضل تأييد البرجية اختير الناصر محمد بن قلاون سلطانا لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) رغم صغر سنه . حقيقة ان تعلق الشعب ببيت قلاون كان له أثره في ذلك الاختيار ، ولكن يجب أن نذكر أن الشعب المصرى في ذلك العصر كان أعزلا ، لا حول له ولا قوة ، ولا يمتلك الأداة الحربية التي تمكنه من تنفيذ ارادته . وهكذا وقف البرجية بالمرصاد لكافة المحاولات التي استهدفت عزل السلطان الناصر محمد . وفي كل مرة عاد الناصر محمد الى الحكم بعد عزله ، نجد للبرجية أمبعا قويا في عودته (٦) .

ازدياد نفوذ البرجية :

والواقع ان تطور الأحداث الداخلية في مصر عقب وفاة السلطان المنصور قلاون ساعد على ظهور البرجية على مسرح التاريخ ، وازدياد نفوذهم في توجيه الأحداث . وكان السلطان قلاون قد حاول في أول الأمر أن يفرض نطقا من العزلة حول البرجية ، فحال دون اتصالهم بغيرهم من طوائف المماليك ، حتى لا يتأثروا بروحهم التي تطرق اليها الفساد والتسيب ، كما حرص على عدم السماح لهم بمنادرة أبراجهم بالقلعة والنزول الى القاهرة والاختلاط بالأهالى ، بحيث أن أحدهم « لا يتزوج الا ان زوجه هو بعض جواريه » (٧) .

ولكن هذه الاوضاع كانت لا يمكن أن تدوم . واذا كان قلاون قد نجح في أن يفرض تلك القيود على المماليك البرجية في أول الأمر عندما

(٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام ، ص ١١١

وما بعدها .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٢٨ .

كانت أعدادهم محدودة نسبيا ، فان خلفاء قلاون ، لم يستطيعوا فرضها عليهم عندما ازدادت أعدادهم ، حتى بلغوا في أوائل عصر الناصر محمد خمسة آلاف مملوك . وكان السلطان الأشرف خليل قد سمح للبرجية بالنزول من القعة أثناء النهار ، بشرط العودة اليها قبل المغرب للمبيت فيها . وبذلك أخذت خبرة البرجية بالحياة العامة تزداد ، فوقفوا على كثير من الأوضاع الداخلية للبلاد في ذلك الوقت (٨) .

ولا شك في أن ازدياد مكانة المماليك البرجية — ومعظمهم من الجراكسة — أدى الى اثاره نوع من الحساسية بينهم وبين طوائف المماليك القدامى الذين كان معظمهم من الأتراك . وقد عرف عن المنصور قلاون أنه عنى بالبرجية ، فارتقى بعضهم الى وظائف السلاحدارية وغيرها من الوظائف الكبرى في الدولة ، وحرص على أن يلبسهم زيا جديدا حسنا ، حتى « لبسوا أحسن الملابس » (٩) . وأجزل لهم العطاء فيما كانوا يتقاضونه من جوامك ورواتب . وعنى عناية خاصة بتعليمهم أصول الدين ، فضلا عن تدريبهم على القتال واستخدام الرماح ورمي النشاب .

وهكذا تلبت المماليك الأتراك حولهم ، فوجدوا في البرجية منافسا جديدا خطيرا . فهم يحظون بعطف السلطان ورعايته ، وفي الوقت نفسه فانهم ينتمون الى عناصر غير عنصرهم وأصول غير أصلهم ، اذ كان معظم الطائفة الجديدة من عنصر الجركس . وكان أن ظهر التعصب الطائفي بين المماليك الأتراك والمماليك الجراكسة .

هذا الى أن دفاع البرجية عن أبناء المنصور قلاون وأحفاده ، وغضبهم لمقتل الأشرف خليل بن قلاون ثم لعزل أخيه الناصر محمد ،

(٨) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٢ (تحقيق

محمد مصطفى) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٣٠ .

جعلهم يقفون في جانب وبقية المماليك القدامى في جانب آخر . ولعل كثرة المنازعات التي اتصف بها تاريخ المماليك في تلك الحقبة ، جعلت الأمر يتطور الى عداء بين أنصار بيت قلاون وخصومه ، أو بعبارة أخرى الى عداء بين البرجية وبقية طوائف الأتراك .

وقد جاء ذلك الصراع مصحوبا بازدياد نفوذ البرجية الذين غدوا يمثلون قوة المستقبل . من ذلك ما يذكره المقرئ في حوادث سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) — أى في سلطنة الناصر محمد الثانية — اذ يقول « وقويت شوكة البرجية بديار مصر ، وصارت لهم الحصايات الكبيرة وتردد الناس اليهم في الاثغال »^(١٠) . ثم يعود المؤرخ نفسه في حوادث سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) فيؤكد أن البرجية صار لهم رأى مسموح في اختيار السلاطين ، فعندما اختار الأمراء الأمير سلار في تلك السنة ليتولى منصب السلطنة « قلق البرجية ولم تبق الا اقامتهم الفتنة » . وعندما تنازل سلار عن المنصب ، ورشح له زميله بييرس الجاشنكير : « تسارع البرجية ، وقالوا بأجمعهم : صدق الأمير . وأخذوا بيد بييرس وأقاموه كرما ، فصاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه » .

وهنا نلاحظ أن بييرس الجاشنكير الذي ولى السلطنة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) « أصله من مماليك الملك المنصور (قلاون) البرجية ، وكان جركسى الجنس ، ولم نعلم أحدا ملك مصر من الجراكسة قبله ، ان صح أنه كان جركسيا » . وهكذا أخذ العنصر الجركسى يطفو على

(١٠) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٢٢ . هذا وقد تضاربت الاقوال حول اصل بييرس الجاشنكير ، وهل هو تركى أو جركسى ، والرأى الاخير هو الأرجح . يقول ابن تغرى بردى عنه « وقيل انه كان تركيا والاقوى عندي انه كان جركسيا » (ج ٨ ، ص ٢٧٦) . غير أن نفس المؤرخ يقول في ص ٢٢١ في الجزء الحادى عشر من نفس الكتاب ما نصه « ان كان بييرس تركى الجنس ، فبرقوق هذا هو الاول من ملوك الجراكسة ، وهو الاصح وبه نقول » .

السطح ليضل الى منصب السلطنة • غير أنه يبدو أن قصر عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير — اذ لم يظل في الحكم سوى بضعة أشهر كما سبق أن أوضحنا — جعلته لا يستطيع أن يمكن لعنصر الجركس • وبعودة السلطان الناصر محمد إلى الحكم ، عادت السلطنة الى بيت قلاون ، حتى برز في عصر أخفاد الناصر محمد بن قلاون إسم أخيد-الأمراء الجراكسة وهو الأمير برقوق • والمعروف عن برقوق هذا أنه جركسي الاصل ، جلبه الخواجا عثمان — أحد كبار تجار المماليك — ، واشتراه الأمير الكبير يلبيغا الخاصكى ثم اعتقه ، فصار من جملة اليلبغاوية • وقد ظل يرتقى بفضل طموحه وذكائه الى أن وصل الى مقدمة الألف ، ثم ولى منصب أتاك العسكر سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) ، وبذلك صار الأمير برقوق على جانب كبير من القوة في عهد السلطان علاء الدين على (٧٧٨ — ٧٨٣ هـ / ١٣٧٦ — ١٣٨١ م) الذي لم يتجاوز سنه عندئذ ست سنوات (١١) •

قيام دولة المماليك الجراكسة :

ظل السلطان علاء الدين على — حفيد الناصر محمد بن قلاون — في الحكم حتى وفاته سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) ، وهو في الثانية عشر من عمره • وكان باستطاعة برقوق أن يلي عرش السلطنة عقب وفاة السلطان المنصور علاء الدين على مباشرة ، ولكنه أدرك أن الأمور لم تكن قد نضجت بعد ، وأن معارضييه من كبار الأمراء سيقفون عقبة في طريقه ، بعد أن أعلنوها جهرة وقالوا « لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك كتبنا » •

لذلك تظاهر برقوق بالزهد في السلطنة ، فجمع الخليفة والقضاة وكبار الأمراء بقلعة الجبل ، وأعلن أمامهم جميعا أن المصلحة تتطلب

(١١) المقريزي : كتاب المواعظ ، ج ٣ ، ص ٢٤١ (بولاق) ، الصيرفي : نزفة النفوس والأبدان ، ج ١ ، ص ٣٣ وما بعدها (تحقيق حسن حبشي) ،

إبقاء منصب السلطنة في بيت قلاوون . وكان أن استدعى أمير حاجي — حفيد الناصر محمد — وسنه وقتئذ احدى عشرة سنة ، وأعلن سلطانا سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م /) وتلقب بالصالح^(١٣) . أما الأمير برقوق فقد حسنت سيرته « وشمل الناس منه أنواع الخيرات والفضائل » ، كما أظهر تمسكا شديدا بأحكام الشريعة^(١٣) .

ولم يكن متوقعا أن يتمكن السلطان الصبى الجديد من الوقوف في وجه الأمير برقوق ، الذي « أخذ في التكلم في الدولة علي عادته من غير معاند » . هذا الى أن برقوق أخذ يمكن لنفسه ، فاختص زملاءه وأنصاره من المماليك الألبغاوية بالوظائف الرئيسية في الدولة ، في الوقت الذي يعمل على اكتساب محبة عامة الناس فخفف عنهم الضرائب ، وسك عملة جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التي كان الأمير جركس قد سكتها من قبل^(١٤) . ولم يسلم برقوق في تلك المرحلة من بعض المؤامرات التي حيكت ضده ، ولكنه اكتشف الخطر قبل وقوعه ، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشاركين فيها بالسجن أو النفي^(١٥) . وهكذا غدا برقوق صاحب الكلمة العليا في الحكم « ولاحت له لوائح النصر ، وانحط قدر الاترك لما ظهر أمر لجراكسة ، فعند ذلك أخذ الأتابكي برقوق أسباب أمر سلطنته »^(١٦) .

وعندما وجد برقوق أن الأمور باتت مهيأة لإعلان نفسه سلطانا ، انتحل نفس العذر الذي سبق أن تحجج به الطامعون في السلطنة

(١٢) ابن حجر : انباء الغمر بأبناء العمر ، ج ٢ ، ص ٤٥ (تحقيق محمد عبد المنعم خان — حيدر ايلد) .

(١٣) الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(١٤) العيني : عقد اجمان ، ج ٢٤ ، ق ٢ ، ورقة ٢٦ (مخطوط) .

(١٥) المتريزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٧٣ (تحقيق

المؤلف) .

(١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠٩ ، سنة

٧٨٤ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

من أمراء المماليك وهو صغر سن السلطان القائم ، وحاجة الدولة الى رجل رشيد يقضى على عوامل الاضطراب في الداخل والاضطراب في الخارج . لذلك عقد اجتماعا بالقلعة سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) حضره الخليفة والقضاة والأمراء ، ونهض كاتب السر القاضي بدر الدين ليعن « أن الأمور مضطربة لصغر سن السلطان ، وقلة حرمة ، وأن الوقت محتاج الي ملك عاقل ... » (١٧) . وكان أن أجمع الحضور على أن السلطان القائم وهو الصالح حاجي « لا يفهم الخطاب ولا يرد الجواب » (١٨) ، فتقرر خلعه بعد أن ظل في منصب السلطنة نحو عام ونصف ، وأعلن برقوق سلطانا وتلقب بلقب الظاهر ، « وبذلك انقضت دولة الاتراك من مصر ، وزالت دولة بني قلاون » (١٩) .

وهنا نلاحظ أن قلاون الذي ولي السلطنة سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) كان جركسيا ، ولكنه لم يكن من طائفة البرجية ، ولذا فاننا نعتبر عهده بداية لتغلب الجانب العنصرى ، بمعنى سيادة العنصر الجركسى وذبول العنصر التركى . ومن ناحية أخرى فان بداية عهده تجعلنا نغلب صفة العنصر على صفة المكان ، فنفضل وصفها بدولة المماليك الجراكسة على وصفها بالدولة البرجية .

خصائص عصر السلاطين الجراكسة :

تختلف دولة المماليك الثانية - أو الجراكسة - عن الأولى - أو البحرية - في عدة جوانب ، أولها أن سلاطين الدولة الثانية كانوا جميعا من أصل جركسى . ما عدا اثنين يرجعان الى أصل رومى ، هما خشقدم وتمريفا . هذا الى أن مبدأ الحكم الوراثى الذى حاول بعض سلاطين المماليك الاولى تطبيقه في عناد واصرار ، والذي طبق فعلا في

(١٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ سنة ٧٨٤ هـ (تحقيق المؤلف) .

(١٨) الصيرفى : نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(١٩) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٧٥ (تحقيق

المؤلف) .

عصر بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له نفس الأثر في عصر دولة
المماليك الثانية .

والواقع ان حکام دولة المماليك الجراكسة كانوا زعماء أو أمراء
كبارا أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح الواحد منهم في الوصول الى
الحكم والبقاء فيه يتوقف على مدى نجاحه في توجيه كبار الأمراء
و ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فاذا استطاع السلطان
الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة ، فان ابنه كان يخلفه عادة ، ولكن
لبضعة أشهر فقط ، حتى ينجلي الوقف بين كبار الأمراء ، ويستطيع
أحدهم أن ينفرد بالنعيم^(٢٠) .

وقد عمرت دولة المماليك الجراكسة أكثر من مائة وأربعة وثلاثين
سنة (٧٨٤ - ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) ، تعاقب على عرش
السلطنة طوال ثلاثة وعشرون سلطانا . ومن هؤلاء السلاطين تسعة
حكّموا مائة وثلاث سنوات . في حين حكم الاربعة عشر سلطانا الباقون
تسع سنوات فقط .

أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك
الجراكسة ، فهم : برقوق ، وفرج ، وشيخ ، وبرزباى ، وجقمق ،
واينال ، وخشقدم ، وقايتباى ، وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية
هؤلاء السلاطين الى مهارتهم الحربية ، بقدر ما ترجع الى مقدرتهم
في تحقيق أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم ، وطوائف المماليك
بعضها ببعض . وكثير من أولئك السلاطين — مثل برقوق وشيخ
وجقمق وقايتباى — عرفوا بحبهم للادب ومجالس العلم ، كما عرف
بعضهم بالتقوى والورع ، وبالرغبة في اقامة المؤسسات الخيرية ،
من مدارس ومساجد وسبل وبیمارستانات وغيرها . وفي بعض
الاحيان كانت هذه المؤسسات ستارا حاول به بعض هؤلاء السلاطين

التكفير عن ذنوبهم ، أو تغطية ما قاموا به من أعمال ضد خصومهم^(٢١) .
ولا شك في أن البلاد قاست كثيرا في عهد المماليك الجراكسة
من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك ، وما كان ينجم عن
تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع ، مما أوجد جوا من
انقلاب وعدم الاستقرار ، وبخاصة في القاهرة عاصمة الدولة ومركزا
السلطنة .

وزاد من قسوة البلاء ، أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر
عن كبح جماح مماليتهم ، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ
بمراكزهم ، سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل
السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالاشرفية ، وضرب الناصرية
بالمؤيدية . وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه ، فيعيشون في الارض
فسلدا .

على أننا نلاحظ — على الرغم من كل ذلك — أن سلاطين الدولة
الجركسية عملوا دائما على حصر تلك المنازعات في نطاق دائرة داخلية
بحثة ، بحيث لم يمكثوا قوة خارجية من التدخل في شئون البلاد ، أو
الانتقال من سيادتها . وهكذا استطاعت دولة سلاطين المماليك في
ذلك العصر الصمود في وجه تيمور لنگ ، في وقت اهتزت كافة الدول
في غرب القارة الآسيوية أمام هجماته^(٢٢) .

برقوق وفرج وشيخ :

لم يمض على قيام الظاهر برقوق في السلطنة عام واحد ، حتى
حيكت مؤامرة لعزله واحلال الخليفة العباسي بدله . ولكن برقوق
اكتشف المؤامرة وأحبطها سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) ، فعزل الخليفة

(٢١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ،

ص ١٤١ ، ص ١٥٩ .

Wiet : L'Egypte Arabe, p.p. 511 — 513.

(٢٢)

المتوكل ، وأحل محله خليفة آخر لقب بالوائق بالله^(٢٣) . ويبدو أن هذه المؤامرة جعلت الظاهر برقوق يشتد في عقوبة من شك في اخلاصهم له — وبخاصة من طوائف المماليك الاتراك — ، فطرد عددا كبيرا منهم من وظائفهم ، ونفى بعضهم الى الشام^(٢٤) .

على أن هذه الاجراءات التي قام بها الظاهر برقوق لم تكف لحمايته من المؤامرات المتصلة لتى دبرها خصومه ضده ، حتى انتهى الأمر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) بقيام ثورة في شمال الشام ترعها منطاش نائب ملطية ويليغا الناصري نائب حلب . وقد زحف الثوار — تؤييدهم جموع غفيرة من التركمان والتتار — نحو دمشق ، فاستولوا عليها ، ثم استأنفوا زحفهم في اتجاه القاهرة . ولم يلبث أن ساء موقف برقوق ، فهرب من القلعة ، حتى قبض عليه . فنفى الى الكرك^(٢٥) .

وعندما دخل الثوار القاهرة ، أعادوا انى منصب السلطنة المنصور أمير حاجى على — ابن الاشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون — (٧٩١ — ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ — ١٣٩٠ م)^(٢٦) . لكن النزاع لم يلبث أن اشتد بين الأميرين الثائرين : منطاش ويليغا ، مما أعطى برقوق فرصة لاسترداد مكانته . ذلك أنه تمكن من الفرار من حصن الكرك ، وجمع جيشا بالشام مكنه من انزال الهزيمة بخصومه عند خرخذ سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) . ثم دخل برقوق القاهرة ظافرا ، فرحب به عامة

(٢٣) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ (تحقيق المؤلف) ، ابن حجر : انباء الغر ، ج ٢ ، ص ١٢٨ وما بعدها (تحقيق محمد عبد المنعم خان — حيدر آباد) .

(٢٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ورقة ٢٠٩ (مخطوط) .

(٢٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٧٥ — ٢٨١ .

(٢٦) ابن صمري : الدررة المضية في الدولة الظاهرية ، ص ١٩ .

(تحقيق ولیم برينر ، كاليفورنيا ١٩٦٣) .

الاهالى بعدما لاقوه من شدائد نتيجة لتحكم منطاش وتعسفه (٢٧) .

وكان مركز برقوق قويا في تلك المرة ، فقضى العامين التاليين في اخضاع منطاش بالشام . ولم يكد يفرغ من ذلك ، حتى واجه خطرا جديدا يتمثل في التتار بزعامة تيمورلنك . ذلك أن تيمورلنك استولى على بغداد سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) ، « وصادر أهلها ثلاث مرات حتى أفقرهم كلهم . . بعد أن تنوع في عقوبتهم ، وسقاهم الملح والماء ، وشواهم على النار » (٢٨) . ثم استولى تيمورلنك على بعض البلاد التابعة لسلطنة المماليك — مثل ماردین — مما جعل الظاهر برقوق يشعر بفداحة الخطر ، فعقد حلفا سريعا مع بعض القوى المجاورة التي أحست هي الأخرى بخطر تيمورلنك ، مثل أمير سيواس ، وتتار القفجاق ، وسلطنة العثمانيين (٢٩) .

وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) أرسل تيمورلنك الى برقوق رسالة مخيفة ، من ذلك النوع الذي بعث به هولكو الى قطز سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) يطلب منه الاستسلام فورا ، « فالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا ، فانا قد خربنا البلاد ، وأهلكنا العباد ، وأظهرنا في الارض فسادا . . . » (٣٠) . ولكن برقوق أظهر ثباتا . ورد على تيمورلنك بنفس أسلوبه ، بل لقد طرد رسول تيمورلنك من القاهرة . وفي الحال أجاب تيمورلنك بأن « فتح الرها وأخذ أموالها ،

(٢٧) ابن حجر : الدرر الكلمنة في اعيان المئة الثامنة — ترجمة منطاش الاشرقى (ج ٤ ص ٣٦٥) ، المتريزى : كتاب السلوك ، ج ٢ حوادث سنة ٧٩٢ هـ (من ٧٠٢ وما بعدها) — تحقيق المؤلف .

(٢٨) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٧٩٠ .

(٢٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٧٤ ، الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ١ ص ٣٦٥ وما بعدها (تحقيق حسن حبشي) ،

Wiet : L'Egypte Arabe, 518 — 519.

(٣٠) ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، ص ٩٧

(تحقيق على محمد عمر) .

وسبى حريمها ، وأشعل جمره الخامد ، حتى ملك رأس العيين
وآمد «٠٠٠» (٣١) .

وكان أن خرج برقوق من مصر الى الشام ، على رأس حملة
لإعادة أحمد بن أويس — صاحب بغداد الذي كان قد لجأ الى القاهرة
— الى عاصمته بغداد ، ومহারبة تيمور لنگ . وبينما السلطان
برقوق — ومعه السلطان أحمد بن أويس — في دمشق ، جاءت الأخبار
بأن تيمور لنگ خرج من بغداد الى بلاد الروم ، فأرسل أصحاب أحمد
ابن أويس بالعراق يطلبون منه الحضور لاسترداد بغداد في غيبة
تيمور لنگ ، وقالوا له « اجتمع على الفرات من جماعتك خلق كثير
ينتظرونك » . وعندئذ سمح السلطان الظاهر برقوق لأحمد بن أويس
بالمسير الى بلاده ، في حين عاد برقوق الى القاهرة في أوائل سنة
٧٩٧ هـ (١٣٩٤ — ١٣٩٥ م) (٣٢) .

ولم يلبث أن توفي برقوق بالقاهرة سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) .
دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته في محاربة التتار . وقد وصف
الصيرفي السلطان الظاهر برقوق بأنه كان « رجلا شجاعا بأسلا
فارسا ، ذا أدب وحشمة ووقار ، ومعرفة ورأى وتدبير وخبرة .
وكان على مكانة عظيمة من الرأى والرزانة ، والتعبد والتحمل . وكان
يلوح بين عينيه آثار الشجاعة والفروسية » (٣٣) .

وقد خلف برقوق في الحكم أكبر أبنائه الثلاثة — وهو الناصر
فرج — الذي كان في الثالثة عشر من عمره . وكان أن أسرع السلطان
الصغير الى الشام سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) على رأس جيش كبير ،

(٣١) ابن مصرى : الدرر المضية في الدولة الظاهرية ، ص ١٤٨

(تحقيق وليم بريئر) .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، ١٦٢ .

(٣٣) الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٤٩٦ (تحقيق حسن

حبشى) .

عندما سمع بزحف تيمور لنگ عليها ، وأنه اجتاح حلب ، وأخذ يهدد دمشق . ولكن الناصر فرج لم يلبث أن أدرك حرج موقفه في الشام ، وخشى على حياته ، فعاد إلى القاهرة ، تاركا جيشه يلقي أسوأ مصير على يد تيمورلنگ قرب حلب ، « واستحرق القتل والأسر في أهل حلب ، من التتار ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال ، وقتل خلق كثير من الأبطال تحت حوافر الخيل وعلى الطرقات ، وأحرقوا المدينة » (٢٤) . وهكذا اضطرت دمشق إلى الاستسلام بشروط معينة ، أهمها أن تيمور لنگ أمنهم « على أنفسهم وأهاليهم » . ولكن التتار لم يحترموا شروط الأمان الذي منحوه لأهل دمشق ، فنهبوا المدينة ودمروها ، وأتسلوا فيها النيران ، كما دمروا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام (٢٥) .

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التي أحرزها تيمورلنگ في بلاد الروم (آسيا الصغرى) ، وبأخبار الهزيمة التي حلت بالسلطان العثماني بايزيد في موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، رضخ للشروط التي تقدم بها تيمورلنگ ، فأطلق سراح من لديه من أسرى التتار ، بل لقد قبل أن يسك العملة باسم تيمورلنگ ، وان كنا لم نعثر فعلا على أية قطعة من النقود المصرية تحمل اسم تيمورلنگ . ولم يلبث أن مات تيمورلنگ سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) دون أن يحقق حلمه في احتلال مصر (٢٦) .

أما السلطان الناصر فرج فإنه خسر مكانته في نفوس المعاصرين ، نتيجة لرضوخه لطلبات التتار . وسرعان ما نشب نزاع بين أمراء

(٢٤) ابن حجر : انباء الغر ، ج ٤ ، ص ١٩٣ وما بعدها (حيدر آباد) .

(٢٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٨ ، سنة ٨٠٣ هـ .

(٢٦) ابن عريشاه : عجائب المقدور ، ص ٢٥٣ (تحقيق على

محمد عمر) ،

الماليك في مصر ، فعمت الفوضى مدينة القاهرة ، واضطره السلطان فرج الى الاختفاء عن مسرح الأحداث قرابة شهرين ، فحل محله في السلطنة أخوه المنصور عبد العزيز سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبك من إعادة الناصر فرج الى السلطنة في نفس العام .

وقد قضى الناصر فرج بقية عهده في اقرار الأوضاع ببلاد الشام بعد أن غدت هي الاخرى مسرحا للمنافسات بين كبار أمراء الماليك . ولكن الناصر فرج لم يستطع مقاومة الأميرين شيخ الحمودى وتوروز . ذلك أن الأمير شيخ الحمودى نائب حلب ، والأمير نوروز الحافظى نائب طرابلس ، أعلنوا مخالفة السلطان ، ونزلا على جمص . وعندما خرج السلطان لمحاربتهمما حلت به الهزيمة عند اللجون ، فانسحب الي دمشق ، حيث اضطر الى الاستسلام لاعدائه ، سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) ، بشرط تأمينه على حياته^(٢٧) . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن الخليفة والعلماء أفتوا بقتل الناصر فرج لسوء خلقه وادمانه على شرب الخمر ، وتنكيله بمماليك أبيه ، حتى لقد وصفه بعض المؤرخين المعاصرين ، بأنه كان « سفاكا ، مسرفا على نفسه ، منهمكا على اللذات » . وكان أن اغتيل بدمشق في نفس العام^(٢٨) .

وكانت المشكلة التي ظهرت على المسرح السياسى بتقد مقتل الناصر فرج ، هي أيهما يلى العرش : الأمير شيخ أم الأمير فوروز ؟ والى أن يتم الفصل في هذه المشكلة عهد بالسلطنة الى الخليفة المستعين العباسى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) . ومن الواضح أن سلطنة المستعين - التي استمرت خمسة أشهر تقريبا - كانت اسمية بحتة ، حتى فاز الامير شيخ في حلبة

(٢٧) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٠٨ وما بعدها ، سنة ٨١٥ هـ (تحقيق المؤلف) .
(٢٨) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٨٢١ — ٨٢٢ (تحقيق محمد مصطفى) .

التنافس مع نوروز ، واعتلى كرسى السلطنة بلقب المؤيد (٣٦) . ولم يرض نوروز بذلك الوضع ، فأعلن الثورة بالشام ، ورفض الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ ، وامتنع عن ضرب الكفة باسمه ، مما دفع السلطان المؤيد شيخ الى الخروج في العام التالى لاعتلائه العرش الى الشام حيث تخلص من نوروز بالقتل (٤٠) .

أما أهم الأحداث الخارجية في عهد المؤيد شيخ ، فكانت قيامه بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام ، وذلك لارغام الدويلات التروكمانية على الحدود — وأهمها قرمان وذو الغادر ورمضان — على العودة الى سابق تبعيتها لدولة المماليك (٤١) . ففي سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) خرج السلطان المؤيد شيخ الى طرسوس حيث قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة . بل ان الأمير قرمان رضى أن يسك عنقه باسم السلطان المؤيد شيخ . ولكن ما كد السلطان المؤيد يعود الى مصر حتى نقض التركمان شروط نتي تعهدوا بها . ومن ثم أرسل المؤيد ابنه ابراهيم صدهم سنة ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) . فاستولى على قيصرية وقونية . وسك العملة في بلاد تركمان باسم أبيه السلطان المؤيد شيخ . ولم يعد ابراهيم الى مصر الا بعد أن عين حاكما ماليا على تلك الجهات . كما ضم الى دولة المماليك بعض المدن لهامة مثل أذنه وطرسوس (٤٢) . وقد استقبل ابراهيم في مصر استقبالا حماسيا ، ولكنه لم يلبث أن توفي في العام التالى . وقيل ان أباه حقد عليه لما ناله من تقدير ، قدس له السهم . يذكر ابن حجر ان السلطان المؤيد شيخ « أغرى بولده ابراهيم »

(٣٦) العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٢٥٩ (تحقيق مهيم شلتوت ، مراجعة مجيد مصطفى زيادة) .

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

(٤١) ابن حجر : انباء الفهر ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ وما بعدها (طبعة حيدر آباد) .

(٤٢) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٣٣٤ — ٢٥٤ — ٢٥٦ ،

وأنه كان يتمنى موته ، ويمد الامراء بمواعيد اذا تم ذلك .. فأذن لبعض خوصه أن يعطيه سببا لقتله .. (٤٣) .

وقد تولى السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) فخلفه ابنه أحمد ، تحت وصاية الامير ططر . ولم تَمْضْ أشهر حتى ولى ططر السلطنة لفترة قصيرة ، فخلفه ابنه محمد بن الظاهر ططر فلبث في الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الامير برسباي . وفي سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) ، « رأى أهل الدولة وأصحاب الحل والمعتمد أن تكون السلطنة لشخص كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ، وينظر في أحوال الناس ، ويدير الأمر ، وينصر المظلوم . ولم يروا كفوا لذلك إلا نظام الملك برسباي لكونه متصفا بصفات الكمال ، من الدين والفقه والمهابة ، وطوارة الذيل واللسان ، وقوة القلب والجنان ، والشجاعة والفروسية .. » . وهكذا انتزع برسباي السلطنة لنفسه ، وتلقب بالسلطان الأشرف (٤٤) .

برسباي وفتح جزيرة قبرس :

حكم برسباي مدة تزيد عن ستة عشر عاما ، وهي مدة طويلة لم يفقه فيها من سلاطين دولة المماليك الجراكسة سوى الأشرف قايتباي . وعلى الرغم مما قاساه الناس في عهد برسباي من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع الأسعار بسبب سياسته الاحتكارية الجائرة ، إلا أن ذلك العهد اتصف بالاستقرار وقلة الاضطرابات ، مما مكن برسباي من القيام بعمل حربي ضخم ، هو غزو جزيرة قبرس .

وقد سبق أن أشرنا الى ما قام به ملوك قبرس من آل لوزجنان من نشاط صليبي ضد سلطنة المماليك في مصر والشام ، وخاصة يعد

(٤٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٨٠ (حوادث ٨٢٣ هـ) — طبعة حيدر آباد .

(٤٤) الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج ٢ ، ص ٥ (تحقيق حسن حبشي) .

أن استولى الماليك على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وطردها آخر
البقايا الصليبية من بلاد الشام . كذلك فكرنا أن هجمات ملوك قبرس
على شواطئ دولة الماليك بلغت ذروتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)
عندما هاجم بطرس لوزجنان — ملك قبرس — ثغر الاسكندرية وخربه
تجريبا لم يخف به إلا المسلمون .

ولم يستطع الماليك عندئذ الثأر من جزيرة قبرس ، نظرا للظروف
التي أحاطت بدولة سلاطين الماليك في عصر أحفاد الناصر محمد بن
قلاوون ، ثم للمشاكل التي تعرض لها السلاطين الاوائل من دولة الماليك
الجراسية . ويبدو أن ملوك قبرس ظنوا أن سكوت سلاطين الماليك
عنهم معناه عجزهم عن مدافعتهم ، فاستمروا في هجماتهم على شواطئ
دولة الماليك مرة بعد أخرى . من ذلك أن مركبا للفرنج أغار على
طرابلس الشام سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) ، ثم أغاروا على الاسكندرية
سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ، ثم على طرابلس سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) .
وكان بالميناء بعض مراكب لتجار الفرنج ، فتكاتفوا جميعا على مراكب
المسلمين المشحونة بالبضائع « وأخذوا منها مركبين فيهما مال كبير ،
وأسروا خمسة وثمانين مسلما »^(٤٥) . وبعد ذلك بمدة قصيرة — سنة
٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) دهمت طرابلس الشام حملة من ثلاثين سفينة ،
فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا ، ثم اتجه الصليبيون الى بيروت ،
ومن هنا الى صيدا « بعدما حرقوا مواضع ، وأخذوا مركبا قدم من دمياط
يبضائع لها قيمة كبيرة » . وكان الصليبيون ينزلون الى البر لباشرة
عدوانهم ثم يعودون الى سفنهم . وأخيرا عادوا « الى جهة الماغوصة » ،
والماغوصة هي مدينة فايماجوسيتا على الشاطئ الشرقي لجزيرة
قبرس^(٤٦) . وأكثر من هذا ، فإن ملوك قبرس حرصوا على طعن دولة

(٤٥) القرينى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٢ ، ص ١٠٧٩ .

سنة ٨٠٤ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٤٦) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٤٩ ، ١٧٥ ، ١١١٤ .

المماليك في أعظم موارد ثروتها، وغناها، فاعتدوا على السفن والمتاجر المماليكية في عرض البحر، كما منعوا السفن الأوربية من الوصول إلى الشواطئ المصرية لابتياح التوابل^(٤٧) .

وإذا صبر سلاطين المماليك في مصر على ذلك العدوان السافر من جانب قبرس وملوكها، فإن هذا الصبر كان لا يمكن أن يطول . لذلك فكر السلطان برسباي في القيام بعمل حاسم ضد قبرس، لا سيما بعد أن تكرر العدوان في أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الاسكندرية والتجار المسلمين، « فشق ذلك على الملك الأشرف إلى الغاية »^(٤٨) . وكان أن أرسل برسباي ثلاث حملات ضد جزيرة قبرس، تعتبر من أعظم الاعمال الحربية التي تمت في عصر دولة المماليك الجراكسة، حتى انتهى الأمر بفتح الجزيرة واخضاعها لسيادة سلطنة المماليك . وكانت الحملة الأولى في سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م)، وهي حملة صغيرة لا تعدو أن تكون مجرد حملة استطلاعية . ومع ذلك، فقد نجح رجالها في مهاجمة ثغر ليماسول بجزيرة قبرس، واشعال النار في بعض أحيائها، ثم العودة سالمين إلى مصر^(٤٩) .

ولم تكد السفن المصرية تعود من تلك الغزوة سالمة، حتى تشجع برسباي، فأمر فوراً بالاستعداد لحملة جديدة، غادرت مصر في صيف سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٥ م) قاصدة ميناء قرباص — على الشاطئ الشمالي الشرقي لجزيرة قبرس — ومنه تحركت جنوباً قاصدة ميناء فاماجوستا . وقد مكث المسلمون أربعة أيام في إقليم فاماجوستا، شنوا فيها الغارات على الضياع القريبة، وأوسعوها نهبا وأسرا وتحريراً . وبعد أن أنزل المسلمون الهزيمة بالقوات القبرسية في منطقة الملاحه، توجهوا إلى

(٤٧) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٨٤ — ٨٥ .

(٤٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(تحقيق جمال محرز وفهيم شلتوت) .

(٤٩) العيني : عقد الجبلان ، ج ٢٥ ، ق ٣ ، ورقة ٥٧٢ (مخطوط) .

ليماسول ، حيث استطاعوا الاستيلاء على حصنها الحصين بعد جهد شاق ، ثم قفلوا راجعين الى مصر ، بعد أن سمعوا بالاستعدادات لنى يجريها جانوس ملك الجزيرة^(٥٠) .

على أن برسباى لم يقنع بالنتائج التى حققتها الحملتان السابقتان ، لأنه لم يستهدف مجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وعدة أكوام من الغنائم ، لذلك بادر السلطان عقب عودة الحملة الثانية بأعداد حملة كبرى تحقق له اخضاع قبرس وملوكها . ويبدو أن أخبار هذه الاستعدادات تسربت الى خارج البلاد ، حتى أن امبراطور القسطنطينية أوفد رسولا الى لسلطان برسباى يحمل له هدية . « وشفع في أهل قبرس أن لا يغزوا »^(٥١) . ولكن ما كادت تتم كافة الترتيبات لتلك الحملة ، حتى خرجت من مصر سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) ، قاصدة قبرس ، حتى وصلت ميناء ليماسول ، فبدأ المسلمون بمهاجمته والاستيلاء عليه^(٥٢) . وبعد أن قضى المسلمون ستة أيام في اقليم ليماسول ، قرروا الزحف على داخلية الجزيرة للاستيلاء على عاصمتها وضرب ملكها .

وفي تلك الأثناء ، كان الملك جانوس — ملك قبرس — قد جمع جيوشه ، واستعد لمنازلة المسلمين ، فدارت الموقعة الفاصلة بين الطرفين عند خيروكيتا — الى الشمال الشرقى من ليماسول ، وفيها حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، ووقع جانوس نفسه أسيرا في قبضة المالك . أما المسلمون ، فقد زحفوا بعد ذلك على نيقوسيا

(٥٠) ابن حجر : انباء الغر ، ج ٨ ، ص ٧٠ وما بعدها (حيدر اباد) .

(٥١) المتريزى : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٧١٨ — سنة ٨٢٩ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٥٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ١٠٧ .

عاصمة قبرس ، فاقتحموها وصلوا الجمعة في كنيستها ، ثم غادروها بعد أن أشعلوا النار في أرجاء المدينة^(٥٣) .

وأخيرا ، عادت الحملة الى القاهرة ، ومع المسلمين مئبات الأسرى ، من جعلتهم جانوس ملك قبرس نفسه ، وكميات ضخمة من الغنائم . وقد أفاضت المصادر المعاصرة في وصف الاستقبال الحافل الذي استقبل به الغزاة في القاهرة . وظل جانوس ملك قبرس أسيرا في مصر حتى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٧ م) عندما أفرج عنه السلطان برسباي مقابل فدية كبيرة ، وبشرط الاعتراف بسيادة سلطنة المماليك على مملكته . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس تعتبر « من جملة بلاد السلطان » ، واستمرت كذلك حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)^(٥٤) .

شاه رخ وكسوة الكعبة :

مات السلطان برسباي سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) غير مأسوف عليه من شعبه بسبب تعسفه في سياسته الاقتصادية ، وتطرفه في سياسة الاحتكار ، مما أنزل ضررا فادحا بالعباد . ولم يستطع العزيز يوسف بن برسباي — الذي كان في الرابعة عشر من عمره — أن يحتفظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء عندئذ ، وهو الأمير جقمق الذي لم يلبث أن ولى السلطنة بعد قليل .

وكان حكم الظاهر جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) معتدلا نسبيا ، اذا قيس بحكم برسباي . كذلك عرف عن جقمق تدينه وورعه ، فحرم المعاصي وشرب الخمر ، « وفرح كل أحد

(٥٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الملك ، ص ١٤٢ ،
العيني : عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ق ٣ ورقة ٥٨٣ ، القرظي : كتاب
السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٧١٨ — ٧٢٢ سنة ٨٢٩ هـ (تحقيق المؤلف) .
(٥٤) سميذ مائسور : قبرس والحروب الصليبية ، ص

بسلطنته ، فإنه كان ديناً خيراً يحب فعل الخير ، -كزيم اليد ، سخى النفس (٥٥) .

غير أن السلطان حَقَمَق لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه للثورات التعليلية التي تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين والأحقين ، فنار صدّه الأمير قرقمأس الشنغباني أتاك العسكر في مصر ، كما نار صدّه اينال الحكمي نائب الشام في دمشق . ولكن جقمق تمكن من القضاء على هاتين الثورتين (٥٦) .

والواقع ان أهمية عهد جقمق ترجع الى ما امتاز به ذلك العهد من نشاط خارجي ، كانت أهم معالمه تحسن العلاقات بين التتار ودولة سلاطين المماليك من ناحية ، وقيام جقمق بغزو جزيرة رودس من ناحية أخرى . ذلك أن وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، أعقبها تصدع دولته الواسعة ، حتى تمكن ابنه شاه رخ من استرداد سمرقند - مركز قوة أبيه ومقر حكمه - ودعم سلطانه ، واهياء مجد دولة التتار مثلما كانت في عهد أبيه (٥٧) . وكان أن بدأ شاه رخ صفحة جديدة في العلاقات مع دولة سلاطين المماليك ، فأرسل الى برسباي سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) يطلب السماح له بكسوة الكعبة ، كما طلب بعض الكتب التي ألفها علماء عصر المماليك ، مثل كتاب السلوك للمقريزي وكتاب شرح البخاري لابن حجر . ولما لم يتلق شاه رخ جواباً على طلبه ، أرسل سفارة أخرى الى القاهرة في نفس العام يكرر طلبه ورغبته في « أن يكسو الكعبة ويجري بمكة عيناً من

(٥٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٩٩ (تحقيق

محمد مصطفى) .

(٥٦) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ٣ ، ص ١٠٩١ ، ١١٢٣ ،

١١٥١ وما بعدها (تحقيق المؤلف) .

(٥٧) ابن عربشاه : عجائب المقدور في نواب تيمور ، ص ٢٦٣

وما بعدها (تحقيق علي محمد عمر) .

الماء» (٥٨) . ومن الواضح أن برسباى والمالِك خَشُوا أن يكون وراء طلب شاه رخ أطماع يريد تحقيقها في الشام والحجاز ، لا سيما وأن حماية الحرمين وخدمتهما كانت من الحقوق التي استأثر بها سلاطين المالِك ، والتي أضفت عليهم مكانة خاصة ، دون بقية حكام المسلمين . وزاد من مخاوف سلطنة المالِك الوقوف على رسائل موجهة من شاه رخ الى بعض أمراء المالِك يحرضهم فيها على « أخذ البلاد الشامية » ويعددهم بتقديم العون لهم (٥٩) .

وفي العام التالي — سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠ م) أرسل شاه رخ انى السلطان برسباى رسولا يحمل هدية تتألف من عدة قطع فيوزج ، ومعها خطاب موجه الى برسباى ، لم يخاطبه فيه بلقب سلطان ، وانما لقبه بالأمير . كما أنه لم يفتتح خطابه بالبسملة — مثلما هو متبع — وانما بدأ مباشرة بسورة « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . . . » الى آخر السورة الكريمة (٦٠) . وقد تكررت خطابات شاه رخ الى السلطان برسباى بعد ذلك . مطالباً بكسوة الكعبة : « ولم يخاطب السلطان الا بالأمير برسباى » كذلك تكررت مطالبته بكسوة الكعبة « ولم يظهر لذلك أثر » (٦١) . ذلك أن شاه رخ ام يئأس ، وانما ظل يكرر طلبه ، فأرسل الى برسباى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) يطلب السماح له بزيارة بيت المقدس ، ثم تمادى فأرسل في نفس العام يطلب من برسباى اقامة الخطبة له ، وضرب السكة باسمه . وجاء في رسالة شاه رخ الى برسباى « انى قد جهزت اليكم خلعة بنيابة مصر ، فاضربوا السكة باسمى ، واخطبوا على

(٥٨) الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ١٧٨

١ تحقيق حسن حبشى) .

(٥٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٣٤ .

(٦٠) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، سنة ٨٢٣ هـ

١ تحقيق المؤلف) .

(٦١) نفس المصدر والجزء ، ص ٨٨٧ — سنة ٨٢٦ هـ .

المنابر كذلك» (٦٣) . وما كان من برسباي الا أن أساء الى السفير الموفد من قبل شاه رخ ، مما عكر العلاقة بين الطرفين ، وجعل شاه رخ يحاول الاتصال بأهراء التركمان ، وبالسultan العثماني ، مستهدفا تأليف حلف ضد السلطان الأشرف برسباي (٦٣) . وأخيرا أجاب برسباي على شاه رخ بأن « العادة جرت أن لا يكسو الكعبة الا ملوك مصر ، والعادة قد اعتبرت في الشرع في مواضع » (٦٤) .

وهكذا مات برسباي سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) واعتلى الظاهر جقمق عرش سلطنة المماليك في نفس العام ، ليجد نفسه أمام مشكلة لا بد من حلها ، هي مشكلة العلاقة مع شاه رخ . وكان أن اتبع جقمق سياسة معتدلة مترنة في علاج هذه المشكلة ، لا سيما وأن الظروف الخارجية التي أحاطت به ، واحساسه بخطر العثمانيين المتزايد من ناحية ، وبآثار فشل حملته الثالثة على رودس من ناحية ثانية ، أجبرته على ذلك (٦٥) .

لذلك أحسن الظاهر جقمق استقبال رسل شاه رخ الذين وفدوا على القاهرة لتهنئة السلطان الجديد سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) ، وزينت لهم القاهرة « بأحسن زينة » ، كما رد السلطان جقمق على الهدية بأحسن منها (٦٦) . وفي سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤ م) وافق السلطان جقمق على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة ، بشرط أن تكون الكسوة من الداخل ، أي تحت كسوة السلطان . وقد بادر شاه رخ بإرسال سفارة

(٦٢) الصيرفي : فزعة النفوس ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، سنة ٨٣٩ هـ (تحقيق حسن حبشي) .

Wiet : L'Egypte Arabe, p. p. 564 — 565. (٦٣)

(٦٤) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٩٣٢ (تحقيق المؤلف) .

(٦٥) ابراهيم على طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٩٣ .

(٦٦) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ٣ ، سنة ٨٤٤ هـ ، ص ١٢٠٨ ، ١٢١١ (تحقيق المؤلف) .

تحمل كسوته للكعبة ، فاستقبل أعضاء السفارة استقبالا حسنا ، وان كان العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فاعتقدوا على أعضاء البعثة ، اذ « عظم ذلك على أمراء الدولة والمصريين الى الغاية » . ومن الواضح أن الرأي العام في العالم الاسلامي لم ينس للتتار عندئذ ماضيهم الملتخ بالدماء في عدوانهم على المسلمين وعلى الخلافة العباسية . لذلك استاء المسلمون من فكرة قيام أحد حكام التتار — كائنا من كان — بكسوة الكعبة . أما السلطان جقمق ، فقد برر تصرفه بأن « هذه قرابة ، ويجوز أن يكسو الكعبة كائنا من كان » (٦٧) . وعندما أحس جقمق بتفاقم خطر استيلاء المسلمين أمر بنزع كسوة شاه رخ سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) ، وبقيت للكعبة كسوة سلطان المماليك فقط (٦٨) .

جقمق وجزيرة رودس :

هذا عن علاقة السلطان الظاهر جقمق بالدولة التيمورية . أما عن علاقته بجزيرة رودس ، فيلاحظ أن هذه الجزيرة صارت قاعدة للفرسان الاسبتارية منذ سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) ، وهم فرسان المنظمة التي نهضت بدور كبير في خدمة الحركة الصليبية ببلاد الشام ، حتى اذا مادالت دولة الصليبيين بالشام ، غادروها الى قبرس ، ومنها الى رودس ، ليواصلوا نشاطهم ضد المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط .

وقد أحس الاسبتارية في رودس بالخطر ، عندما قامت قوات السلطان الأشرف برسباي بغزو جزيرة قبرس ، فأسرع مقدم الاسبتارية في ودس — واسمه فلوفيان — الى محاولة كسب ود

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٣٦٤ —

٣٦٥ (تحقيق ابراهيم على طرخان) .

(٦٨) السخاوى : القبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ١٦

وما بعدها .

السُلطان برسباى عن طريق تقديم الهدايا ، والتمهد بدفع جزية سنوية لسلطنة المماليك . على أنه يبدو أن عهد برسباى لم يتبع للقيام بغزو رودس ، فتأجل المشروع لعهد جقمق .

والواقع ان برسباى استطاع بنجاحه في فتح جزيرة قبرس أن يضرب ان يأتي بعده من سلاطين المماليك مثلا يحتذى لحماية دولة سلاطين المماليك من خطر الصليبيين البحري في شرق حوض البحر المتوسط . ويقال ان السلطان مراد الثانى العثمانى حرض جقمق على غزو رودس . وكان هدف السلطان مراد من ذلك هو أن يشغل فرسان الاسبتارية عن الانضمام الى الجلف المسيحى الذى أوشك أن يتألف بين القوى المسيحية الاوربية لشن حملة صليبية ضد العثمانيين في البلقان (٦٩) . هذا الى أن اغارات القراصنة المسيحيين لم تنقطع على شواطئ دولة سلاطين المماليك ، فأغارت أربع سفن لهم على رشيد سنة ٨٤٣ هـ (أغسطس ١٤٢٩ م) ، وأوغلت في النيل حيث اعتدت على عذة قرى وأماكن . ولما كانت قبرس في ذلك الوقت قد تم اخضاعها لسلطنة المماليك ، فان الشبهات قويت ضد رودس حيث أنه لم تتبق قاعدة عداها للصليبيين في شرق حوض البحر المتوسط (٧٠) .

ولم تلبث أن وصلت أخبار استعدادات جقمق لغزو رودس الى أصحاب الجزيرة من الاسبتارية ، فأخذوا يستعدون بدورهم لمواجهة الموقف على عجل ، كما أرسلوا الى القوى المسيحية في أوربا يستنجدون بها خوفا من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرس (٧١) . والى هذه الاستعدادات يرجع فشل جهود جقمق في اخضاع رودس ، ليجعلها تابعة لسلطنة المماليك في مصر تبعية تامة . مثلما حدث في حالة جزيرة قبرس .

(٦٩) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ٢١٧ .

Wiet : L'Egypte Arabe p. 582. (٧٠)

Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages. p. 474. (٧١)

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس ، في سنوات ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م) (٧٣) . وعندما غشلت الحملتان الأولى والثانية في تحقيق أى هدف واضح ، اهتم جقمق بإعداد حملة ثالثة ، وحشد لها عددا كبيرا من المحاربين والسفن . وقامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس — حاضرة الجزيرة لمدة أربعين يوما ، ولكن « مدينة رودس لا تتردد الا قوة لشدة مقاتليها ، ولعظم مهارتها ، وقد تأهبوا للقتال ، وخصنوا رودس بالآلات والسلاح والمقاتلة ... فعند ذلك أجمع المسلمون على العود » (٧٣) .

وكان أن تم عقد الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد قليل ، وان كانت العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحيانا بقية القرن الخامس عشر للميلاد . ومن الواضح أن سلطنة المماليك صارت في النصف الأخير من ذلك القرن في حال لا تمكنها من القيام بعمل حربي كبير ضد رودس أو غيرها من القوى المعادية ، وبذلك لم يبق أمام سلاطين المماليك للرد على العدوان سوى مزاينة التجار الأوربيين في مصر وربما القبض عليهم (٧٤) .

السلطان الأشرف قايتباي والترجمان :

تعرض السلطان الظاهر جقمق للمرض في أواخر سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) . وفي العام التالي « قوى عليه المرض وظهرت عليه علامة الموت » . ولما ثقل عليه المرض ، خلع نفسه من السلطنة ، وعهد الى ولده عثمان بالسلطنة ، فتسلطن عثمان في حياة أبيه الذي

(٧٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٣٤٣ ،

(٣٥١ ، ٣٦٠) (تحقيق ابراهيم على طرخان) .

(٧٣) المصدر السابق — نفس الجزء ، ص ٣٦٠ — ٣٦٣ ، سنة

٨٤٨ هـ .

Wiet : op. cit. pp. 621 — 622

(٧٤)

لم يلبث أن توفي في رابع صفر سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) (٧٥) .

ولكن المنصور عثمان بن جقمق لم يستطع البقاء في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوماً ، اذ عزله الأمير اينال وحل محله ، وتلقب بلقب الأشرف . ولعل الظاهرة الواضحة في تاريخ المماليك في تلك الحقبة ، هي انعدام روح النظام وكثرة المنازعات بين طوائف المماليك ، حتى لقد وصف المؤرخ ابن تغرى بردى ما آل اليه أمرهم في القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر للميلاد — فقال عنهم « ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة . يتعدون على الضعيف ويشرهنون حتى في الرغيف . جهادهم الاخرق بالرئيس ، وغزوهم في التبن والدريس . وحظهم منقاص ، ولا مروءة لهم والسلام » (٧٦) .

وقد ظل الأشرف اينال في الحكم ثمان سنوات (٨٥٧ — ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ — ١٤٦١ م) ثار اثناؤها المماليك الجلبان سبع مرات . وفيما عدا هذه الفتن والفتائل الداخلية ، لا يوجد ما يستحق الذكر في الفترة التالية التي تعاقبت فيها على عرش سلطنة المماليك ، أحمد بن اينال (٨٦٥ هـ — ١٤٦١ م) ، فالظاهر سيف الدين خشمقدم (٨٦٥ — ٨٧٢ هـ / ١٤٦١ — ١٤٦٧ م) ، فالظاهر سيف الدين يلباى الملقب بالمجنون سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) ، فالظاهر تهربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ (ديسمبر ١٤٦٧ — يناير ١٤٦٨ م) . وهكذا تعاقبت السلاطين على عرش دولة المماليك في سرعة ، مما يدل على حالة عدم الثبات والاستقرار . وبعضهم لم يظل في منصب السلطنة الا أياما معدودة ، بل ان أحدهم — في تلك الفترة القلقة — لم يبق في منصب السلطنة سوى ليلة واحدة . ونقصد بذلك السلطان خاير بك (٨٧٢ هـ — ١٤٦٨ م) الذي تسلطن في المساء ، وتم عزله في الصباح

(٧٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٢٦ .

التالى ، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه اسم (سلطان ليلة) . وطوال تلك الليلة ظل خاير بك يتصرف « بما يقتضى له الاختيار ، ولسان حاله . يناديه : كلام الليل يمحوه النهار » (٧٧) . وهكذا حتى قسام السلطان الأشرف قايتباى فى منصب السلطنة سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) ، وعندئذ دخلت الدولة فى مرحلة مؤقتة من الاستقرار .

ذلك أن السلطان الأشرف قايتباى ظل فى الحكم قرابة تسعة وعشرين عاما (٨٧٢ — ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م) ، وهى مدة طويلة لم يسبقه فيها أحد من سلاطين المماليك ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد أثبت السلطان قايتباى طوال حكمه أنه من أقدر السلاطين المماليك فى ميدان الحرب ، وأوسعهم خبرة بشئون العالم الخارجى ، وأكثرهم شجاعة وحكمة ، حتى وصفه المؤرخ ابن اياس بأنه « كان كفؤا للسلطنة : وافر العقل ، سديد الرأى ، عارفا بأحوال المملكة ، يضع الاثياء فى محلها .. وكان موصوفا بالشجاعة » (٧٨) .

وعلى الرغم من ثورات الجلبان (٧٩) فى عهد قايتباى ، وجشعهم فى الحصول على المال دون مراعاة لظروف الدولة عندئذ ، فان قايتباى استطاع أن يواجه فى جرأة وعزيمة المشاكل الكبرى التى هددت

(٧٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ ، سنة ٨٧٢ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٧٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ — حوادث سنة ٩٠١ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٧٩) المماليك الجلبان او الاجلاب او المشتريات او المشتروات هم الذين اشتراهم سلطان المماليك او أحد الامراء بقدر ما تسمح به رتبته ، وكانوا موضع ايثار عند أسلحتهم دائما . انظر :

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٢٠ حاشية ١ للمحقق ابراهيم على طرخان .

دولته . وكانت المشكلة الخارجية الكبرى التي واجهت دولة سلاطين
الماليك في ذلك العصر من جانب الدول التركمانية التي هددت الاطراف
الشمالية للدولة ، في شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى .
وأهم هذه الدول : دولة دليغادر ، ودولة رمضان ، ودولة قرمان ،
ثم دولتي الشاه البيضاء والشاه السوداء (٨٠) .

وقد رأينا كيف تم في عهد السلطان المؤيد شيخ خروج حملتين
سنتي ٨٢١ ، ٨٢٢ هـ (١٤١٨ ، ١٤١٩ م) الى الاطراف الشمالية لبلاد
الشام ، لارغام تلك الدويلات التركمانية على الولاء لسلطنة الماليك .
وإذا كانت هاتان الحملتان قد نجحتا في أرهاق التركمان ، مما ترتب
عليه هدوء العلاقات بينهم وبين سلطنة الماليك ، فان هذا الهدوء
جاء مؤقتا ، بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء انتهاز فرصة سوء
التفاهم بين برسباي وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة ، وأغار على
حدود سلطنة الماليك ببلاد الشام . وقد رد برسباي على ذلك
بارسال حملة خربت الرها سنة ٨٣٢ هـ (١٤٣٠ م) — وكانت تابعة
للشاه البيضاء — ولكنه لم يستطع مع ذلك القيام بعمل حاسم لتأديب
التركمان (٨١) . وربما كان اختلال أحوال الماليك ، وما سببوه من
اضطرابات منذ أواخر عهد برسباي ، سببا لهدوء الموقف نسبيا بين
التركمان من ناحية ، وسلطنة الماليك حتى قيام قايتباي في الحكم ،
من ناحية أخرى .

على أن ازدياد نفوذ العثمانيين في تلك المرحلة الجديدة ،
وتدخلهم في شئون تلك الامارات التركمانية على حدود دولة سلاطين
الماليك ، جعل السلطان الأشرف قايتباي يحسن بالخطر الجديد ،

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 590.

(٨٠)

(٨١) الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، سنة ٨٢٢ هـ

(تحقيق حسن حبشي) .

ويفكر في وضع حد لخطر التركمان ، حتى لا يكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثماني في أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال .

لذلك قام السلطان قايتباي بأرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير دلغادر الذي كان يتمتع بتأييد السلطان محمد الفاتح العثماني^(٨٢) . وقد نجحت الحملة الاخيرة التي أرسلها قايتباي بقيادة الامير يشبك من مهدى الدوادار سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) في انزال الهزيمة بشاه سوار ، والاستيلاء على قلعة عينتات ، فضلا عن أذنة وطرسوس^(٨٣) . وأخيرا تم القبض على شاه سوار ، وأرسل الى القاهرة ، في حين قام الأمير يشبك بتنظيم شؤون امارة دلغادر ، وعين عليها الأمير بوداق الذي كان يعتمد على تأييد سلطنة المماليك ، في حين كان أخوه شاه سوار يعتمد على تأييد السلطنة العثمانية . ولم تلبث أن عادت حملة يشبك الى القاهرة سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) ، فاستقبلت استقبالا شعبيا رائعا ، وزينت القاهرة « زينة حافلة ، واصطفت الناس على الدكاكين للفرجة عليه . . . » أما شاه سوار فقد شنق هو واخوته الاربعة ، وعلقوا على باب زويلة ، والمشاعلية تنادى « هذا جزاء من يخامر على السلطان »^(٨٤) .

ولم تقتصر المتاعب التي واجهت سلطنة المماليك من جانب التركمان على ما أثاره أمراء دلغادر من فتن وقلقل ، بل ان قبيلة الشباه البيضاء - وصاحبها حسن الطويل - دأبت على الاغارة على أعمال حلب ، الأمر الذي جعل السلطان قايتباي يرسل حملة بقيادة يشبك

(٨٢) الصيرفي : انباء الهمر بليناء العصر ، ص ١٨ ، ٢٦ ، ٣٠ وما بعدها (تحقيق حسن حبشي) .
(٨٣) ابن ابيس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٥٩ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى) .
(٨٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٧٦ - ٧٨ .
(م ١٩ - الأيوبيون والمماليك)

الدوادار سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٣ م) ضد حسن الطويل^(٨٥) . وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت انتصارا على التركمان عند البيرة على نهر الفرات ، إلا أن يشبك انتهاز فرصة الفوضى التي عمت امارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) وقام بحملة جديدة لاختضاع تلك الامارة سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠ م) ولكن حاكم الرها - وهو أحد نواب يعقوب بك ابن حسن الطويل - استطاع أن ينزل هزيمة يانالماليك أثناء حصارهم مدينة الرها ، ووقع الامير يشبك الدوادار نفسه أسيرا . فحزت رأسه ، وألقيت جثته في العراء ، في حين « قتل من العساكر التي كانوا مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم »^(٨٦) . ويبدو أن ظروف قايتباي عندئذ لم تساعد على الانتقام من التركمان عقب تلك الكارثة ، ففقد الصلح مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل .

وفي الوقت الذي حرص السلطان قايتباي على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، فإنه لم يهمل شؤون رعاياه . حقيقة انه تعسف في جمع الاموال ، وفرض الضرائب ، وتطبيق سياسة الاحتكار ، حتى وصفه المؤرخون المعاصرون بأنه « كان محبا لجمع المال ، ناظرا لما في أيدي الناس » . ولكن نفس المؤرخين قالوا عنه انه « كان معذورا في ذلك »^(٨٧) ، لأنه استغل الاموال الطائلة التي جمعها في اقامة المنشآت العديدة وتجهيز الجيوش . ويعتبر مسجدا قايتباي بالقاهرة ، والوكالات التي أقامها ، من أجمل المنشآت التي تتميز بفنها الاسلامي الأصيل^(٨٨) . هذا الى عنية قايتباي باسلاح آثار أسلحته وترميمها ، كما يتضح ذلك من الكتابات والنقوش العديدة المثبتة في مدارس ذلك

(٨٥) نفس المصدر والجزء ، ج ٣ ، ص ١٧١ .

(٨٦) نفس المصدر والجزء ، ص ١٧١ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

(٨٨) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٧٧ - ٧٨ ، ٨٢ - ٨٤ .

العصر ومساجده ، فضلا عن القلعة التي ما زالت تحمل اسم قايتباى
بالاسكندرية .

وقد عرف عن قايتباى حب التنقل والاسفار ، فطاف بالشام
وأعلى الفرات ، ومصر العليا والدلتا ، بالاضافة الى الحج وزيارة الأماكن
المقدسة بالحجاز وبيت المقدس^(٨٩) . وأينما ذهب ، كان يخلد اسمه
بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس ، وغيرها من المؤسسات
الحيوية . وقد دفع ذلك بعض الباحثين الى القول بأنه لا يوجد سلطان
آخر من سلاطين المماليك — عدا الناصر محمد بن قلاوون — فعل ما فعله
قايتباى من عناية بالفنون ، وبخاصة فن العمارة^(٩٠) .

(٨٩) ابن ايلس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ وما بعدها

Lane — Poole : op. cit. p. 344.

(٩٠)

الفصل السادس

خاتمة دولة سلاطين الماليك

قنصوه الفورى :

ساعت أحوال البلاد فى أواخر عصر السلطان قايتباى ، اذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ، كما انتشر الطاعون انتشارا خطيرا سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) « وفتك فى الناس فتسكا ذريعا » على قول ابن اياس ، حتى أنه كان يموت بالقاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف نفس . ولم ينج الماليك أنفسهم من ذلك الوباء ، فماتت أعداد غفيرة منهم ، قدرها المؤرخون بثلاثهم . وكان من جملة الموتى زوجة السلطان قايتباى وابنته . وزاد الموقف سوءا انعدام الأقوات ، وانخفاض النيل ، وانتشار طاعون المواشى . وقد بدأ هذا الطاعون فى حلب ، ثم امتد الى مصر ، بمعنى أن شمل دولة الماليك بأجمعها « وفشى جملة واحدة » (١) .

وفى وسط تلك الظروف القاسية ، لم يتورع الماليك عن إثارة انفتن والانغماس فى منازعات مع بعضهم البعض ، مثلما حدث سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) . أما السلطان قايتباى نفسه ، فقد تقدم به السن حتى جاوز الرابعة والثمانين من عمره ، واستبد به الضعف والمرض ، حتى كاد يفقد الوعي . وكان أن اجتمع الأمراء والقضاة والخليفة ، وباعوا ابنه محمد ، كل ذلك « والسلطان قايتباى فى النزاع الأخير ،

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٦ ، ص ٢٨٧ (تحقيق محمد مصطفى) .

لم يشعر بشيء مما جرى » ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٦ م)^(٣) .

وكان محمد بن قايتباي الذي تلقب بالناصر في الرابعة عشر من عمره ، لا يستطيع الصمود أمام كبار الأمراء الذين اشتد التنافس بينهم حول الوصاية على السلطان القاصر ، باعتبار أن هذه الوصاية هي الخطوة المؤدية الى الاستئثار بالحكم وبمنصب السلطنة . وقد خرج الأمير قانصوه خمسمائة منتصرا في تلك الجولة ، اذ تولى منصب الأتابكية ، واستبد بالسلطة^(٤) .

ولم يلبث أن تمكن الأمير قانصوه خمسمائة من عزل محمد بن قايتباي وعلان نفسه سلطانا (٩٠٢ هـ — ١٤٩٧ م) ، « وما كان أغناه عن هذه السلطنة » على قول المؤرخ المعاصر ابن ايبس ، لأن خصومه سرعان ما خلعوه ثم قتلوه ، ثم أعادوا الناصر محمد بن قايتباي مرة أخرى إلى السلطنة^(٥) . ولكن الناصر محمد لم يلبث أن استثار غضب الناس وتغورهم منه ، نظرا لحماقته وطيشه ، وهنله لسفك الدماء ، في الوقت الذي استبد الماليك الجلبان بالامور ، وطعوا وعاثوا فسادا في البلاد . وعندما ضاق الأمراء باستبداد الماليك الجلبان ، وخضوع السلطان الصغير محمد بن قايتباي لرأيهم ، قتلوا السلطان محمد سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) ، واختاروا الظاهر قانصوه — وهو خال السلطان القتيل — ليتولى السلطنة^(٦) .

وهكذا تعاقب السلاطين بسرعة في تلك الفترة المضطربة التي تمثل الفصل الختامي في تاريخ سلطنة الماليك ، اذ لم يلبث أن عزل الظاهر قانصوه ليتولى السلطنة بدله الأشرف جانبلاط ٩٠٥ هـ

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٢٢ — ٢٢٤ ،

Wise : op. Cit. p. 604.

(٣) ابن ايبس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٥٤ .

(١٥٠٠ م) ، ثم عزل هذا الأخير وخنق ليحل محله العادل طومان باي (الأول) سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٦ م) . ولم يبق العادل طومان باي في منصب السلطنة سوى بضعة أشهر ، حتى خنق وحل محله الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ هـ - ١٥٠١ م) .

ولعل الموتة الوحشية التي تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم ، هي التي جعلت قانصوه الغورى يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء ، « ويمتنع من ذلك ويبكى » . ولكنه قبل أخيرا ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه^(٥) . ولم يكن اصرار الأمراء على اختيار قانصوه الغورى ايمانا منهم بأحقيته أو تقديرا لكبر سنه ، وإنما لاعتقادهم أنه ضعيف ، يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم .

ولكن ما كاد السلطان الأشرف قانصوه الغورى يلى السلطنة ، حتى أثبت أنه رجل قوى صلب العود ، على الرغم من أنه كان قد تجاوز الستين من عمره . ذلك أنه عمل في سرعة على إعادة الأمن والاستقرار الى العاصمة ، وملا مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء^(٦) ثم اتجه الى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلسست خزانة الدولة ، وان كان يؤخذ عليه أنه اتبع سياسة تعسفية في اثباج خزانة الدولة بالمال ، فجمع ضرائب عشرة أشهر مقدما دفعة واحدة . ولم يكتف بفرض الضرائب على الأرض والحوانيت والعقارات ، وإنما تجاوز ذلك الى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا الى أنه تلاعب في العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة . وضاعف المكوس والرسوم الجمركية مما أنزل بالتجار - على وجه الخصوص -

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى) .

(٦) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٠ وما بعدها .

أصرارا بالغة^(٧) . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه ، وحصل على ما كان يتطلع اليه من أموال ، ولكن ذلك تم على حساب شعب محطم ، أثقلت كواوله الالتزامات والاحتكارات والضرائب ، وأثقلت مضاجعه الفتن والنزاعات بين أمرء المماليك وطوائفهم .

ولم يشفع للسلطان الغورى لدى رعاياه أن ذلك السلطان شيد مسجدا ومدرسة فى الحى الذى نسب اليه فيما بعد ، وهو حى الغورية ، فضلا عن « الوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة »^(٨) ، كما عنى بطريق الحج وحفر به بعض الآبار ، فضلا عن عنايته بحفر الترغ وتحصين الاسكندرية ورشيد ، واجراء اصلاحات بقلعة الجبل . هذا الى أن السلطان الغورى اشتهر بعنايته بالمماليك ، فأكثر من شراء أعداد كبيرة منهم ، وصرف أموالا طائلة على مظهر بلاطه وفخامته ، حتى غدت مماليكه وخيوله وجواهره ، ومطبخه السلطانى . مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية ، التى ضمت العديدين من الشعراء والأدباء والعلماء^(٩) .

الصدام بين المماليك والبرتغاليين :

ولم تحدث قلاقل ذات خطورة فى الفترة الاولى من حكم السلطان الغورى ، اذا استثنينا بعض الفتن والثورات من جانب المماليك والعربان . وهذ النوع من الفتن كان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر ، بحيث لم يصعب على السلطان الغورى اخمادها . ولكن لخطر الكبير الذى ظهر عندئذ والذى هدد كيان الاقتصاد المصرى ، والمصدر الأول لايرادات الدولة ، لاح فى الجنوب ، أى من ناحية المدخل الجنوبى

(٧) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٩٤ .

(٩) انظر كتاب (الكوكب الدرى فى مسائل الغورى) ، نسخة

مخطوطة بدار الكتب المصرية . وكذلك كتاب (مجالس السلطان الغورى) تأليف عبد الوهلب عزام .

للبحر الأحمر ، وجاء مقرونًا بخطر آخر ظهر في الشمال ممثلاً في الخطر العثماني .

ومن المعروف أن حركة التتار التوسعية أدت منذ القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — الى انسداد طرق التجارة العالمية المألوفة بين الشرق ولغرب ، وبخاصة طريق الخليج ، والطريق البرى المار بسمرقند . ولم يبق طريق آمن ، بعيد عن سيطرة التتار سوى طريق البحر الاحمر ومصر . وكان أن استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة ، وفرضوا ضرائب باهظة على الغلات لاسيوية — وبخاصة التوابل والفلفل والبخور — التى حرص الغرب الاوربى على استيرادها من الشرق . وجاء ذلك مصحوبا بنظام احتكارى عنيف طبقه سلاطين المماليك على تجارة التوابل بوجه خاص ، حتى غدت تباع للتجار الاوربيين فى الاسكندرية ودمياط بأسعار تفوق أربعين مرة أسعارها المستوردة به من بلدان الشرق الأقصى (١) .

وعندما ضلq الغرب الاوربى — ممثلاً فى التجار والمستوطنين — بذلك الوضع ، بدأ التفكير فى البحث عن طريق آخر — غير طريق مصر ودولة سلاطين المماليك — للوصول الى الشرق الاقصى والحصول على حاصلاته دون وسيط . ولما كانت البندقية هى العميل الاول لدولة سلاطين المماليك فى تجارة الشرق الأقصى ، فان منافستها جنوة تزعمت حركة الكشف عن طريق جديد يربط أوربا بالشرق الاقصى . وفعلا استطاعت جنوة اكتشاف بعض أجزاء السواحل الغربى للقارة الافريقية — فى مواجهة جزر كناريا — مما يعتبر مقدمة للجهود التى

(١٠) انظر للمؤلف (مركز مصر فى التجارة العالمية فى اواخر العصور الوسطى) بحث نشر فى المجلة المصرية للعلوم السياسية ، ديسمبر

ادت الى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد^(١١) . وكان أن نجح بارثلميو دياز في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، وأعقبه فاسكو دي جاما الذى تمكن من الوصول الى الهند عن طريق الطواف حول افريقية سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) . وبذلك حقق البرتغاليون نصرا عالميا جديدا ، واستطاعوا أن يوفروا للسوق الاوربية التوابل — وغيرها من حاصلات الشرق الاقصى — بثمن يعادل ربع ثمنها في الاسكندرية ودمياط .

وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجيء في طرق التجارة العالمية ، وما ترتب عليه من خلل في الميزان الاقتصادى . ذلك أن التوابل غدت مكدسة في الاسكندرية ودمياط بعد أن قل عدد المشترين من التجار الاوربيين ، مما حرم سلطنة المماليك من المورد الأول لثروتها وعظمتها وقوتها . ولم تكن البندقية أقل تأثرا من سلطنة المماليك بما أحدثه اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد بين المغرب والشرق من آثار ، لأن معنى ذلك أن يحل البرتغاليون محل البنادقة في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب^(١٢) . لذلك اتفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطنة المماليك ، فحرض البنادقة السلطان الغورى على ارسال حملة — عبر البحر الاحمر — الى قاليقوط لطرد البرتغاليين من الهند . هذا في الوقت الذى لجأ الغورى الى أسلوب آخر ، هو تحريض الحكام المسلمين بالهند على طرد البرتغاليين من بلادهم ، وشن حرب عليهم . ومن ناحية أخرى ، فقد دأبت البندقية على تأليب القوى الاوربية ضد البرتغاليين وحثها على عدم التعامل معهم . على أن جميع جهود الغورى والبنادقة ذهبت مع الريح ، فلا الحكام المسلمون في الهند تحركوا ضد البرتغاليين . ولا الدول الاوربية قبلت

(١١) انظر للمؤلف (الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية) بحث نشر في المجلة المصرية للعلوم السياسية ، اكتوبر ١٩٦٢ .

Heyd : Hist. du Commerce: T.2 p 320.

(١٢)

أن تتخلى عن التعامل مع البرتغاليين الذين قاموا بتموين السوق الاوربية بحاجته من التوابل بأسعار تقل كثيرا عن أسعار البنادقة (١٣) .

ولما وجد الغورى أن الغرب الاوربي لم يعبا بتهديداته ، وأن جهود البندقية لم تفلح في عرقلة طريق البرتغاليين ، صمم على القيام بعمل حاسم ضد البرتغاليين بعد أن غدت المعركة معزكة بقاء أو فناء بالنسبة لسلطنة الممالك . لذلك أعد الغورى حملة بحرية كبيرة ، وأرسلها في البحر الاحمر سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) بقيادة حسين الكردى — نائب جدة — . وأعلن السلطان الغورى أنه يرسل هذه الحملة « بسبب تعيث الفرنج في بحر الهند » (١٤) . واستطاعت هذه الحملة أن تنزل الهزيمة فعلا بالبرتغاليين قرب الشواطئ الغربية للهند سنة ٩١٤ هـ (١٥٠٨ م) . ولكن البرتغاليين انتقموا بسرعة لأنفسهم ، فحطموا اسطول الممالك في العام التالى — سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) — وذلك في موقعة ديو البحرية (١٥) .

ولم ييأس السلطان الغورى بعد الهزيمة التى حلت باسطوله في موقعة ديو ، وانما قام بعدة محاولات أخرى للقضاء على النفوذ البرتغالى في الهند ، ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح منذ بدايتها . لقد كانت حلقة من حلقات الصراع بين القديم والجديد .

وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الاقصى والغرب الاوربي جميعا . وبذبول هذه التجارة ذبلت دولة سلاطين الممالك كلها . وجاء ذلك في الوقت الذى اشتد خطر العثمانيين على دولة الممالك في مصر والشام .

(١٣) ابن ايلس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٨٤ ، ١٤٦ .

(١٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ .

Wiet : op. Cit: p. 618.

(١٥)

الماليك والعثمانيون :

شهد القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر للميلاد — تضخم نفوذ قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى ، هي قوة الاتراك العثمانيين ، الذين كانوا يعيشون في بداية القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — في اقليم خراسان ، ثم اضطروا تحت ضغط القطار الى التحرك غربا ، حتى استقروا في آسيا الصغرى . وقد أتاح انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) فرصة طيبة للعثمانيين ، فأخذوا يتوسعون بسرعة في آسيا الصغرى على حساب بقية الامارات والقبائل التركية ، فضلا عن بقية الممتلكات والبقايا البيزنطية والمسيحية ، فاستولوا على بروسة سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ، وعلى نيقية سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) ، ثم عبروا الى الشاطئ الاوربي واستولوا على غاليعولى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)^(١٦) . وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوسع توسعا آمنا سريعا على حساب الدولة البيزنطية من ناحية ، وعلى حساب القوى الاسلامية في آسيا الصغرى من ناحية أخرى ، دون أن يعوق تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر للميلاد .

على أن الدولة العثمانية الناشئة تعرضت لضربة خطيرة كان من الممكن أن تقضى عليها قضاء نهائيا في أوائل القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر للميلاد — عندما اجتاح تيمورلنك معظم آسيا الصغرى ، وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية في موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، ووقع السلطان العثماني بايزيد الاول أسيرا حيث مات في الأسر في العام التالي . وهكذا انتشرت جيوش نيمورلنك في آسيا الصغرى « تعبت وتفسد وتتهب . . . ومثوا ستة أشهر يقتلون ويأسرون وينهبون ويفسدون » . أما بنو عثمان ، فقد لاذوا بالفرار « الى بر

Gibbon : The Decline and Fall of the Roman (١٦)
Empire, pp. 101 — 103.

القسطنطينية « أى الجانب الأوربي طلبا للنجاة» (١٧) .

وكان الأمل ضعيفا في استطاعة الدولة العثمانية النهوض من تلك الكبوة ، ولكنها نهضت بسرعة ، وتمكن السلطان محمد الاول العثماني من احياء الدولة ، وربط أجزائها ، وابستئناف سياسة التوسع على حساب القوى المجاورة من جديد . ولم يستطع الغرب الأوربي وقف توسع العثمانيين المسلمين في البلقان ، حتى سقطت القسطنطينية في قبضة محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) . وبذلك انتهت الدولة البيزنطية — أو دولة الروم — من صفحة التاريخ ، وحل سلاطين آل عثمان محل أباطرة الروم في مدينة الامبراطور قسطنطين العظيم (١٨) .

وفي خلال تلك الأحداث التي صحبت نمو الدولة العثمانية ، كانت العلاقات طيبة بين القوتين الاسلاميتين في الشرق لادنى — وهما دولة المماليك ودولة العثمانيين — وبخاصة فيما يتعلق بمواجهة القوى المسيحية ، في عصر شهد ذيول الحرب الصليبية . من ذلك ما يذكره المقرئزي في حوادث سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) — عقب حملة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الإسكندرية — من أن السلطان العثماني أرخان أرسل الى سلطان المماليك الأشرف شعبان يخبره « أنه جهز مائتي غراب بحرية نجدة للسلطان على ممتلك قبرس ، فأجيب بالشكر والثناء» (١٩) . وفي سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) أرسل السلطان العثماني بايزيد الى سلطان المماليك برقوق رسلا يحملون اليه هدية سنوية

(١٧) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٩٢ وما بعدها ، ٨٠٥ هـ (تحقيق المؤلف) ،

Cam. Med. Hist. vol 4, 782 — 784

(١٨) سعيد عاشور : اوريا العصور الوسطى : ج ١ ، ص ٦٨٢ .

(١٩) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٢١ (تحقيق

المؤلف) .

ويسألون « تجهيز طبيب من أطباء القاهرة الى ابن عثمان ليداويه من مرضن به » . وعلى الفور ، تم ارسال الطبيب والدواء (٢٠) .

وطوال توسع الدولة العثمانية ونموها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، لم يظهر في الأفق ما يدل على احتمال حدوث صدام بين العثمانيين ودولة سلاطين المماليك ، وذلك باستثناء بعض الشائعات التي كانت تنتشر أحيانا عن عزم ابن عثمان التحرك « للمشى على بلاد الشام » ، مثلما حدث سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) (٢١) . ولا نكون مبالغين ، إذا ذكرنا أن دولة سلاطين المماليك أخذت تنظر بعين الارتياح الى الانتصارات التي كان يحققها العثمانيون المسلمون على حساب القوى الاوربية المسيحية في البلقان . بل ان السلطان إينال أمر بترتين القاهرة سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) عندما وصلتته الاخبار باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . يذكر المؤرخ المعاصر ابن تغرى بردى أنه عندما وصل خبر استيلاء العثمانيين على القسطنطينية « سر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سرورا زائدا ، ودقت البشائر لذلك ، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما ... » (٢٢) .

وهكذا أخذ المماليك ينظرون الى كل نصر يحققه العثمانيون على حساب القوى المسيحية على أنه نصر للإسلام والمسلمين . وقد أدرك العثمانيون هذه الحقيقة ، فدأبوا كلما أحرزوا نصرا في موقعة كبرى على ارسال بعض أسرى الاوربيين الى القاهرة ، حتى يشارك أهل مصر في فرحة النصر . وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في القاهرة على ارسال التهاني الى الدولة العثمانية كلما اعتلى عرشها

(٢٠) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ٩٦٥ ، ٩٧١ .

(٢٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٧١ ، سنة

٨٥٧ هـ (تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت ، ١)

محمد مصطفى زيادة : نهاية سلاطين المماليك في مصر ، ص ١٩٩ .

سلطان جديد ، أو كلما أحرزت الجيوش العثمانية نصرا جديدا (٢٣) .
غير أنه لم يكد يلى الظاهر خشقدم عرش سلطنة المماليك سنة
٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) ، حتى أخذت العلاقات يتمكر صفوها بين دولتى
المماليك والعثمانيين . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد قنمت عندئذ
بما حققتة من فتوح فى البلقان ، وأخذت تولى وجهها مرة أخرى صوب
ما تبقى خارجا عن سيادتها من الامارات فى آسيا الصغرى . وكانت
أهم هذه الامارات امارتا قرمان ودلغادر ، وهما امارتان تركمانيتان
مشمولتان بحماية سلطنة المماليك ، واعتمدت عليهما هذه السلطنة
فى شئون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال الشام وشرقى آسيا
الصغرى (٢٤) .

والواقع ان الصدام بين دولتى المماليك والعثمانيين كان لابد أن
يحدث فى يوم ما . بين قوتين تنتزعان العالم الاسلامى فى الشرق
الأدنى واتخذتا من القتال أداة لتحقيق أهدافهما . وكان لابد لاحدى
هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها لتستأثر بزعامة المسلمين
فى الشرق الأدنى . وكان أن اتخذ التنافس بين سلطنتى المماليك
والعثمانيين امارتى قرمان ودلغادر مجالا له . وظهر ذلك بوضوح
عندما توفى أميرا قرمان ودلغادر سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٥ م) ، اذ قامت
الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير الاميرين اللذين قامت دولة
المماليك بتأييدهما ، مما أدى الى أن « تتسع الفتنة بين ابن عثمان
والسلطان » (٢٥) .

(٢٣) ابن ايس : بدائع الزهور ، صفحات لم تنشر ، حقتها ونشرها

محمد مصطفى ، ص ١٤ .

Lane — Poole : op. Cit; pp. 346 — 347.

(٢٤)

(٢٥) ابن ايس : بدائع الزهور ، سنة ٨٧٠ هـ (صفحات لم تنشر

حقتها ونشرها محمد مصطفى ، ص ١٦٠ — ١٦١) ، ج ٤ ص ٢٥ ،

سنة ٩٢١ هـ .

وإذا كانت العلاقات قد تصنت بعد عهد الظاهر خشقدم بين سلطنتي المماليك والعثمانيين ، فإن هذا التحسن لم يكن الا في ظاهر الأمور ، لأن أطماع الدولة العثمانية وسياستها التوسعية من ناحية ، ومخاوف دولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى ، ظلت قائمة . ولا أدل على ذلك من أن كل طرف من الطرفين حرص على ايواء الأمراء الخارجين على الطرف الآخر ، فرحبت سلطنة العثمانيين ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام ، ورحب السلطان قايتباي بأخ للسلطان بايزيد الثاني — اسمه جم — هارب من وجهه^(٢٦) . وقد حاول بايزيد الثاني أن يحرم سلطة المماليك من انفرادها بحماية الحرمين مما يضى عليها مكانة خاصة لا تتمتع بها دولة اسلامية أخرى ، فطلب السماح له بالقيام ببضعة اصلاحات في مكة . ولكن قايتباي رفض طلبه ، مثلما رفض سلاطين المماليك السابقين طلبات نساء رخ لكسوة الكعبة من قبل . وازاء ذلك لم يسع بايزيد الثاني سوى أن يتحرش بسلطنة المماليك ، واتخذ امارة دلغادر — الخارجة على طاعة سلطنة المماليك عندئذ — محورا ومسرحا لذلك التحرش^(٢٧) . على أنه مهما يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين في ذلك الدور^(٢٨) ، فإن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلا جديا خطيرا الا في عهد السلطان سليم الأول العثماني من ناحية ، والسلطان قانصوه الغوري من ناحية أخرى .

أما عن السلطان سليم الأول العثماني (٩١٨ — ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ — ١٥٢٠ م) فقد دخل في حرب ضد الشاه اسماعيل الصفوي في ايران لتصفية ما بين الدولتين العثمانية والصفوية من مشاكل مذهبية وسياسية . وأدى انتصار العثمانيين على الصفويين سنة ٩٢٠ هـ

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 598.

(٢٦)

(٢٧) نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٥ (محمد مصطفى زيلادة) .

(٢٨) ابن ايلس : بدائع الزهور ، صفحات لم تنشر ، سنة ٨٧١ هـ ،

ص ١٧٦ وما بعدها (حقتها ونشرها محمد مصطفى) .

(١٥١٤ م) ، وواقعتيلاء السلطان سليم الأول على إقليم الجزائر ومدينة الوطيل . وغير ذلك من الأقاليم ذات الروابط القوية بسلطنة مصر منذ أيام الأيوبيين . إلى تهية مزيد من الفرص لوقوع الصدام المنتظر بين العثمانيين والمماليك . ويقال أن السلطان سليم العثماني أطلع على اتصالات أجراها الغوري مع الشاه اسماعيل الصفوي يستخفه فيها على قتال السلطان العثماني (٢٩) . وقد رد سلطان سليم على ذلك بأن قضى في سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) على إمارة دلبادو المشمولة بحماية سلطنة المماليك ، مما جعل الصدام بين السلطنتين الكبيرتين أمرا لا مفر منه (٣٠) .

ولم يستطع السلطان الغوري أن يظل ساكنا ازاء الاستفزاز العثماني المتكرر على أطراف دولته من ناحية ، والخبار التي أخذت تتراعى على مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على الدولة المملوكية من ناحية أخرى . لذلك أسرع الغوري إلى استرضاء المماليك الثائرين بسبب تأخر صرف رواتبهم ، ثم أخذ يستعد للمعركة المقبلة ، فاستدعى العسكر إلى ديوان الجيش ، وأعد آلات الحرب ، وعنى بتحصين قلعة قايتباي بالاسكندرية . وفي ذلك الجو المشحون بروح الحرب ، وصلت رسالة من خير بك نائب حلب ، ملخصها أن السلطان مخدوع فيما لديه من أخبار بخصوص نوايا السلطان سليم العثماني ، وأن المقصود من الاستعدادات التي قام بها السلطان سليم ، محاربة الشاه اسماعيل الصفوي (٣١) .

وترجع أهمية هذه الرسالة إلى أنها تكشف المنقار عن دور

(٢٩) ابن طولون : ملكية الخلان في حوادث الزمان ، ق ١٠٤ ، ص ٢٢ (تحقيق محمد مصطفى) .
 (٣٠) ابن ايليس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٣٥ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى) .

Wiet : op. Cit; pp. 632 — 633 .

(٣١) محمد مصطفى زليدة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢١٤ .
 (م ٢٠ — الأيوبيون والمماليك)

الخيانة الذي حرص خايز بك على أن يلعبه في ذلك الوقت ، وهو الدور الذي كان له فيما بعد أبعاد الأثر في الهزيمة التي حلت بالغوري .

ومهما يكن من أمر ، فإن الغوري لم ينفذ بتلك الرسالة ، وإنما عقد مجلسا لبحث الأمر مع كبار أمراء الدولة ، واستقر رأى الجميع على ضرورة المبادرة بإرسال حملة كبيرة إلى حلب استعدادا للطوارئ ، على أن يكون السلطان الغوري نفسه على رأس تلك الحملة (٣٣) . وهكذا لم ينتصف شهر مايو سنة ١٥١٦ م (صفر ٩٢٢ هـ) ، الا وكان الغوري قد تاهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام . وفي مرحلة التاهب النهائي بالريدانية ، وصلت إلى الغوري رسالة من خايز بك ، تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثماني ، تحوى كثيرا من عبارات الود والمحبة ، والرغبة في التعايش السلمى مع سلطنة المماليك . وفي هذه الرسالة يوجه السلطان سليم الخطاب إلى السلطان الغوري قائلا « أنت والدى ، وأسألك الدعاء !! » (٣٣) . ولكن الخدعة لم تقطع على الغوري ، فخرج على رأس جيشه إلى الشام بعد أن أتاب عنه في السلطنة الأمير طومانباي .

والواقع ان السلطان الغوري لم يكن مبالغا في سوء ظنه بالعثمانيين ، عندما أرسل إليه السلطان سليم رسولين في حلب يعرضان الصلح . وكان الغوري محقا عندما أدرك أن « كل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ، ويثنى عزمه عن ذلك » ، على قول المؤرخ المعاصر ابن اياس . كذلك لم يكن الغوري مبالغا في الحذر عندما استدعى — وهو بحلب — أمراءه جميعا ، وحلفهم على القرآن — في حضرة الخليفة العباسي — بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة . ذلك أن الأحداث السريعة أثبتت أن الغوري كان على حق في كافة مخاوفه ،

(٢٢) ابن ايلس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٥ وما بعدها ،

ج ٥ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢٣) ابن ايلس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٥ (تحقيق محمد

مصطفى) .

وإذا كان قد أجاب على رسالة سليم بالحسنى ، فإن السلطان العثماني أساء استقبال رسول الغوري ، وصاح فيه « قل لاستاذك يلاقينا على مرج دابق » (٣٤) .

وكان أن دارت المعركة فعلا عند مرج دابق ، فأبلى المماليك بلاء حسنا ، وتبارفوا بشجاعة نادرة ، حتى لقد فكر السلطان سليم العثماني في التمهق لإعادة تنظيم صفوفه . وفي تلك المرحلة الحرجة ، كشف الخائن خاير بك النقيب عن وجهه ، فأشاع بين صفوف الجند أن السلطان الغوري يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى . ثم لم يلبث خاير بك أن انسحب من الميدان ، بعد أن أشاع أن السلطان الغوري خر قتيلًا . وهكذا تفرق المماليك ، واختلت صفوفهم ، وانهارت مقاومتهم . وبعثا حاول الغوري — بعد فوات الأوان — أن يوقف تيار الكوص ، فصاح في رجاله : « يا أغوات ! الشجاعة ! صبر ساعة ! » (٣٥) . وكان لهذه الصدمة وقعها في قلب الشيخ ، فطلب ماء ليشرب ، ثم أغمى عليه وسقط ميتا « من فوق فرسه . وقيل ان السلطان سليم قطع رأس الغوري وأرسلها الى ابطنبول ، في حين دفنت جثته عند حلب « والصحيح أنه لم يعلم جاله » (٣٦) .

طومان باي وسقوط دولة سلاطين المماليك :

صارت كارثة مرج دابق مزدوحة بوفاة الغوري ، فقرت فلول المماليك هاربة نحو دمشق في طريقها الى مصر . أما أهل القاهرة « فجرحهم طري ، بسبب موت السلطان وكسرة الجسر » . ذلك أن الخبر وقع عليهم وقع الصاعقة ، لا سيما وأن هزيمة مرج دابق وصل خبرها مصحوبا بأخبار زحف السلطان سليم العثماني على بلاد الشام في طريقه الى مصر . وكان الموقف في القاهرة يتطلب اجراء عاجلا

(٣٤) المصدر السابق — نفس الجزء — ص ١٨ .

(٣٥) ابن زنبيل : آخرة المماليك ، ص ٣٠ (تحقيق عبد المنعم جابر) .

(٣٦) ابن طولون : مملكة الخلان في حوادث الزمان ، ق ٢ ، ص ٢٤

(تحقيق محمد مصطفى) .

سريعا ، فلختر طومان باي سلطانا سنة ٩٢٢ هـ (أكتوبر ١٥١٦ م) ،
وتلقب بلقب الاشراف ، وبذلك كان آخر مسلاطين المماليك في مصر
والشام (٣٧) .

ومن الواضح أن السلطان الأشراف طومانباي ورث تركة مثقلة ،
وولي السلطنة في ظروف لا يجسد عليها حكمه . وكان أقل ما ينتظره
بعد أن ضجى وقبل منصب السلطنة في تلك الظروف ، هو أن يجد
تعاوناً من أمراء المماليك . ولكن بخاب ظنه ، لأن المماليك كانوا قد
وصلوا في ذلك الدور الى درجة من الانحلال أعمتهم عن رؤية الخطر
المحيط بهم .

من ذلك أن طومان باي فكر في الإسراع الى بلاد الشام للاقامة
العثمانيين هناك قبل أن يتمكنوا من دخول مصر ، ولكن المماليك تعللوا
بالأعذار ، وطالبوه بمنفقات وأموال باهظة ليستجيبوا لطلبه . ولما لم
يجد طومان باي تعاوناً من المماليك في تلك الظروف الحرجة ، اضطر
أن يجمع من استطاع جمعه « من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة » ،
وخرج الى الريدانية في طريقه لمواجهة العثمانيين (٣٨) .

أما السلطان سليم العثماني فكان قد استولى على حلب في
سهولة عقب هزيمة حرج دابق ، ثم دخل دمشق بعد مفاوضات
قصيرة ، وقضى بها نحو شهرين ، استأنف بعدها الزحف تجاه حدود
مصر . وفي الوقت الذي استولى السلطان سليم على غزة ، وأخذ
بختراق الصحراء الشرقية في طريقه الى القاهرة ، رأى طومانباي
الخروج للاقامة العثمانيين في تلك الصحراء وهم مجهودون من مشقة
الطريق . ولكن من معه من أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه ،
اعتقاداً منهم أن خنادقهم ستفضضهم من الهزيمة (٣٩) .

(٣٧) ابن ايلس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠٢ ، ١١١ (تحقيق
محمد مصطفى) .

(٣٨) المنتصر السليق ، نفس الجزء ، ص ١١١ .

(٣٩) ابن زنبيل : آخرة المماليك ، ص ٤٧ — ٥٠ (تحقيق عبد المنعم

علم) .

وفي معركة الريدانية ، أظهر طومان باي شجاعة لا تقبل عن شجاعة الغوري في مرج دابق . ولكن فردا واحدا مهما تبليغ ارادته وشجاعته ، لا يستطيع أن يصد جيشا متماسكا كبيرا . وكان أن حلت انهزيمة بالماليك ، وفر طومان باي ليواصل المقاومة بين دروب القاهرة وأحيائها ، حتى نجح فعلا في اخراج سليم من القاهرة بعد أن كان قد دخلها . وعندئذ ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ففوجيء طومان باي أثناء مقاومته الجيارة على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم العربان والبدو على مؤخرته ، مما أوقعه بين نارين ، فاضطر الى التقهقر قرب وردان ، حيث دارت موقعة بين العثمانيين وجيشه الصغير^(٤٠) . وعندما تغلب عليه العثمانيون ، فر طومان باي الى أحد مشايخ العربان باقليم البحيرة — واسمه حسن ابن مرعى — طالبا حمايته . ولكن هذا الاعرابي نسي ما كان لطومان باي من فضل سابق عليه ، اذ كان طومان باي قد أخرجه من السجن أيام الغوري ، فتتكر له وسلمه للعثمانيين . ولما وقع طومان باي في قبضة السلطان سليم ، فرح السلطان العثماني وصاح : « الآن ملكنا مصر »^(٤١) .

وتجمع المصادر على شجاعة طومان باي عندما وقف بين يدي السلطان سليم العثماني ، اذ قال في جراءة انه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب ، وأن الله تعالى أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين . ولما عاتبه السلطان سليم لأنه لم يطمع من أول الامر ، رد عليه طومان باي في شجاعة : « الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل . وهل سمعت أن الاسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا . وليس في عسكري من يقايسني في حومة الميدان . . . » .

(٤٠) محمد مصطفى زيادة : نهية السلاطين المليك ، ص ٢٢٦ .

(٤١) ابن زنبيل : آخره المليك ، ص ١٣٢ .

وكان: أن سيق طومان باي الى باب زويلة حيث شنق (٢٢ ربيع
الإول سنة ٩٢٣ هـ / ٢٣ ابريل ١٥١٧ م) (٤٢) .

وقد وصف المؤرخ المعاصر ابن اياس اللحظات الاخيرة في حياة
طومان باي وصفا رائعا ، فقال انه سيق من بولاق الى باب زويلة :
فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل الى باب زويلة ،
وهو لا يدري ما يصنع به . فلما أتى الى باب زويلة أنزلوه من على
الفرس ، وأرخوا له الخيال ، ووثقت نحوه العثمانية بالسيوف . فلما
تحقق أنه سيشنق ، وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس
الذين حوله : اقرأوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات . فبسط يده وقرأ
سورة الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه . ثم قال للمشاعلي :
اعمل شغلك . فلما وضعوا الخية في رقبتة ، ورفعوا الحبل ، فانقطع به
فسقط على باب زويلة . وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على
الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس ، وعلى رأسه شيايه جوخ
أحمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفي رجله لباس جوخ أزرق .

فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ،
وكرر عليه الحزن والأسف ، فانه كان شابا حسن الشكل ، سنه أربع
وأربعين سنة . وكان شجاعا وبطلا ، تصدى لقتال ابن عثمان ، وقتل
منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات في نفر قليل من عسكره .
ووقع منه في الحرب أمور ما لا تتع من الأبطال . . . [(٤٣)] .

هذا هو حكم التاريخ على أحد أبطاله ، هو آخر سلاطين دولة
المماليك في مصر والشام .

(٤٢) المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ابن اياس : إبدائع الزهور ،
ج ٥ ، ص ١٧٥ .
(٤٣) ابن اياس : إبدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٧٦ ،
ابن زنبيل : آخره المماليك ، ص ١٢٢ .

الفصل السابع

أحوال مصر في عصر سلاطين المماليك

الحياة الاقتصادية :

أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد ، بوصفها الدعامة الأولى للحياة الاقتصادية في تلك العصور . لذلك اتبعوا نفس السياسة التي اتبعها المصلحون من حكام مصر عبر كافة عصور تاريخها الطويل ، فعنوا بالزراعة عناية فائقة ، وقاموا بالعديد من المشروعات مثل انشاء الجسور وشق الترع لتوفير مياه الري للأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها . ومن أبرز سلاطين المماليك الذين عنوا بهذه الناحية السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، الذي عهد إلى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر في الوجهين البحري والقبلي ، والكشف عليها . بل ان هذا السلطان أشرف بنفسه على انشاء بعض الجسور ، وكان يخرج أحيانا وبصحبته بعض المهندسين ليوجههم ويوضح لهم رغباته ، حتى يتم بناء الجسر^(١) .

وقد قسمت أرض مصر الزراعية إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، والأمراء بعشرة ، وما تبقى خصص للاجناد . وروعى في ذلك التقسيم أن توزع الأرض على هيئة اقطاعات تتفاوت في مساحتها ، وفي خصوبتها ، ومقدار ريعها . عنى أن زمام الأرض فك وعدل أكثر من مزة في عصر سلاطين المماليك . وكانت هذه العملية التي عرفت باسم الروك تتم بعد مسح الأراضي الزراعية في البلاد . وقد اشتهر في عصر سلاطين المماليك الروك الذي تم في عهد السلطان لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) والروك الذي تم

(١) النويري : نهلية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٩١ (مخطوط) .

في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) (٣) .

وقام بفلاحة الارض الفلاحون الذين عاشوا في حال من الفقر والحرمان لا يخفى على الباحث في تاريخ ذلك العصر . فالفلاح عندئذ كان مربوطا الى الارض التي يفنى حياته في خدمتها ، دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها . وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية ، ومن جانب الأغراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى ، حتى « خرب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد » (٣) . وكانت الارض تبرع مرقواحدة في السنة عقب فيضان النيل ، لأن البلاد لم تعرف في ذلك العصر غير رى الحياض ، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات العتيقة التي عرفت منذ أيام الفراعنة .

ومع ذلك ، فان محصول الارض الزراعية في مصر ازداد على عصر سلاطين المماليك ، نتيجة للعناية بمرافق الزراعة ، من جسور وترع ومقاييس للنيل ، وغيرها (٤) .

وفي عصر سلاطين المماليك ارتقت الصناعة رقيا كبيرا ، حتى غدت مصنوعات ذلك العصر تكون في مجموعها انتاجا فنيا رثما ، تردان به متاحف العالم اليوم . وتكفي الاشارة الى الاقمشة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن . وقد خيبت من هذه الاقمشة اللؤلؤ السلطانية والخرش والستور والخيام . هذا عدا المصنوعات المعدنية التي تتمثل في عدد كبير من الاواني النحاسية والطاقسات المزخرفة ذات النقوش والكتابات الرائعة .

(٢) المقرئوى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٨٤٢ — ٨٤٤ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) .

(٣) المقرئوى : اغائة الامة ، ص ٣٦ — ١٤٠ (تحقيق جمال الدين الشيال) .

(٤) نسعيد عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام ، ص ٢٧٥ .

وانتشرت في ذلك العصر صنعة تكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة . وقد شغف المعاصرون بالنحاس المكفت بحيث « لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت »^(٥) .

أما الزجاج ، فقد صنعت منه أنواع جميلة ، بعضها من البللور الصخري المحبب ، والبعض الآخر من الزجاج الملون المستخدم في النوافذ . وكذلك الخزف الذي صنعت منه أواني متقنة جميلة ، كان بعضها يصنع بناء على توصية خاصة من السلاطين والأمراء ، ولذلك زينت برنو كهم^(٦) .

ولم تكن الصناعات الخشبية أقل تقدما في عصر سلاطين المماليك ، اذ ما زالت الأبواب والدكك والمثرييات ، وغيرها من المصنوعات الخشبية الباقية من ذلك العصر ، تشهد على دقة الصناعة وتنوع أساليبها ورقى وسائلها . وسنشير الى ذلك عند الكلام عن الفنون في ذلك العصر .

على أنه مهما يكن للزراعة والصناعات أهمية في عصر سلاطين المماليك ، فان كافة الشواهد تدل على أن التجارة صار لها المقام الأول في النشاط الاقتصادي في ذلك العصر ، وأنها كانت المصدر الأول للثروة الهائلة التي انعكست صورتها في منشآت سلاطين المماليك وأمرائهم ، وفي حياتهم الخاصة والعامة .

وقد سبق أن أشرنا الى أن السبب في النشاط التجاري الذي تميزت به دولة سلاطين المماليك ، يكمن في انبساط معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر ، بسبب حركة التتار التوسعية ، وهي الحركة التي ترتب عليها انعدام الأمن والسلام في تلك الطرق . ويكفى أن مؤرخا معاصرا يصف حاكما كبيرا من حكام

(٥) المقرئى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٣١٩ .

التتار — هو تيمور لك — فيقول عنه انه « كان قاطع طريق » (٧) . ولم يبق آمنا بعيدا عن تهديد التتار من طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الاحمر ومصر ، مما جعل مصر في ذلك العصر تقوم بدور الوسيط بين الشرق والغرب . وعندما أدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة ، اهتموا بتنشيطها ، وتأمين مسالكها ، وانشاء المؤسسات اللازمة للتجارة والتجار ، كالفنادق والخوانات والوكالات والقياسر والاسواق ، وغيرها . كذلك حرصوا على التودد الى قوى البحر الاحمر من ناحية ، والى التجار الاوربيين وغير الاوربيين المترددين على مصر وثنورها من ناحية أخرى .

وقد أمر السلطان قلاون نوابه بالثغور أن يحسنوا معاملة التجار ويلطفونهم ويتوددوا اليهم ، ولا يجبون منهم سوى الحقوق السلطانية (٨) . كذلك أصدر السلطان قلاون منشورا الى التجار الذين يفذون الى مصر من الشرق والغرب ، يصف لهم محاسن مصر وحبس ضيافتها ، ويغريهم على القدوم اليها بمتاجرهم ، ويعددهم بحسن المعاملة والاحسان اليهم (٩) . ويفهم من المصادر المعاصرة أنه خصصت لكل جالية من التجار الاوربيين فنادق خاصة في الثغور والمراكز التجارية الكبرى في مصر ، ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث يتمتع التجار الاوربيون النازلون فيها بأكبر قسط من الحرية والتسهيلات (١٠) .

ومن أقوى مظاهر النشاط التجارى في عصر سلاطين المماليك ، انتعاش ثغور الدولة وموانئها ، مثل أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ،

(٧) القرىزى : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٦ ، سنة ٨٠٨ هـ (تحقيق المؤلف) .

(٨) تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٩٧ .

(٩) الطلقشندى : صلح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٤٠٢ — ٢٤١ .

(١٠) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Egypte pp. 17 — 20.

وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهند واليمن ، ودمياط والاسكندرية وموانئ الشام بالنسبة للتجارة مع القوى الاوربية ، وبخاصة الايطالية^(١١) .

وما يقال عن التجارة الخارجية يمكن تطبيقه على التجارة الداخلية في الدولة ، فنشطت القوافل بين مصر من ناحية ودمشق وحلب والقدس وبغزة من ناحية أخرى ، واشتهرت المدن الكبرى في مصر والشام بأسواقها الحافلة بالبضائع . وقام المحتسبون بالاشراف على هذه الأسواق وأحكام الرقابة على التجار والبيعة لمنع التلاعب في الاسعار أو الغش في الموازين أو في أصناف البضاعة^(١٢) .

على أن الجشع سرعان ما دفع سلاطين دولة المماليك الجراكسة الى اتباع سياسة احتكارية عنيفة ، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور ، وبالغوا في تقدير أثمانها ، حتى بلغ ثمن الفلفل في الاسكندرية أضعاف ثمنه في موطنه الأصلي ، وربما فاق الثمن عشرين ضعف ثمنه الحقيقي . وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسي ، وسك الدينار الأشرفي ليكون أساسا للتعامل مع التجار الاوربيين . وكثيرا ما كان السلطان يجبر التجار على شراء ما احتكره من توابل بالسعر الذي يحدده هو ، مما يلحق بهم الأذى . من ذلك أن السلطان برسباي « طرح سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) على التجار بالقاهرة ودمشق ألف حمل فلفل بمائة ألف دينار ، حسابا عن كل حمل مائة دينار ، فنزل بهم منها بلاء لا يوصف »^(١٣) .

(١١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٢٩٠ .

(١٢) المقرئزي : كتاب المواعظ ، ج ٢ ص ٩٢ ، ابن الاخوة : معالم

القربة ، ص ٨ .

(١٣) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ص ٩٧٢ ، ١١٢٧ (تحقيق

المؤلف) .

وأخيرا ، ضاق الاوربيون ذرعا بسياسة سلاطين الماليك واحتكاراتهم ، فجدوا في البحث عن طريق آخر - غير طريق دولة سلاطين الماليك - يوصلهم الى حاصلات الشرق الأقصى بثمن معقول . وما زالوا يجدون حتى اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر للميلاد) ، فكان ذلك ايذانا بتدهور مركز دولة سلاطين الماليك في التجارة العالمية .

وأخيرا ، فاننا نلاحظ في أواخر عصر سلاطين الماليك عدم استقرار الحياة الاقتصادية بسبب تلاعب السلاطين بالعملة ، واستخدام العملة الرديئة - أعنى الفلوس النحاسية - بدلا من العملات الذهبية والفضية^(١٤) . « ذلك أن سنة الله في خلقه أن النقود التي تكون أثمانا للمبيعات وقيما للأعمال ، انما هي الذهب والفضة فقط . أما الفلوس (النحاسية) فانها لمحقرات المبيعات »^(١٥) .

يضاف الى ذلك حدوث الفتن والمنازعات بين طوائف الماليك وبخاصة في أواخر عصر الدولة^(١٦) . ومع هذا وذاك ، علينا أن نذكر أن أهل مصر كانوا يعيشون دائما تحت رحمة فيضان النيل ، فاذا انخفض الفيضان ، حدثت أزمة اقتصادية في البلاد . وارتفعت الاسعار ، واشتد الجوع ، وربما انتشر الطاعون وسقط المئات

(١٤) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٦٠ ، ابن ايمس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٧٧ وما بعدها ، المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ١٧ ، ج ٣ ص ٨٢ ، ٤٥٣ ، ٩٦٧ ، ١١٢١ ، ١١٥٥ ، ١١٦١ ، ج ٤ ص ٥٤٩ ، ٦٢٨ ، ٦٤٨ ، ٦٩٨ ، ٩٤٢ ، ٩٧٢ ...

(١٥) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١١٢١ ، سنة ٨٠٧ هـ (تحقيق المؤلف) .

(١٦) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٣ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ٢١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٦٥ ، ٣٨١ ، ٦٠٨ ، ٩٨٦ ، ١١٦٢ ...

من الموتى في الطرقات ، لا يوجد من يدفنهم ويوارى أجسادهم في
التراب (١٧) .

الحياة الاجتماعية :

اتصفت الحياة الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك بالحركة
والنشاط والصخب ، فضلا عن الثراء والترف . والمعروف عن المماليك
أنفسهم أنهم عاشوا طبقة ارسقراطية ، يحكمون البلاد ، ويتمتعون
بالجزء الأكبر من خيراتها ، دون أن يحاولوا الذوبان في محيطها
والامتزاج بأهلها . وقد شهد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر في
ذلك العصر بعظم ثروة أمراء المماليك ، وحياة الترف والنعيم التي
كانوا يعيشونها (١٨) . أما أهل البلاد ، فقد استطاعت بعض فئاتهم
— مثل المعممين والتجار — أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في
المجتمع ، ومستوى لائق من المعيشة ، في حين ظل غالب أهل البلاد
من العوام والفلاحين ، يحيون حياة أقرب الى البؤس والحرمان (١٩) .

وكانت مدن الدولة الكبرى — مثل القاهرة والاسكندرية ودمشق
وحلب — تفيض بالحركة والنشاط ، وتميزت بأسواقها العديدة المليئة
بأصناف البضائع والتي خضعت — كما سبق أن أشرنا — لرقابة
المحتسب الذي كان يراعى فيه أن يكون « ذا رأى وصرامة وخشونة
في الدين » (٢٠) .

كذلك اهتم سلاطين المماليك باقامة العديد من المنشآت الاجتماعية
المتنوعة ، مثل الفنادق والخانات والوكالات والأسبلة والحمامات
والبيمارستانات وغيرها . وعلى الرغم مما كان يتعرض له أهل المدن

(١٧) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(١٨) Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. X.

(١٩) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ،

ص ٢٧ ، ٤٨ .

(٢٠) ابن الاخوة : معالم القرية ، ص ٨ .

أحيانا من قلق نتيجة لعدم الاستقرار السياسى والاقتصادى ، الا أنهم عاشوا عيشة مرحة ، فحرصوا على الاقبال على وسائل التسلية ، والخروج الى الحدائق العامة ، والرغبة فى سماع الموسيقى والغناء ، والتلهم بمشاهدة خيال الظل أو بعض الألعاب مثل نطاح الكباش ومناقرة الديوك^(٢١) .

وفى ذلك النشاط الحافل ، أسهمت المرأة بنصيب أكبر مما يتصور البعض ، اذ تمتعت بقدر كاف من الاحترام ، مكنها من المشاركة فى الحياة العامة ، سواء بالخروج الى الاسواق ، أو التردد على الحمامات ، أو طلب العلم بالمساجد^(٢٢) .

كذلك اتصفت الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك بالمبالغة فى احياء الأعياد الدينية والقومية . ففي الاعياد ذات الصبغة الدينية كان الناس يتبادلون التهانى ، ويقيمون الولائم ، ويتصدقون على الفقراء ، ويبالغون فى اظهار السرور^(٢٣) . وربما جاءت هذه الاحتفالات بالأعياد مصحوبة ببعض المواكب — مثل الاحتفال بدوران المحمل — وعندئذ يخرج الناس من كل مكان للفرجة ، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلى .

أما فى الاحتفالات القومية — مثل الاحتفال بوفاء النيل ، أو اعتلاء سلطان جديد العرش — فكان السلطان عادة يشق القاهرة فى موكب حافل ، وقد فرشت الشوارع بشقق الحرير ، وأقام الأمراء القلاع — وهى أقواس النصر — فى طريق السلطان . وتتضاعف مظاهر

(٢١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٣٦ ،

المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

(٢٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ،

ص ١٢٧ — ١٤٠ .

(٢٣) السخاوى : التبر المسبك ، ص ١٣ — ١٤ .

الفرح والبهجة اذا كان السلطان عائدا منتصرا من ساحة الحرب ، اذ يبائع الأمراء والناس في الزينة ، ويقوم نائب السلطنة « باحضار سائر مغاني العرب من أعمال مصر كلها » (٢٤) .

على أن المجتمع لم يخل من بعض المشاكل في ذلك العصر ، منها تفشى بعض الأمراض الاجتماعية . يضاف الى ذلك أن بعض المدن الكبرى — وبخاصة القاهرة — واجهت مشكلة تزايد هجرة أهل الريف اليها ليعيشوا عالة على المجتمع المدني . وكثيرا ما كانت الحكومة تواجه هذه المشاكل في حزم وتنزل العقوبة بالمفسدين . من ذلك ما يذكره المقرئ في حوادث سنة ٨٢١ هـ من أنه « نودى بالقاهرة أن كل غريب يفرح الى وطنه » (٢٥) .

الحياة الدينية :

شهدت مصر في عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا يستدعي الانتباه ، وبخاصة بعد أن غدت قاعدة الخلافة العباسية . ومقصد المسلمين في المشرق والمغرب . وكانت مصر لا يزال يوجد بها أثر واضح للتشيع في أوائل عصر المماليك ، على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين وخلفاؤه لدعم المذهب السني ، عقب اسقاط الخلافة الفاطمية . ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة حازمة للقضاء على تلك الآثار الشيعية المتخلفة عن العصر الفاطمي ، بحيث لم ينته عصر سلاطين المماليك ، الا وكانت آثار التشيع قد خفت أو كادت تزول من البلاد (٢٥) . من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) من تحريم أي مذهب عدا المذاهب السنية الأربعة ، بحيث

(٢٤) المقرئ : كتاب السلك ، ج ١ ، ص ١٢٨ (تحقيق محمد

مصطفى زيادة) .

(٢٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٦٩ (تحقيق المؤلف) .

(٢٦) محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصري في عصر الايوبيين

والمماليك ، ص ٧٣ — ٧٤ .

لا يتقبلك شهادة أحد ولا لا يوضح توظيفه من وظائف القضاء أو الخطابة ،
أو الاجارة أو أو للتدريس ، إلا إذا كان زمن اتباع أحد هذه المذاهب
النسبية الأربعة (٢٧) .

وخير ما يوضح اتساع دائرة النشاط الديني في عصر سلاطين
الماليك ، كثرة المنشآت الدينية التي أقيمت في ذلك العصر . وما زالت
المدن الكبرى في مصر والشام تعتر بالجوامع الجميلة الرائعة التي
تنسب الى سلاطين الماليك ، حتى لقد قدر خليل بن شاهين عدد المساجد
بمصر (الفسطاط) والقاهرة على عصر سلاطين الماليك بأكثر من ألف
مسجد (٢٨) . وقلمنا نجد سلطانا من سلاطين الماليك لم يشيد مسجدا
أو أكثر ، حتى يقال ان السلطان الناصر محمد وأمرائه شيّدوا ثمانية
وعشرين مسجدا (٢٩) . ولم تستخدم المساجد في ذلك العصر في العبادة
فحسب ، بل استخدمت أيضا مواضع للعلم يقصدها المعلمون
والمتعلمون .

على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الدينية في عصر سلاطين
الماليك كانت انتشار التصوف . ومن الثابت أنه أخذ يقد على مصر
منذ القرن السابع الهجري — الثالث عشر للميلاد — كثير من مشايخ
الصوفية ، معظمهم من المغرب والاندلس — مثل أبي الحسن الشاذلي
وأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري والسيد أحمد البدوي —
وهؤلاء وجدوا في مصر تربة صالحة لنشر مذهبهم وتعاليمهم (٣٠) .
ولم يلبث أن انقسم الصوفية الى فرق ، لكل فرقة — أو طريقة —
شيخها وشنعارها . وكان أن ازداد عدد المصريين الذين أقبلوا على هذا

(٢٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ (بولاق) .

(٢٨) خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ، ص ٣١ .

(٢٩) زيرشتين : تاريخ الماليك ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣٠) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين الماليك ،

ص ١٦٢ — ١٦٣ .

اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية ، وأخذ السلاطين يتقربون الى الله ببناء الخانقاوات ووقف الاوقاف عليها ، والاحسان الى الصوفية ومشايخهم . من ذلك أن السلطان برقوق رتب للمدرسة التي أنشأها بين البصيرين عددا من الصوفية ، وقدر لهم مرتبات وغيرة^(٣١) . أما عامة الشعب المصرى فى عصر سلاطين المماليك فقد آمنوا بالصوفية ايمانا راسخا ، فقصدوهم لقضاء حوائجهم ، ومشاركتهم فى أذكارهم ، ووصفوا الصوفية بأنهم « ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء »^(٣٢) .

ولا شك فى أن ازدياد تيار التصوف على عصر سلاطين المماليك ، كان له أثره الخطير فى الحياتين الاجتماعيه والفكرية . ويرى بعض المفكرين أن المتصوفة صبغوا القيم والمثل العليا بصفة الزهد ، والرغبة عن الدنيا ومتاعها ، والاتجاه نحو الآخرة والعمل لها . وترتب على هذه الاتجاهات — فى نظر هذا الفريق من المفكرين — نشر روح الاستكانة ، والقناعة بالقليل ، والتذلل للحكام بين عامة الناس ، مما استمرت بقاءه فى نفوس الكثيرين أمدا طويلا .

الحياة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ازدهارا واسعا ، فعدت هذه الدولة محورا لنشاط علمى متعدد الاطراف . ويرجع ذلك الى ما أصاب العالم الاسلامى فى المشرق على أيدي التتار وفى الاندلس على أيدي الصليبيين من كوارث ، فضلا عما أصاب بلاد الشام بسبب هجمات الصليبيين والتتار جميعا . وفى وسط تلك الغمة التى ألمت بالوطن الاسلامى ، لم يجد علماء المشرق والمغرب بلدا اسلاميا آمنا سوى مصر التى غدت منذ القرن السابع الهجرى —

(٣١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١١٢ ،
المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٩٤٦ (تحقيق المؤلف) .
(٣٢) الذهبى : تاريخ الاسلام ، ج ٣٢ ، ص ٤١ — ٤٢ .
(م ٢١ — الأيوبيون والمماليك)

الثالث عشر للميلاد — مركزا للخلافة العباسية ، « وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء » (٣٣) .

وكان الماليك أنفسهم — رغم كونهم من أصول غير عربية متعددة — أصحاب فضل في ازدهار النشاط العلمي في مصر . من ذلك ما نسمعه عن ولع بعض السلاطين — مثل الظاهر بيبرس — بسماع التاريخ (٣٤) . هذا في حين حرص البعض الآخر — مثل الغورى — على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلمة وحضورها ، بل والمشاركة في المسائل العلمية التي تثار في تلك المجالس (٣٥) . أما أمراء الماليك ، فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل لقد تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٣٦) .

وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية على عصر سلاطين الماليك ، عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات . وما زالت دور الكتب في كافة أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التي ترجع الى ذلك العصر ، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والمعارف العامة وغيرها . فاذا أضفنا الى هذه المخطوطات النسبة الضئيلة التي طبعت من تراث العصر المالكي ، والكتب التي فقدت ولم نعد نعرف عنها سوى أسماء مؤلفيها ، أدركنا أن عصر سلاطين الماليك شهد نشاطا علميا فائقا ليس له مثيل في عصر آخر .

ففى الأدب عرف عن سلاطين الماليك تقريبيهم الأدباء . هذا وان كان يؤخذ على الأدب — شعرا ونثرا — ضعف اللغة الفصحى نتيجة

(٣٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢٢ ، ص ٨٦ .
(٣٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٢ .
(٣٥) عبد الوهلب عزام : مجلس الغورى ، ص ٤٩ .
(٣٦) سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين الماليك ، ص ١٤٢ .

زحف الأعاجم ، فضلا عن دخول كثير من الالفاظ العامية . وقد
اشتهر من شعراء مصر في ذلك العصر البوصيري المصري صاحب
البردة ، وتعرف باسم « الكواكب الدرية في مدح خير البرية » ،
وقم في ١٦٢ بيتا^(٣٧) . وفي نفس السنة التي توفي البوصيري - وهي
سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م) - توفي أيضا سراج الدين الوراق ، وكان
شاعرا كثير النظم ، صحيح المعاني ، عذب التورية ، عارفا بالبديع^(٣٨) .
أما شهاب الدين العزازي المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) فكان بزازا
يعمل في قيسارية جركس بالقاهرة ، وله ديوان في خمسة أبواب ،
وأجاد في الموشحات ، وامتاز شعره بالظروف وخفة الروح^(٣٩) . وهناك
ابن نبلة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) ، وقد نبغ في النظم
والنثر ، ومثله ابن أبي حجلة نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٧٦ هـ
(١٣٧٤ م) . ومن شعراء ذلك العصر من يرجع الى أصل ممالكي ،
مثل علي بن سودون البشناوي ، المتوفى سنة ٨٧٨ هـ (١٤٧٣ م) .
بل لقد كان السلطان قانصوه الغوري نفسه المتوفى سنة ٩٢٢ هـ
(١٥١٦ م) شاعرا ، وله ديوان غير منشور حتى الآن .

أما الأدياء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون ، فمنهم القلقشندي
المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ، وله مؤلفات عديدة أهمها موسوعة
« صبح الأعشى في صناعة الانشا » ، وشمس الدين النواجي المتوفى
سنة ٨٥٩ هـ (١٤٥٥ م) - وقد نسب الى نواج احدي قرى الغربية -
وله كثير من الآثار الأدبية شعرا ونثرا ، منها حلبة الكميت ، وهو
كتاب في الخمر وما قيل فيها ، والندماء ومجالسهم وآدابهم . . . وختمه
بفصل في التوبة وضم الخمر^(٤٠) .

(٣٧) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٤٥ ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .
(٣٨) الكتبي : نوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ، ابن تغري : النجوم
الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٨٣ .
(٣٩) الكتبي : نوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٤٨ .
(٤٠) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

وفي ذلك العصر ، كثر الاشتغال باللغة وعلومها . وظهر من علماء اللغة كثيرون ، على رأسهم ابن منظور المصري المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) . وله كثير من المؤلفات ، على رأسها المعجم الشهير « لسان العرب » (٤١) . كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) ، والدميني السكندري المتوفى سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) .

علي أن أبرز العلوم في عصر سلاطين المماليك ا كان بحق علم التاريخ ، اذ ظهر فيه عدد كبير من المؤرخين خلفوا لنا تراثا ضخما في ذلك العلم . فمن أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ، وله كتاب في سيرة الملك الظاهر بيبرس ، وآخر في سيرة الاشراف خليل بن قلاون . ونذكر أيضا من كتاب السير ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٢٣٤ م) ، والقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ، وغيرهم كثيرون (٤٢) . ولم يقف الأمر عند حد كتابة السير الفردية ، بل ظهر في عصر سلاطين المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات . ومن هؤلاء ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) صاحب كتاب وفيات الأعيان ، والأدقوي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) . صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد ، وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) صاحب كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، وشمس الدين السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، والسبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) صاحب كتاب طبقات الشافعية .

وهناك فريق من مؤرخي ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا عن بلد معين أو دولة بعينها ، مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ

(٤١) ابن شلكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤٢) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ١٧٠ .

(١٢٩٨ م) صاحب كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، وابن دقماق المصرى المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) صاحب كتاب نزهة الأنام وكتاب الانتصار بواسطة عقد الإمبراطور^(٤٣) ، وتقى الدين أحمد ابن على المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) صاحب كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) — وهو من أصل ممالئكى — من مؤلفاته النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وكتاب المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى^(٤٤) . . وغيرهم كثيرون . أما أصحاب الحوليات العامة ، فلا يقلون عددا ، نذكر منهم بييرس المنصورى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وكان أحد أمراء الممالئكى وله كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، وبدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وله كتاب عقد الجمال في تاريخ أهل الزمان . . . وغيرهما خارج مصر كثيرون .

أما في علوم الجغرافيا والسياسة والادارة ، فقد كتب شرف الدين ابن الجيعان سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ هـ) كتاب التحفة السفية في أسماء البلاد المصرية ، ويشتمل على إحصاءات ادارية وخراجية عن أرض مصر . وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرفعة المصرى الشافعى — محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) كتاب « بذل النصائح انشريعة فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية »^(٤٥) . وكتب حسن بن عبد الله العباسى للملك المظفر السلطان بييرس المنصورى كتابا أسماه « آثار الأول في تدبير الدول » ، رتبته على أربعة أقسام : في الضوابط والأصول وقواعد المملكة ، وفي أحوال الملك في ذاته مع

(٤٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٨٠ ،
السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ص ١٤٥ .
(٤٤) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس
عشر الميلادى ، القرن التاسع الهجرى ، ص ٢٦ — ٤٥ .
(٤٥) السبكى : طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ١٧٧ .

خواصه وخدمه ، وفي الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته ، وفي الحروب وشروطها وما يتعلق بها برا وبحرا . ويحوى هذا الكتاب كثيرا من الفوائد السياسية والاجتماعية والادارية .

وثمة ظاهرة امتازت بها الحياة الفكرية في عصر سلاطين المماليك ، هي الإقبال الشديد على تأليف الموسوعات الضخمة التي تحوى الموسوعة الواحدة منها ، كثيرا من المعلومات المتنوعة المتباينة . وبالإضافة الى كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشا للقلقشندي — وهو الذى سبق أن أشرنا اليه — هناك كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٢٣٢ م) ، وهو موسوعة كبيرة تقع في نيف وثلاثين مجلدا ، قسمها مؤلفها الى خمسة فنون : الأول في السماء والآثار العلوية ، والثانى في الانسان وطبائعه ، والثالث في الحيوانات الأخرى ، والرابع في النبات على اختلاف أشكاله ، والخامس ، وهو أكبرها وأهمها في التاريخ^(٤٦) . أما ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) فقد كتب موسوعته الشهيرة « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » وتقع في أكثر من عشرين مجلدا ، تناولت فنون الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها . هذا فضلا عما كتبه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) وغيره من مؤلفات عديدة يضيق المقام عن ذكرها^(٤٧) .

وكان للعلوم الاسلامية نصيبها في تلك الحركة الواسعة ، فظهر من كتب في الفقه — مثل خليل بن اسحق المالكي المصرى المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) ، وتقى الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ، كما ظهر من كتب في التصوف ، مثل تاج الدين بن عطاء الاسكندري ، المتوفى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) .

(٤٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

(٤٧) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ —

وأخيرا ، فقد كان للعلوم التجريبية والتطبيقية والطبيعية حظها فيما خلفه علماء عصر سلاطين المماليك ، فوجد من العلماء من كتب في الهندسة والنجوم والفلك ، مثل شهاب الدين بن طيغالا القاهري المتوفى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) . وهناك من كتب في الزراعة والفلاحة ، مثل طيغالا الجركسي وهو من أهل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) . واشتهر ممن كتب في علم الحيوان كمال الدين محمد بن عيسى الدميري المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى ، وقد وصف فيه كل حيوان وخصائصه فضلا عما يتعلق به من حديث وأمثال وأشعار ، مما جعل قيمته الأدبية والتاريخية لا تقل عن قيمته العلمية البحتة^(٤٨) .

ويرتبط بالحياة العلمية النشاط التعليمي ، وهو الجانب الذي حظي باهتمام كبير في عصر سلاطين المماليك والذي يتمثل في العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ومكاتب وغيرها . أما المدارس فكانت بمثابة معاهد للتعليم العالي — أشبه بالجامعات اليوم — بحيث يخصص لكل مدرسة عدد من المدرسين والطلاب والموظفين ، وتلحق بها خزانة كتب كبيرة^(٤٩) . وقد حرص سلاطين المماليك على محاكاة سلاطين بني أيوب في إنشاء عدد كبير من المدارس ، مثل المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس ، والمدرسة الناصرية التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون . وقد وقفت على هذه المدارس الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدرا من الحياة الهادئة ، تجعلهم ينصرفون إلى الاستعمال بالعلم آمنين مطمئنين^(٥٠) .

(٤٨) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠٧ ، السخاوي :
الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٤٩) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ، ج ١١ ، ص

٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٥٠) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ، ورقة ٣٤١ ب وما بعدها

(مخطوط) .

وإذا كان التعليم العالى قد وجد قسطا كافيا من العناية في المدارس ، فان التعليم الاولى نهضت به المكاتب التى أنشأ عدد كبير منها في عصر سلاطين المماليك . ويندو أن الهدف الاول لانشاء المكاتب في ذلك العصر كان تعليم أيتام المسلمين ، الأمر الذى دفع الخيرين الى الاكثار منها ، وحبس الاوقاف عليها ، للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم^(٥١) . وقد خصص لكل مكتب مؤدب ، يساعده عريف ، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن . ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم شاقة عسيرة ، فقد اشترطت في المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة ، منها العقل والدين وحسن الخلق ، والبعد عن القسوة والعنف^(٥٢) .

الادارة ونظم الحكم والقضاء :

ترأس دولة المماليك سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث ، وانما تمكن بفضل قوته ومواهبه وكثرة ممالিকে من الوصول الى ذلك المنصب . فاذا توفى السلطان القائم أتاحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه في الحكم . وربما أدرك ذلك الامير أن الظروف غير مواتية ، وأن هناك من كبار الأمراء من ينافسه ، فيقبل في تلك الحالة تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، لا اعتقادا من أمراء المماليك أحقية ذلك الابن ، ولكن كحل مؤقت حتى ينجلي الموقف ، وعندئذ يسهل على أقوى الأمراء عزله واعتلاء العرش بدله .

ومع أن سلطان المماليك تمتع بنفوذ واسع في الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق بشئون السياسة والحرب ، وملء المناصب الكبرى وتوزيع

(٥١) محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص

٢٦١ وما بعدها .

(٥٢) سعيد غانور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ،

ص ١٥٠ — ١٥٢ .

الاقطاعات ، الا انه لم يستغن في احوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة في مهام الأمور ، لا سيما في الأمور المتعلقة بشن الحرب وعقد السلم . ولذلك وجد في عصر سلاطين المماليك مجلس المشورة الذي كان يعقد برئاسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه ، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسي ، والوزير ، وقضاة المذاهب الاربعة ، وأمراء المؤمنين وعددهم أربعة وعشرين أميرا . هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزما بدعوة مجالس المشورة أو الأخذ برأيه ، وانما ترك ذلك لرغبة السلطان ومشيعته^(٥٣) .

والى جانب سلطان المماليك ، وجد عدد من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدته في شئون الحكم والادارة . ومن هؤلاء الموظفين الكبار :

١ — نواب السلطنة ، وهم مساعداو السلطان . فهناك نائب للسلطان بالقاهرة ، هو ساعده الأيمن في تصريف شئون الدولة ، ويشترك معه في توزيع الاقطاعات ومنح ألقاب الامارة . واذا كان هذا النائب ينيوب عن السلطان في حضوره فانه يتلقب بنائب الحضرة . أما اذا كان لا يجوز له أن ينيوب عن السلطان الا في غيبته ، فيكون لقبه « نائب الغيبة » ، وهو أقل درجة من الأول .

وقد وجد للسلطان نواب في البلاد الشامية ، في دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك . وأعلى هؤلاء درجة هو نائب دمشق الذي أطلق عليه « نائب الشام »^(٥٤) .

(٥٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٦ ، القلقشندي :

صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ — ١٧ .

(٥٤) العمري : التعريف بالمصطلح اثلريف ، ص ٦٥ — ٦٦ ،

القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٦ — ١٧ .

٢ — الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المالكي . وقد أتاحت له
وظيفته التمتع بنفوذ كبير في الدولة .

٣ — الوزير : وقد تضاعلت وظيفته في عصر الماليك نتيجة لوجود
نائب للسلطنة ، بحيث لم تتعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات
السلطان ونائب السلطنة ، والاشراف على الشئون المالية في
الدولة . وكان يحدث أحيانا أن يتعرض الوزير للطرده من
وظيفته ، بل ربما تعرض للضرب اذا غضب عليه السلطان ،
مثلا حدث للوزير علم الدين عبد الوهاب الطنساوى سنة
٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) (٥٥) .

أما الادارة المحلية في المدن والاقاليم ، فقد تولى الاشراف عليها
عدد كبير من الولاة اختيروا دائما من بين الامراء . وهناك مدينة
واحدة في مصر — هي مدينة الاسكندرية — عين لها نائب سلطنة
سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) . ويبدو أن الخطر الصليبي الذي تمثل في
حملة بطرس لوزجان ملك قبرس على الاسكندرية في تلك السنة ،
كان له أثر في ذلك الاجراء الادارى . أما القاهرة ، فكان لها والى
يشرف على شئونها ويتمقب المفسدين فيها ، ويحمى أهلها من الأشرار
والعابثين . وبالجمله فقد كان منصبه يشبه منصب محافظ القاهرة
اليوم . كذلك وجد في الوجهين البحرى والقبلى ولاة أشرفوا على حكم
الاقاليم والاعمال . وكان عددهم عشرة في الوجه البحرى وثمانية في
الوجه القبلى . وفي عصر دولة الماليك الجراكسة وجد نائب لكل من
الوجهين البحرى والقبلى ، مهمته الاشراف على جميع الولاة والعمال
الذين يقومون بادارة شئون الوجه التابع له (٥٦) .

(٥٥) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، ص ٤٨٠ (تحقيق

المؤلف) .

(٥٦) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

وقد اعتمد هذا الجهاز الادارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة التى ضمت عددا ضخما من الموظفين لادارة مرافق الدولة المتنوعة . وأهم هذه الدواوين :

١ - ديوان الجيش ، ومهمته الاشراف على طوائف الجند وتوزيع الاقطاعات عليهم .

٢ - ديوان الانشاء ، ومهمته تلقي الرسائل العديدة التى ترد الى السلطان وابلاغها اليه ، واعداد الردود عليها . وكانت تتبع هذا الديوان ادارة البريد ، وهى ادارة ضخمة ، تولت فى عصر سلاطين المماليك كافة شئون البريد البرى والجوى (٥٧) .

٣ - ديوان الأقباس ، أى الاوقاف ، ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وزوايا وغيرها . . . كما يشرف على الاراضى والعقارات المحبوسة عليها .

٤ - ديوان النظر ، وقد اخص بمراقبة حسابات الدولة ، والاشراف على ايراداتها ومصروفاتها ، وما يتبع ذلك من صرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقدا ، فى حين يصرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع ، وغير ذلك (٥٨) .

أما عن شئون القضاء والعدالة ، فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم . وكان أهم تطور حدث فى النظام القضائى فى عصر سلاطين المماليك هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٥ م) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الاربعة ، بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين

(٥٧) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١١٥ .

(٥٨) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥٢ .

أن يقتصر ذلك المنصب على قاضي القضاة الشافعي^(٥٩) . وقد قام القضاة في ذلك العصر بدور هام في المجتمع ، إذ امتدت اختصاصاتهم الى مختلف أوضاع القضايا المدنية والجنائية . وكانت جلسات المحاكم تعقد في دور القضاء ، فإن لم توجد ، عقدت في المساجد .

وهناك محكمة عليا كانت تعقد في دار العدل برئاسة السلطان ، عرفت باسم محكمة المظالم ، ومهمتها النظر في القضايا التي اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أو التي يستأنفها أصحابها أمام السلطان ، بعد أن يحكم فيها القضاء العادي ، أو تلك التي تكون بين الحكام والمحكومين .

أما رجال الجيش . فكان لهم « قضاة العسكر » ، وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون في القضايا النائية بين العسكر والمدنيين . وقد جرت العادة أن يصحب قضاة العسكر السلطان في أسفاره^(٦٠) .

الجيش والبحرية :

إذا حاول باحث أن يعثر على صفة بارزة مميزة لدولة سلاطين المماليك في مصر والشام . فانه لن يجد أفضل من وصف هذه الدولة بأنها اقطاعية حربية . فطبيعه المماليك ونظامهم ، وظاهرة الرغبة في شرائهم واقتنائهم : نبعث من فكرة أساسية واحدة ، هي تكوين جماعة من المحاربين الأشداء ، واعدادهم ليكونوا درعا حاميا لاساتذتهم الذين دفعوا الأموال في شرائهم ، وتعهدوهم بالتربية . ولا يكاد المملوك يدرك سن البلوغ ، حتى يدخل مرحلة تعلم فنون الحرب ، من « الرمي بالفتشاب ، واللعب بالرمح ، وركوب الخيل ، وأنواع

(٥٩) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٨ - ٥٢٦ (تحقيق محمد مصطفى زيادة)

(٦٠) القلقشندي صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

الفروسية» (٦١) . وعندما يتم الملوك هذه المرحلة التعليمية ، ينقل الى الخدمة ، ويمر بأدوارها رتبة بعد رتبة ، حتى يصير من الأمراء (٦٢) .

وفي أول الأمر يتقاضى الملوك جامكية — أى مصروفاً — يتدرج من ثلاثة دنانير الى خمسة الى سبعة الى عشرة . ولكنه بعد ذلك ينقل من الجامكيات الى الاقطاعات ، والتي اميرة العشرات ، ثم الى الطبلخانات . ومنهم من ينقل بعد ذلك الى مقدمة الالوف وامرة المئين . أما اقطاعه ، فيتراوح — في حالة كونه مملوكا — بين زمام قرية وزمام نصف قرية . فاذا صار أميرا ، تراوح اقطاعه بين زمام قرية وعشر قري (٦٣) .

وفي معظم الأحوال ، كان السلطان بنفسه يقوم بتوزيع الاقطاعات ، فاذا تقدم اليه الملوك ، سأل عن اسمه وأصله ، وتاريخ قدومه الى الديار المصرية ، وأستاذه الذي اشتراه من تاجره ، وصفاته حتى أصبح فارسا (٦٤) . فاذا وقع اختيار السلطان عليه ليمنحه اقطاعا ، أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة تسمى المثال ، تحدد حدود اقطاعه ، ثم تخرج الوثيقة النهائية للاقطاع من ديوان الانشاء . وعلى هذا فقد كان الاقطاع في عصر سلاطين المماليك يرتبط ارتباطا قويا متينا بديوان الجيش ، حتى لقد أطلق على هذا الديوان اسم ديوان الاقطاع . وعبر القلقشندي عن ديوان الجيش بأنه « مظنة الاقطاع » ، أى سجله ومركزه ، فقال ما نصه : « اعلم أن مظنة

(٦١) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ (تحقيق محمد مصطفى زيادة) ،

نبيل محمد عبد العزيز : الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك (الانجلو ، ١٩٧٥) .

(٦٢) المقرئى : كتاب المواعظ ، ج ٢ ، ص ٢١٦ وما بعدها (بولاق) .

(٦٣) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٥٠ .

(٦٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٥١ — ٥٢ .

الاقطاعات هو ديوان الجيش دون ديوان الانشاء . وما يكتب فيه من ديوان الانشاء هو فرع ما يكتب من ديوان الجيش « (٦٥) . وهكذا ارتبط الجيش بنظام الاقطاع في عصر دولة سلاطين المماليك ، الأمر انذى جعلنا نختار صفة الاقطاع الحربى لتلك الدولة (٦٦) .

واذا كان ديوان الجيش هو المشرف على شئون الجيش في عصر سلاطين المماليك ، فانه روعى أن يكون على رأس هذا الديوان ناظر على درجة كبيرة من الكفاية ، يعاونه مجموعة من كبار الموظفين الأكفاء ، هم : صاحب ديوان الجيش ، وينوب عن ناظر الجيش في حالة غيابه . ومستوفى الجيش ، ويقوم بتحديد مرتبات الجند وحفظ بيان بها في سجلاته ، في حين يقوم بصرف هذه المرتبات للجند موظف ثالث يطلق عليه لقب مستوفى الرزق . وجميع هؤلاء الموظفين ، روعى فيهم الكفاية المتناهية ، واختير لمساعدتهم عدد من الكتاب والشهود من ذوى الخبرة (٦٧) .

وقد تكون الجيش في عصر سلاطين المماليك من ثلاث فرق أساسية ، الفرقة الاولى عبارة عن طائفة المماليك السلطانية — أى مماليك السلطان القائم في الحكم — وقد وصفهم القلقشندي بأنهم « أعظم الأجناد شأنا ، وأرفعهم قدرا ، وأشدهم قربا ، وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة » (٦٨) . ولهم جوامك

(٦٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٣ .

(٦٦) المتريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٥ — ٢١٩ (بولاق) .

(٦٧) الخالدي : المتصد الربيع ، ص ١٣٦ .

نبيل محمد عبد العزيز : خزانة السلاح (٣) ، ص ١٤ وما بعسدها (الانجلو ، ١٩٧٨) .

(٦٨) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ .

مقررة في كل شهر ، وجرايات ولحوم في كل يوم ، وكسوة في كل سنة .

وتشمل الفرقة الثانية طائفة مماليك الأمراء ، أى الذين اشتراهم الأمراء ، كل حسب درجته ورتبته ، وتمهدوهم بالرعاية . ومن هؤلاء كانت تتألف الوحدات الحربية التى ترافق السلطان في حروبه . وكل وحدة تتألف من أمير على رأس مماليكه ، « ويعتد بطائفة من اقطاع الأمير للعدة المقررة له منهم » .

وأخيرا تأتى الفرقة الثالثة ، وهم طائفة أجناد الحلقة ، وتشمل مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجندية ، وصاروا بمثابة جيش ثابت للدولة ، لا يتغير بتغير السلطان . ويشرف على كل ألف منهم في وقت الحرب أمير مائة مقدم ألف ، أى أمير له الحق في امتلاك مائة مملوك لنفسه ويقود في وقت الحرب ألف جندي من أجناد الحلقة^(٦٩) . « ولكل منهم اقطاع يقال له خبز » . ومنذ أيام السلطان الظاهر برقوق ، صار الامراء يأخذون اقطاعات الحلقة باسماء مماليكهم ، وتخدم أجناد الحلقة عندهم ، كما صارت المماليك السلطانية أيضا تأخذ الاقطاعات مع الجوامك^(٧٠) .

وإذا نحن تكلمنا عن نظام الجيش في عصر سلاطين المماليك ، فإنه ينبغى أن نتذكر أمجاد ذلك العصر ، ونعى الانتصارات التى حققتها الجيوش المماليكية على مختلف الجبهات . وحسب جيوش المماليك أنها طردت الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، وأنزلت الهزيمة بالتتار في عين جالوت : ووقفت بالمرصاد لكل محاولة من جانبهم للتغلغل في بلاد الشام ، ودمرت مملكة أرمينية الصغرى في قليقية ،

(٦٩) العمرى : مسالك الإبصر ، ج ٥ ، ص ١٦٦ .

(٧٠) المقرئى : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٦٢ (تحقيق

المؤلف) .

وغزت بلاد النوبة وأخضعت مملكتها . ومن البديهي أن جيشا لا يستطيع تحقيق كل هذه المكاسب الضخمة الا اذا توافر له من الامكانيات وحسن النظام ودقة التدريب ، ما يساعده على ذلك (٧١) .

والواقع أننا نجد في المصادر المعاصرة كثيرا من الاوصاف التي تعطى انطبعا عن حسن تنظيم الجيش المالكي . فالسلطان — كما سبق أن أوضحننا — لا يقدم على حرب عادة ، الا بعد استشارة « مجلس الجيش » الذي يضم كبار الامراء ، فضلا عن الخليفة وقضاة القضاة الاربعة . فاذا تقررت الحرب ، اجتمع الجند ليقسموا يمين الطاعة والولاء للسلطان ، وعندئذ تفتح السلاح خاناه ابوابها ، لتوزيع السلاح على المحاربين .

أما عن نظام الجيش أثناء المعركة ، فكان يقوم على أساس ترتيب الجند على هيئة صفوف متراسة تكون أقسام الجيش الثلاثة — وهي القلب والميمنة والميسرة — فضلا عن المقدمة . ويكون القائد العام للحملة عادة في قلب الجيش ، وربما في مقدمته ليستثير روح الاقدام والشجاعة في الجند . وكانت الطبول والموسيقى الحماسية جزءا أساسيا في الجيش المالكي ، فتحمل الطبول على عشرين بغلا ، ويعتمد عليها في تنظيم الحركة واعطاء الاشارات ببدء القتال (٧٢) . هذا فضلا عن الاعلام والرايات التي كانت تتقدم الجيش ، ويلتف حولها كل قسم من أقسامه .

وأخيرا ، فانه يلاحظ أن الماليك كانوا فرسانا قبل أي اعتبار آخر ، واعتمد نظامهم بصفة أساسية على الفروسية . لذلك كان الجيش

(٧١) نبيل محمد عبد العزيز : كتاب نهاية السؤل والامنية في تعلم أعمال الفروسية ، مع دراسة تاريخية عن نظام الفروسية في عصر سلاطين الماليك . (رسالة تحت اشراف المؤلف محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة) .
(٧٢) القلقشندی : صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

الماليكى يتألف أساسا من الفرسان ، الأمر الذى جعلهم يهتمون بالخيل اهتماما بالغا ، ويعينون كبار الموظفين للإشراف عليها ، وعلى أدواتها وعددها ، كاللجم والسروج وغير ذلك ، فضلا عن الاتفاقيات بسخاء على الاصطبلات الخاصة بالخيل (٧٣) .

ولكن ليس معنى تغلب صفة الفروسية على الممالك أنهم أهملوا جانب البحر والاسطول . وحسب دولة سلاطين الممالك أن المؤرخين المعاصرين وصفوها بأنها دولة البرين والبحرين ، بمعنى أنها ضمت برى مصر والشام ، وأطلت على بحرى الروم والقلزم .

وقد سبق أن أشرنا الى أن أية دولة تقوم فى تلك البقعة من الارض لابد لها من أسطول قوى يحمى شواطئها ويؤمن لها قدرا من الطمأنينة . واذا كان سلاطين بنى أيوب قد أهملوا شأن الاسطول بعد صلاح الدين — كما سبق أن أوضحنا فيما سبق — فان الظروف التى قامت فيها دولة سلاطين الممالك جاءت نتيجة مباشرة لحملة لويس التاسع على مصر فى أواسط القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — وهى حملة بحرية أتت عن طريق البحر ، واعتمدت على البحر فى الاحتفاظ بالشریان الذى يربطها بالغرب الأوربى . والممالك هم أول من أنزل الهزيمة بلويس التاسع ورجاله ، وفى احتكاكهم بتلك الحملة الصليبية أدركوا أهمية الاسطول بالنسبة لأمن البلاد والعباد .

وهكذا ما كاد الظاهر بيبرس يرتقى دست السلطنة ، حتى « نظر فى أمر الشوانى الحربية ، واستدعى رجال الاسطول . . ومنع الناس من التصرف فى الاخشاب ، وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الاسكندرية

(٧٣) نبيل محمد عبد العزيز : الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين الممالك ، ص ٩ وما بعدها (مكتبة الانجلو ، ١٩٧٥) .
وانظر أيضا لنفس المؤلف كتاب (الاتيق فى المفاجيق — وضع ارنيفا الزردكاش) — مكتبة الانجلو ، ١٩٨١ .

ودمياط، وصار ينزل بنفسه الى دار الصناعة بمصر، ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها . واستدعى شوانى الثغور الى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة ، سوى الحزازيق والطرائد ، فانها كانت عدة كثيرة» (٧٤) .

وسرعان ما صدق ظن بيبرس ، اذ أخذت دولة سلاطين المماليك في مصر والشام تحس احساسا شديدا بالضغط البحرى الذى تمارسه عليها مملكة لوزجنان الصليبية في قبرس ، سواء من ناحية مساعدة البقايا الصليبية بالشام ، أو من ناحية قطع الطريق على السفن الاسلامية في عرض البحر (٧٥) . وما كاد بيبرس يطمئن الى قوة أسطوله ، حتى عزم على تأديب قبرس وملوكها ، فأرسل اليها حملة عدتها سبع عشرة سفينة كبيرة ، بقيادة الرئيس البحرى ابن حسون . غير أن ريحا عاتية هبت على السفن المماليكية قرب شواطئ قبرس ، فحطمت منها أحد عشر شينيا . وعندما أرسل ملك قبرس يعيب على بيبرس انكسار سفنه ، رد عليه السلطان برسالة طويلة جاء فيها : « أنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول » . وتتضمن هذه الاشارة اعترافا صريحا بأن أساس قوة دولة المماليك فرسانها ، وجيوشها البرية ، لا أساطيلها البحرية (٧٦) .

ومع ذلك ، فان بيبرس لم يهمل شأن الاسطول ، وانما عاود الكرة ، وسعى بسرعة لتعويض الخسارة ، فأمر بانشاء عشرين شينيا ، « وأحضر خمسة شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ، ولزم الركوب الى صناعة العمارة بمصر كل يوم : في مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة ، الى أن تنجزت» (٧٧) . ولا شك في أن

(٧٤) المقرئى : كتاب المواعظ ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٧٥) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٤٧ .

(٧٦) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٧٧) المقرئى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

الاسطول المماليكى كان له دور كبير فى مساندة القوات البرية التى قامت بتطهير بلاد الشام من آخر البقايا الصليبية ، وخاصة أن هذه البقايا الكبرى — وهى انطاكية وطرابلس وعكا — كانت كلها موانى بحرية .

وإذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاون هو صاحب الفضل فى الاستيلاء على آخر هذه البقايا — وهى مدينة عكا — سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، فإن ذلك جعل الأشرف أكثر احساسا بأهمية الاسطول لدولته . لذلك لم يكن عجبا أن يهتم السلطان الأشرف خليل اهتماما خاصا بأمر الاسطول ، « فنزل الى (دار) الصناعة ، واستدعى الرئيس . وهيا جميع ما تحتاج اليه الشوانى ، حتى كملت عدتها نحو ستين شونة ، وشحنها بالعدد وآلات الحرب ، ورتب بها عدة من المماليك السلطانية ، وألبسهم السلاح . . . » (٧٨) .

وثمة حقيقة كبرى ، هى أن طرد الصليبين نهائيا من الشام فى أواخر القرن السابع الهجرى — الثالث عشر للميلاد — ضاعف من أهمية العمل البحرى فى شرق البحر المتوسط ، لأنه جعل الحروب الصليبية تنتحول من معارك برية الى معارك بحرية . ذلك أن البابوية لم تجد وسيلة للانتقام من سلطنة المماليك ، سوى تهديد نشاطها التجارى ، وحرمانها من المصدر الأول لثروتها وقوتها . ولذلك استغلت الحركة الصليبية موقع جزيرة قبرس فى قطع الطريق على السفن التجارية الايطالية التى رفض أصحابها الأذعان لسياسة البابوية ، واستمروا يواصلون نشاطهم التجارى مع سلطنة المماليك (٧٩) . هذا الى أن ملك قبرس — بطرس لوزجنان — قام سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م —

(٧٨) المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(٧٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٥٢ وما بعدها

(الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦) .

بحملة صليبية جريئة على الاسكندرية ، دمر فيها المدينة — كما سبق أن ذكرنا — وأتى من الأعمال الوحشية ما استثار غضب المسلمين جميعاً^(٨٠) . وهكذا تحولت الحروب الصليبية في القرنين الثامن والتاسع للهجرة — الرابع عشر والخامس عشر للميلاد — الى حروب بحرية ، وخاصة بعد أن دخلت رودس حلبة هذه الحروب ، وأخذ فرسان الابيتارية برودس يهددون دولة المماليك وتجارها البحرية^(٨١) .

ولم يقف الاسطول المماليكى جامدا أمام ذلك التهديد ، وانما أرسل السلطان الأشرف برسباى ثلاث حملات في اسنوات ٨٢٧ ، ٨٢٨ هـ ، ٨٢٩ هـ (١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ م) لغزو قبرس ، حتى نجح في اخضاع الجزيرة وأسر ملكها في الحملة الأخيرة . ثم عاد الاسطول المماليكى يحمل مئآت من الأسرى الذين تم استعراضهم في شوارع القاهرة ، وعلى رأسهم ملك قبرس الأسير^(٨٢) .

وبعد قبرس جاء دور رودس ، فأرسل السلطان جقمق ثلاث حملات بحرية ضد رودس في سنوات ٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م) . وقد نجحت هذه الحملات في تأديب الجزيرة ، وان لم تستطع اخضاعها لسلطنة المماليك مثلما حدث في حالة قبرس^(٨٣) .

وهكذا ظل الاسطول في عصر سلاطين المماليك يقوم بدوره كاملا في الدفاع عن البلاد ومهاجمة الأعداء . وفي أواخر عصر سلاطين المماليك ، ظهر خطر البرتغاليين واضحا على الشرق ، بعد أن وصلوا الى الهند عن طريق الطواف حول افريقية ، الأمر الذى مكنهم من

(٨٠) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٨١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٧٤ وما بعدها .

(٨٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٨٤ وما بعدها .

(٨٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى في مصر والشلم ، ص ١٦٦

وما بعدها .

تهديد البلاد الاسلامية في جنوب آسيا وعند مدخل البحر الأحمر ، فضلا عن تهديد سلطنة المماليك في أعز ما تعتمد عليه ، أعنى احتكار التجارة بين الشرق والغرب . وفي المعركة الحتمية بين المماليك والبرتغاليين ، أدرك السلطان قانصوه الغورى أنها معركة البقاء أو الفناء ، ففزع الى الأسطول لدعمه في البحر الأحمر ، وبنى عشرين سفينة كبيرة زودت بالمكاحل النحاسية والحديدية . وأخذت دار الصناعة في مصر تصنع السفن لتحمل أجزاءها مفككة على ظهور الابل . ، ويتم تجميعها وتركيبها على شاطئ البحر الأحمر . وفي المحرم سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) قام السلطان الغورى بزيارة السويس لشاهدة هذه السفن واستعراضها ، حتى قيل أن نفقات بناء الاسطول في البحر الاحمر تجاوزت أربعمائة ألف دينار .

ولكن عوامل الضعف التي أخذت تنخر في عظام دولة سلاطين المماليك في أواخر أيامها امتدت الى كافة أجهزة الدولة ومرافقها ، فلم يستطع الاسطول المماليكى الصمود أمام البرتغاليين في موقعة ديو البحرية سنة ٩١٦ هـ (١٥٠٩ م) ، وحلت به الهزيمة ، وعاد أمير انبهر حسين الكردي الى مصر « مع فلول أسطوله » (٨٤) .

هذا عن النشاط البحرى في عصر سلاطين المماليك ، أما أنواع السفن التي استخدمت في الأساطيل الاسلامية في تلك العصور ، فعديدة ، بحيث تخصص كل نوع منها لغرض معين . ونكتفى هنا بالإشارة الى أهم أنواع تلك السفن ، وهى الشوانى والحراريق والطرادات والأغربة والبطس والمسطحات .

أما الشوانى — ومفردها شينى — فكانت أكثر السفن استعمالا . في الأساطيل الاسلامية . وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع ، تستعمل في حالتى الدفاع والهجوم ، وتجهز للحرب

(٨٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ص ١٨٥ وما بعدها ، سنة ٩١٦ هـ (تحقيق محمد مصطفى) .

بالسلاح والمقاتلة الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين • ويجدف الشيني بمائة مجداف (٨٥) •

وأما الحرائيق أو الحراقات ، ومفردها حراقة ، فهي سفن حربية كبيرة ، تقل في حجمها عن الشوانى ، سميت حرائيق لأنها كانت تحمل حرامي النيران — مثل النار الأفريقية والنفط — ومنها تلقى النار على سفن العدو وأهدافه فتحرقها (٨٦) •

وكانت الطرادات — ومفردها طراد — سفن صغيرة سريعة ، تستخدم في الكر والفر ، وخصصت عادة لحمل الخيول ، فيحمل الطراد الواحد منها ما يتراوح بين أربعين وثمانين فرسا (٨٧) •

وأما الأخرية — ومفردها غراب — فسميت كذلك لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر • وهي تمثل في الماء شكل الطير في الهواء • والغراب يحفل الغزاة ، ويسير بعدد من المخاديف يبلغ مائة وثمانين مجدافا ، ومن خصائصه أنه كان مزودا بجسر من الخشب ، يهبط على مركب العدو ، ويمر على ظهره الجند ، فيقاتلون بالأساليب البرية •

ثم تأتي البطس — ومفردها بطسة — وهي سفن كبيرة الحجم ، تسير الواحدة بعدد من الأشرعة يبلغ أربعين شرعا • وهي أشبه بالناقلات الضخمة فتتسع الواحدة لعدد من الجند يصل الى سبعمائة ، فضلا عن المحاربين والأسلحة والذخيرة والغلال والميرة • ولها أسطح عالية وطبقات متعددة (٨٨) •

(٨٥) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ،
عبد الفتاح عيادة : سفن الإسطول الإسلامى ، ص ٤ •
(٨٦) درويش النخيلى : السفن الإسلامىة على حروف المعجم ،
ص ٢٢ ، جيل خاتكى : البحرية المصرية ، ص ١٣١ •
(٨٧) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ •
(٨٨) درويش النخيلى : السفن الإسلامىة على حروف المعجم ، ص

أما المسطحات — ومفردها مسطح — فنوع من السفن الضخمة الكبيرة ، سميت كذلك لأن لها سطح ، وهي تشبه البطسة . كانت تسير وقت الحرب خلف السفن الأخرى خشية أن تخوض في منطقة ضحلة المياه يصعب عليها الحركة فيها ، فعندئذ تسعفها المسطحات ، لأن غاطسها قليل العمق في الماء (٨٩) .

الفنون :

كان عصر سلاطين المماليك بمثابة العصر الذهبي لكثير من الفنون في مصر الإسلامية . ويمكن تفسير هذه الحقيقة في ضوء ما اشتهر به ذلك العصر من ثروة ومال نتيجة للدور الذي قامت به تلك الدولة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب . ومع المال والثراء ، كان الترف والرغبة في التائق واقتناء التحف . هذا الى أن الفنان في المجتمع الغني لا يقنع بالجهد البسيط والانتاج السهل في عمله ، وإنما يبالغ وهو مطمئن الى أنه سيجد من التقدير وارتفاع الأجر ما يحفز به الى مزيد من الجهد والعناية .

ففي العمارة ، تشهد عمائر العصر المماليكي التي تزدان بها مدن دولة سلاطين المماليك في مصر والشام — وبخاصة القاهرة عاصمة الدولة — من مساجد ومدارس وأضرحة وسبل وحمامات وبيمارستانات . . . وغيرها ، على الذوق الجميل والرغبة في الابداع والحرص على التقنن . ومن أمثلة هذه العمائر مدرسة السلطان الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون — قرب القلعة بالقاهرة — وما تتصف به من تصميم عجيب ، وقبة عظيمة ، وأبواب فخمة ، وإيوانات عالية ، وزخارف دقيقة . . . وهذا المثل واحد من كثير (٩٠) .

Dozy : Supplément Aux Dictionnaires Arabes. (٨٩)

(٩٠) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٧٣ .

وقد امتازت عمارة المساجد في ذلك العصر بالعناية بواجهات المساجد وجمال مآذنها ورشاققتها ، وزخرفة الأرضيات والوزرات بالرخام الملون ، فضلا عن السقوف المذهبة ، والكتابات الزخرفية . . . مما أضفى عليها روعة وبهاء .

وما يقال عن المساجد والمدارس ، يمكن أن يقال من زاوية أخرى عن روعة فن العمارة في بقية المنشآت في العصر المماليكي . فالمدافن مثل مدفن برقوق ومدفن قايتباي بالصحراء الشرقية ، ومجمع قلاون الذي يشمل قبة ومدرسة وبيمارستان . . . جاءت كلها في تصميمها وعمارتهما نماذج فنية رائعة . ومثل هذا يقال عن حمام بشتاك الذي لم يبق منه الا مدخله المكسو بالرخام الملون ، وقصر قوصون — خلف مدرسة السلطان الناصر حسن — ، ووكالة الأمير قوصون ، ووكالة الغورى . . . وغير ذلك من آثار ذلك العصر .

أما فن النحت . فقد استطاع الفنانون في العصر المماليكي ابتكار أشكال في النحت على الخشب ، أكثر اتقاناً مما كان عليه الوضع في العصر الأيوبي . ذلك أن فناني عصر المماليك ابتكروا أشكالاً جديدة من المراوح النخيلية ، ووحدات من الزخارف النباتية ، كما شاعت في ذلك العصر الزخارف الهندسية المؤلفة من حشوات صغيرة تمثل أشكالاً سداسية الأضلاع . تنتظم حول شكل نجمي في الوسط . وقد استخدمت في الحفر أخشاب منباينة الألوان ، طعمت أحياناً بالأبنوس والعظم (٩١) . ويشهد على رقى فن النحت على الخشب في عصر سلاطين المماليك عديد من المنابر الرائعة في المساجد التي ترجع الى ذلك العصر . كذلك ازدهرت في عصر المماليك صناعة الشبكيات أو المشربيات الخاصة بالنوافذ وواجهات البيوت ، وهي من الخشب المخروط . هذا فضلا عن التحف الدقيقة المصنوعة من الخشب . مثل الدكك والكراسي والصفاديق ، وغيرها .

ولم يكن النحت على الرخام والجص أقل روعة من النحت على الخشب ، اذ تشهد المنابر الرخامية ، والأفرايز المنقوشة ، والألواح الرخامية في الأسبلة ، والشبابيك المصنوعة من الحجر المفرغ . . . تشهد كلها بما فيها من نقوش منحوتة ، على مهارة الفنان في عصر سلاطين المماليك . وكذلك كان النحت على العاج ، اذ تحوى المتاحف العالمية ، تحفا عديدة من العاج ، ترجع الى عصر سلاطين المماليك ، ومعظمها اقتصرت الزخرفة فيه على الأشكال النباتية والهندسية . هذا وان كان العاج قد استخدم على وجه الخصوص في التطعيم والترصيع ، لاسيما في حشوات المنابر وقطع الأثاث^(٩٢) .

أما صناعة المعادن ، فقد بلغت شأوا بعيدا من الرقى الفنى في عصر سلاطين المماليك . وقد امتازت التحف المعدنية التي ترجع الى ذلك العصر بصفات خاصة وطابع مميز يجعل من السهل تمييزها . ذلك أنها جمعت بين الزخارف النباتية التقليدية ، وزخارف جديدة شاع استخدامها في ذلك العصر ، مثل رسم أزواج من الطيور مرتبة داخل معينات ، كما يبدو على ابريق جميل يرجع الى عصر السلطان الناصر محمد ، ومحفوظ في متحف المتروبوليتان^(٩٣) ، كذلك بقى من عصر المماليك عدد من الأبواب الجميلة المصنعة بالنحاس ، وبها زخارف تؤلف الأطباق النجمية التي امتاز بها ذلك العصر . وازدهرت في عصر سلاطين المماليك صناعة التكتفيت ، أى تطعيم النحاس بالذهب والفضة ، فذكر المقرئى أنه لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت .

كذلك بلغت صناعة الزجاج المطفى بالمينا أوجها في مصر والشيام على عصر سلاطين المماليك ، اذ شاع استخدام الموضوعات الآدمية والحيوانية والنباتية ، فضلا عن الكتابة على الألوان الزجاجية التي

(٩٢) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٠٤ .

(٩٣) ديماوند : الفنون الاسلامية ، ص ١٥٥ .

صنعت في ذلك العصر • وما زالت الكؤوس والأباريق والقوارير
والمشكيات الباقية من ذلك العصر تعتبر من أجمل ما تردان به المتاحف
انعمالية • ومن أمثلتها دورق من الزجاج الموه بالمينا في متحف برلين •
والمينا عليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، وعليه
تذهيب ما زال محتفظا ببريقه ، وعلى رقبتيه كتابة بالخط الثلث
الجميل (٩٤) •

وما يقال عن الزجاج ، يمكن تطبيقه على الخزف • ومعظم الأواني
الخزفية التي ترجع الى عصر سلاطين المماليك من النوع المرسومة
زخارفه تحت طلاء شفاف . كما يزين بعض الأواني المماليكية ، زخارف
من الكتابة العربية على أرضية منقطعة منتظمة في أشرطة أو داخل
فصوص • وتوجد في متحف المتروبوليتان مجموعة من الأواني تمثل
الخزف المماليكي في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر للميلاد ، وتتكون
زخارفها الأساسية من كتابات عربية تتضمن تمنيات طيبة لصاحب
التحف (٩٥) •

وقد وصلت اليها أسماء بعض الخزفيين الذين عملوا في إنتاج
الخزف أي الزخارف المنقوشة تحت الدهان ، مثل غيبي التوريزي
— وهو كما يتضح من اسمه إيراني الأصل تزح الى القاهرة — ، وغزال ،
والاستاذ المصري . وغيرهم ممن وجدنا أسماءهم على منتجات ذلك
العصر • وثمة ملاحظة أخرى ، هي أن الفخار المطلق بالمينا كان يستعمل
بكثرة في بيوت الأمراء ، ولذا امتازت زخارفه بالرنوك أو الشارات التي
اتخذها أولئك الأمراء علامة لكل منهم (٩٦) •

أما إنتاج النسيج في عصر سلاطين المماليك ، فقد احتفظ بمستواه
الرفيع • وتميزت الزخارف المطرزه في ذلك العصر بخطوطها المتعرجة

(٩٤) زكى محمد حسن : فنون الاسلام . ص ١٠١ •
(٩٥) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٢٠ •
(٩٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٣٢٦ •

التي تتفق والأسلوب الصناعى المتبع فى انتاجها ، وهو عبارة عن غرز متتابعة متدرجة كالسلم ، يطلق عليها أحيانا اسم غرزة هلباين • أما الأقمشة المطبوعة فقد ظلت تستخدم فى عصر المماليك ، وكانت رسوماها السائدة فى القرنين السابع والثامن للهجرة — الثالث عشر والرابع عشر للميلاد — هى الأشكال المسفنة والتفريعات المزهرة ذات الألوان المتعددة (٩٧) •

وتوجد بالمتحف الإسلامى بالقاهرة قطعة من الحرير ، قوام زخرفتها شريطان من الكتابة النسخية المماليكية ، تتكرر فيها عبارة « عز لولانا السلطان الملك الناصر » • وبين هذين الشريطين شريط ثالث به رسوم شجيرات مورقة ، يفصل كل شجيرة عن الأخرى رسم فهد يطارد غزالا •

* * *

وهكذا كان عصر سلاطين المماليك يمثل عصر النشاط الاقتصادي ، عصر المال والثراء ، عصر الترف والرقى الاجتماعى ، عصر الازدهار الحضارى بالمدلول الواسع لمعنى الحضارة . وفى الوقت نفسه كان عصر دولة سلاطين المماليك بالنسبة لمصر والشام يمثل عصر النشاط السياسى ، والقوة الحربية ، والقدرة على الصمود فى وجه الأخطار الخارجية ، التى هددت منطقة الشرق الأدنى فى ذلك العصر .

ونحن عندما ننظر الى التاريخ ينبغى ألا ننظر اليه بعين واحدة ، ولا أن نقيس الماضى بمقاييس الحاضر ، فلكل عصر مستوياته ومقاييسه ونظراته الخاصة الى الحياة ، وهذه كلها تكسبه طابعه الخاص المميز .

والحمد لله رب العالمين

فهرس الموضوعات

صفحة	
٣	مقدمة
٧	القسم الاول - الدولة الايوبية
٩	الفصل الاول : مولد الدولة
٢٩	الفصل الثانى : صلاح الدين وتأسيس الدولة الايوبية
٥٥	الفصل الثالث : صلاح الدين والصليبيون
٧٣	الفصل الرابع : الدولة الايوبية بعد صلاح الدين
٨٥	الفصل الخامس : السلطان الكامل والحملة الخامسة
٩٩	الفصل السادس : السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى
١١٥	الفصل السابع : الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع
١٣٧	الفصل الثامن : الأوضاع الحضارية فى العصر الايوبى
١٧٣	القسم الثانى - الدولة المماليكية
١٧٥	الفصل الاول : قيام دولة المماليك البحرية
١٩٣	الفصل الثانى : قطز والتتار
٢٠١	الفصل الثالث : الظاهر بيبرس وتأسيس دولة البحرية
٢٢١	الفصل الرابع : بيت قلاون
٢٥٩	الفصل الخامس : دولة المماليك الجراكسة
٢٩٣	الفصل السادس : خاتمة دولة سلاطين المماليك
٣١١	الفصل السابع : أحوال مصر فى عصر سلاطين المماليك

« تم بحمد الله »

رقم الايداع ١٩٩٠/٢١٠٠
الترقيم الدولي ٤ - ٥٧٤ - ٠٤ - ٩٧٧

مطبعة العمرانية للأوقست
٢ ش يوسف عثمان - العمرانية الغربية - الجيزة
تليفون ٥٢٧٥٥٠

To: www.al-mostafa.com